ابو الحسن علي الحسني الندوي

الأركان الأربعة

(الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج)

في ضوء الكتاب والسنة

مقارنة مع الديانات الأخرى





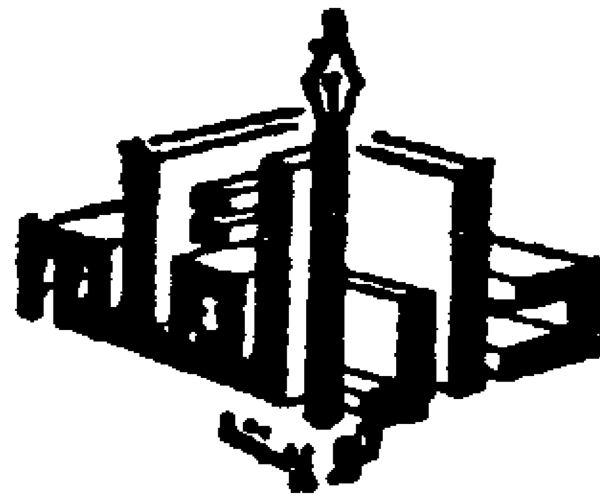
ابو الحسن علي الحسني الندوي

الأركان الأربعة

(الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج)

في ضوء الكتاب والسنة

مقارنة مع الديانات الأخرى



١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م



دار القلم للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ،

أما بعد ، فهذا كتاب تحدثتُ فيه عن أركان الإسلام الأربعة : الصّلاة والزكاة ، والصّوم ، والحج ، عن وضعها السماوي ، وحقيقتها الشرعية ، وتشريعها في الاسلام ، ومكانتها في الدين ، وفي الحياة الفردية والاجتماعية ، وعن مقاصدها وأسرارها كما قررها الكتاب والسنّة ، وفهمها المسلمون في القرون المشهود لها بالخير ، والمتمسكون بلباب الدين ، والراسخون في العلم في مختلف العصور والأجيال ، في غير تكلّف عجمي وتنطّع فلسفيّ ، وتطرّف شخصي ، وفي غير خضوع لأفكار أجنبية واتجاهات عصرية ، وفي غير إخضاع — لمانيها وحكمها ونظمها ومناهجها — للفلسفات السياسية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية السائدة في عصورهم وأمصارهم .

وقد درستُ — زمن تأليفه — القرآن الكريم من جديد ، ومصادر السنة ودواوينها الصحيحة ، وما كُتب في موضوع هذه الأركان ، وشرحها وتفسيرها ، وبيان مقاصدها وأسرارها ، وعُنيتُ بصفة خاصة بكتابات الأئمة الذين شرح الله صدرهم لفهم مقاصد الاسلام وروحه ، والوصول إلى أعماقه ، في غير تفريط وإفراط ، وتكلف وإغراق ، ووفقوا لبيان مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرار التنزيل وحكم التشريع ، كما أرادها الشرع ، وكما

فهما المسلمون الذين توجه إليهم الخطاب، ونزل في لغتهم الكتاب، وكانوا يجمعون بين الفهم العميق، والعلم الغزير، والعمل القوي، والاتباع الدقيق (للرسول ﷺ) والمجاهدة الدائبة في مجال العلم والعمل، فتمهدت لهم السبل، ولانت لهم الصعاب، وقد قال الله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»[1]. وقد تشبّعوا بروح هذه العبادات، كما تضلّعوا في علومها، ومارسوها بصدق وإيمان، كما دارسوها بدقة وإمعان، فنطقت هذه الأركان على لسانهم، وعبرت عن مكنوناتها ومضمراتها في شرحهم وبيانهم، وكان أكثر استفادتي من كتاب (حجّة الله البالغة)، لشيخ مشايخنا شيخ الإسلام احمد بن عبدالرّحيم المعروف بوليّ الله الدهلوي[2]، وهو كتاب فريد في موضوعه، وقد جاءت خلاصة ما كتبه في الأركان الأربعة وروحُه في هذا الكتاب.

فبدأت بالكتاب والسُنّة وما ورد عن هذه الأركان، وعن روحها وحقيقتها، ومقاصدها وآدابها، في القرآن والحديث، وأردفت ذلك بما جاء في كتب هؤلاء الأئمة في تفسيرها وتفصيلها، وتوجيهها وتعليمها، فجاء تفصيلاً للمجمل، وتبسيطاً للموجز، ولم يمنعني الحياء والشعور بالنقص عن عرض ما فتح الله به عليّ - وهو الفتّاح العليم - من فهم بعض مقاصد هذه الأركان الجليلة، والكشف عن بعض جوانبها ومطاويها وصلتها بالحياة وفضّها لكثير من المعضلات والمشكلات، ولم أتوقف من نقل بعض أقوال العلماء المعاصرين، وذلك كله في أسلوب علمي أدبي عصري، فجاء الكتاب بحول الله يجمع بين القديم والجديد، ويمثّل المكتبة الاسلامية الزاخرة في هذا الموضوع، ويعرضها عرضاً جديداً للجيل الاسلامي الجديد، فقد كادت صلته تنقطع عن كتب المتقدمين وأساليبهم، وخير ما دبّجته أقلامهم وفاضت به خواطرهم، فكان ذلك خطراً على الجيل الجديد، وتفريطاً في حق السلف، وإساءة إلى

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩ (٢) (١١١٤ - ١١٧٤هـ) راجع لترجمته نزهة الخواطر للسيد عبد الحي الحسني (المجلد السادس).

المكتبة الاسلامية التي لا تُدانيها مكتبة دينية في أمة من الأمم ، وقد توارثت هذه الأمة فهم معاني العبادات وحقيقتها ومقاصدها كما توارثت أوضاعها وأشكالها ، وأحكامها وآدابها ، وتوارثت العمل بها من غير انقطاع أو فترة ، أو جهالة أو غفلة ، حتى وصل إلينا هذا الدين ، متواتراً متصلاً ، في المعاني والأشكال ، والمقاصد والهيئات ، فليس لأحد في هذا العصر أن يبتكر لركن من هذه الأركان ، مفهوماً لم تعرفه هذه الأمة في عمرها الطويل ، أو يلبسه لباساً « مستورداً » من الخارج أو مستعاراً من أجنبي .

وبدا لي ، بعد ذلك أن أدرس هذه العبادات – وهي العبادات التي تلتقي عليها جميع الديانات التي كانت لها أيُّ صلة بالسماء في عهد من العهود – في الديانات الأخرى ، وهي التي لا يزال يدين بها خلق كثير وشعوب كبيرة في العالم المعاصر ، وأن أقارن بين أوضاع هذه العبادات ومناهجها وفلسفتها وأحكامها في هذه الديانات ، وبين أوضاعها ومناهجها وفلسفتها وأحكامها في الدين الاسلامي ، والشريعة الاسلامية ، وأن أعتمد في ذلك على مصادر هذه الديانات الأصيلة الموثوق بها عند أهلها ، كما اعتمدت في الحديث عن أركان الاسلام الأربعة وعرضها وتفسيرها على القرآن والحديث غالباً ، وعلى كتب أئمة الاسلام نادراً ، وأن يكون استعراضي لما كتب في هذا الموضوع في الديانات الأخرى ، ودراستي له دراسة أمينة عميقة ، أحاول فيها بقدر الإمكان أن أهتدي في هذا البحث والدراسة إلى اللُّباب ، والقول الفصل في هذا الباب ، عند فقهاء هذه الديانات وزعمائها .

وقد كانت هذه المهمة عسيرةً دقيقة ، إذ الوضع الديني والفقهي في هذه الديانات يختلف عن الوضع الديني والفقهي عند المسلمين ، اختلافاً كبيراً ، والباحث يواجه غموضاً واضطراباً عظيماً ، وفراغاً علمياً هائلاً ، لا عهد له به في كتب الشريعة والفقه ، وتاريخ التشريع الإسلامي . وقد استطعت بحول الله أن أخرج في هذا الكتاب بدراسة مقارنة تسدّ – إلى حدٍّ ما – فراغاً في هذا الموضوع .

وقد كانت الحاجة إلى الدراسة المقارنة شديدة، لأن المسلم لا يستطيع أن يقدّر نعمة الاسلام، وما أكرمه الله به عن طريق هذا الدين الكامل الخالد الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »، ولا أن يستوفي حق الشكر والحمد إلا إذا قارن بين هذه العبادات في الاسلام والعبادات في الأديان الأخرى، فضلاً عن العقائد والمبادىء والأسس التي يقوم عليها صرح الاسلام العقائدي والكلامي، وقد أثر عن أمير المؤمنين عمر أنه قال: « يوشك أن ينقض الاسلام عروة عروة من نشأ في الاسلام لا يعرف الجاهلية ». والموضوع خاضع للتوسع والترقي، وزيادة الاتقان ودقة البحث، لما يتجدد من معلومات، ويصدر بين حين وآخر من موسوعات علمية ومؤلفات دينية، بقلم علماء هذه الديانات، والمؤلف مستعد للإفادة منها في الطبعات الجديدة.

وكان مما حفز المؤلف على هذا التأليف – رغم أمراضه التي يعانيها، والاشغال والمسؤوليات التي ترهقه – ما كان يشعر به من مدة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات في تفسير هذه الأركان، ومقاصدها وغاياتها، وفوائدها ومصالحها في هذا العصر، وإخضاعها في جراءة كبيرة، وتوسع وسخاء للفلسفات العصرية، والمذاهب الاقتصادية والسياسية، ومصطلحاتها وتعبيراتها المحدودة، حتى كادت هذه الأركان في عقول من آمن بهذا التفسير وخضع لهذا العرض، تفقد حقيقتها وقوتها، وتضيّع مقاصدها التي شرعت لأجلها، وكاد معنى الايمان والاحتساب يضيع من بين هذه التعبيرات المادية والتفسيرات العصرية، وكاد التفكير المادي يطغى على روح العبادة والاخلاص، فكان ذلك – بحيث يشعر أصحاب هذه الفكرة أو لا يشعرون – خطراً كبيراً على الأمة، وطليعة تحريف كبير في فهم المعاني الدينية والمقاصد الشرعية.

وحدث أنّ مجلة « المسلمون » الغراء دعت المؤلف إلى كتابة مقال

عن الحج بمناسبة موسمه ، واتفق ذلك ثلاث مرات ، فكان المؤلف يكتب مقالاً كل عام ، عن حقيقة الحج وروحه ومقاصده ، تنشره المجلة العزيزة وتذيعه الإذاعة السعودية في أكثر الأحيان ، ويقرأه الشباب المسلم بعناية زائدة ، وتقدير كبير ؛ ونظر المؤلف في هذه المقالات الثلاث ، فشعر بأنه أسلوب جديد للكشف عن مقاصد الحج الشرعية الحقيقية ، ومحاولة متواضعة للانتصار لهذا الركن المظلوم ، الذي كان إخضاعه للاتجاهات الجديدة والمعاني السياسية أكثر من كل ركن ، حتى أصبح في نظر كثير من المثقفين مؤتمراً سياسياً عالمياً ، يُعقد كل عام ، وليست له إلاّ هذه القيمة السياسية الاجتماعية ، فرأى أن يوسع هذا المقال وينشره كرسالة مفردة ، تعرض الحج في إطاره الإسلامي الأصيل الواسع ، وتُثير معانيه العميقة ومقاصده البعيدة ، وروحه القوية ، الإبراهيمية الحنيفية .

وكذلك وفق المؤلف لكتابة مقالين عن رسالة الصيام ، ومقاصده بمناسبة حلول رمضان ، واقتراح مجلة « المسلمون » ، فبدا للمؤلف أن يكمل هذين المقالين ويضم إليهما ركن الصلاة والزكاة ، وهكذا تكوّنت فكرة الكتاب ، واستولت على مشاعر المؤلف وأعصابه ، فشغلته عن كل عمل تأليفي ، أو تحقيق علمي ، وبقي يعيش في هذه الفكرة أكثر من عام ، يدرس النصوص ويراجع المصادر ، ويُملي المقالات — لعجزه عن الكتابة والمطالعة بنفسه — ويساعده بعض إخوانه وزملائه في كتابة هذه الأمالي ، وفي تخريج الأحاديث وفي النظر في الموادّ الأجنبية ، والبحث عن الموادّ ، أخصّ بالذكر والشكر منهم العزيز نثار الحق الندوي ، والأستاذ تقي الدين الندوي ، والمفتي محمد ظهور الندوي ، والأستاذ شاهد علي ، مدرس اللغة الإنكليزية في دار العلوم ، والعزيز علي آدم الإفريقي[1] ، والأخوين نذر الحفيظ وغياث الدين الندويين

(١) ومحمد سعيد .

جزاهم الله جميعاً عن المؤلف والقراء ، فجاء هذا الكتاب حصيلة مطالعة ، ونتيجة تأملات ، ورائد بحث أوسع وأعمق ، والحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات .

أبو الحسن علي عبد الحي الحسني الندوي
دائرة الشيخ علم الله الحسني
راي بريلي (الهند)
٢ — ٢ — ١٣٨٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن مؤلف الكتاب يشعر بابتهاج وغبطة ، ويلهج لسانه وجميع جوارحه بالثناء على الله ، والحمد على توفيقه ، وهو يقدم للطبعة الثالثة لهذا الكتاب، الذي يعتبره من أحب الأعمال وأعظم القربات في مجال الكتابة والتأليف ، ويردد قول الشاعر من أعماق قلبه :

فلو أنّ لي في كل منبت شعرة لساناً ، لما استوفيتُ واجب حمده

وقد كانت العناية بموضوع هذا الكتاب ، والتنويه بشأنه في الأوساط العلمية والدينية ، فوق ما كان يتوقعه المؤلف ، وأكثر مما كان يستحقه التأليف ، وظهرت ترجمته بالتركية في مدة قليلة ، وترجمت بالأردنية والانجليزية، ونفدت الطبعة العربية الأولى في بضعة أشهر ، والتجأ الناشر لكثرة الطلب ، وضغط الطالبين إلى إعادة طبعه بالتصوير ، فلم يتمكن المؤلف من تصويب الأخطاء ، التي وقعت في الطبعة الأولى ، وكانت مع الأسف كثيرة ، وصدرت الطبعة الثانية طبق الأصل في كل شيء ، وتأخرت مراجعة الكتاب ، وتصحيح الأخطاء لكثرة أشغال المؤلف وأسفاره ، حتى وفقه الله لذلك أخيراً ، فانصرف كلياً إلى قراءة هذا الكتاب وتصحيحه ، وتنقيحه ، وتهذيبه ، حتى أتمه في مدة قليلة .

وكان المؤلف يشعر بفراغ ، أو بنقص في المواد فيما يتصل بالصدقات في الديانات الهندية القديمة ، وعند اليهود والمسيحيين ، فدرس هـــذا الموضوع من جديد ، وألحق فصولاً جديدة في هذا الموضوع ، هي غاية ما وصل إليه علمه ودراسته ، واحتوت عليه مصادر هذه الديانات ، الموثوق بها ، علاوة على زيادات يسيرة ، وإيضاحات قليلة يجدها القارىء في هذه الطبعة ، فجاءت الطبعة الثالثة بحول الله أكبر قيمة ، وأغنى مادة ، وأكثر ضبطاً ودقة ، من الطبعتين الأولين.

وها نحن أولاء ، نقدم هـــذا الكتاب في طبعته المنقحة المزيدة ، وفي ثوبه القشيب ، للشباب الإسلامي المثقف ، ومديري المدارس ، ومنظّمي حلقات الدراسة والمطالعة ، ولقادة الحركات الإسلامية ، ورجال التربية ، عسى ان يكون حلقة مفقودة ، كان المربُون والموجهون بحاجة ملحة إليها في التثقيب الديني الصحيح. وتكوين المزاج الإسلامي النبوي ، والتمسك بلباب الدين وروحه ، وإثارة روح الإيمان والاحتساب في العاملين ، وتغذية العقل والقلب في وقت واحـــد ، في الدراسات الإسلاميـــة ، وهي غاية ما أمّله المؤلف من تأليف هذا الكتاب ، وتشوّف إليه ، والله من وراء هذا القصد .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

لست عشرة خلون من رجب سنة تسع وثمانين وثلاث مائة وألف
زاوية الشيخ علم الله الحسني رحمه الله

راي بريلي – الهند

الصَّلاةُ

الصَّلاة

« وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين (١) »

الحاجة إلى فهم الصلة التي تقوم بين العبد والرب :

لا يفهم الصلاة ، ولا يفهم الحاجة إليها ولا يتذوّقها ، إلاّ من عرف تلك الصلة الغريبة الفريدة ، التي تقوم بين العبد وبين الرب ، إنها صلة غريبة فريدة ، لا نظير لها ولا مثال ، إنها لا تقاس على صلة بين طرفين وبين اثنين في هذا الوجود ، إنها لا تقاس على صلة بين صانع ومصنوع ، وبين حاكم ومحكوم ، وبين قوي وضعيف ، وبين فقير وغني ، وبين مستجد مكدّ ، وبين جواد منعم فحسب ، إنها صلة أدقّ من جميع هذه الصلات ، وأعمق وأقوى وأشمل .

الصلاتُ تابعة للصفات ، نابعة منها :

ولا يفهم هذه الصلة الغريبة الفريدة بين العبد والرب ، إلاّ من عرف صفة العبد والرب ، والصلة دائماً تابعة للصفة ، نابعة منها ، إنك لا تستطيع أن تحدّد صلة بين طرفين ، وعلاقة بين إثنين، إلاّ إذا عرفت صفة كل واحد منهما ،

---

(١) سورة الروم - ٣١ .

وعرفت التفـاوت أو التفاضل بينهما ، وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلى الآخر ، وفضلِ أحدهما على الآخر ، وجميع الصلات التي نمارسها في الحيـاة ، والتي تشكّل القانون ، وتكوّن المدنية ، وتصوغ المجتمع خاضعة للصفات التي نعرفها أو نتوهمها للأفراد والكائنات ، أو أعضاء الأسرة أو ذوي السلطان .

الصفات والأسماء ، ومكانتها في الدين والقرآن :

لذلك لهجت الصحف السماوية ، والأديان والشرائع بالصفات قبل أن تحدّد الصلات ، وتدعو إلى العبادات ، وتسنّ الفرائض وتحثّ على الطاعـات . ولذلك سبقت العقيدة في جميع الأديان العمل والعبادة وأحكامها وشرائعها ، ودعا جميع الرسل في مختلف الأدوار والأمصار الى العلم الصحيح والمعرفـة الصحيحة ، ووصف الله الوصف الصحيح ، ودعوا إلى التقديس والتنزيـه قبل أن يـدعوا إلى شيء آخر ، وشغل هذا الموضوع أكبر فراغ في أوقاتهم وأكبر قسط من جهودهم وأكبر مـكان في صحفهم ودعواتهم ، وجاهدوا في ذلك الجهاد الأكبر .

والقرآن الذي جاء مهيمناً على هذه الكتب كلها ، وكان الكتـاب الأخير الخالد أكبر شاهد على ذلك . فهو الموضوع المكرّر المنوّع الذي احتلّ المكان الرئيسي في هذا الكتاب المعجز ، وسمّى ما تجلّى فيه هذا الموضوع بأكبر قوة ووضوح على وجازته وقِصَره « وهي سورة الإخلاص » . ثلث القرآن [1] وذكرت من صفات الله الكريمة وأسمائه الحسنى ، وأفعاله وتصرفاته العجيبة ، وقوته وقدرته ، وصنعه وإبداعه ، ولطفه ورحمته ، وحبه ورأفته ، وجوده وكرمه ، وعفوه وصفحه ، وإعطائـه ومنعه ، وضرره ونفعه ، وعلمـه ومعرفته ، وقربه ودنوّه ، وإحاطته ومعيته ، وقبوله واستجابته ، مـا يجعله

(١) جاء في حديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : ألا إنها (يعني سورة الاخلاص) تعدل ثلث القرآن . « باب فضل قل هو الله أحد » .

المثل الأعلى في الجمال والجلال، والكمال والنوال: «وله المثل الأعلى في السموات والأرض... وهو العزيز الحكيم[1]» ويجعله متفرداً في صفات الحُسن والإحسان: «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[2]».

الانسان، المخلوق الغامض المتناقض:

وكذلك وردت نصوص وإشارات في هذه الكتب — وشهد العلم والتجربة بصحتها — بوصف هذا الإنسان المخلوق، وبيان ما فُطر عليه، وتركّبت به طبيعته من أضداد ومتناقضات، فليس هنالك مخلوق — على كثرة المخلوقات والموجودات — أدق وأعمق منه صنعاً، وأكثر منه غرابة وغموضاً، وأعظم منه تناقضاً وتضارباً؛ فهو ضعيف يحب القوة والغلبة، فقير يحبّ الغنى والخير، خاضع لناموس الموت والفناء، محبّ للخلود والبقاء، متعرض للأمراض والأخطار، ولوع بالصحة والسلامة، هلوع جزوع، ولوع طموح، كثير الحاجات دقيق الرغبات، عميق الهواجس والخواطر، بعيد الآمال والنظرات، لا تروى غلته ولا تُشبع جوعته، ملول طرف[3]. سؤوم ضجر يكره القديم التليد، ويطلب المزيد الجديد، ويزهد في الميسور الموجود، ويرغب في المعدوم المفقود، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاسه، وأطول من حياته، وأوسع من أن يسعها هذا العالم المحدود.

وفي هذا التناقض الغريب، والصراع العنيف، وفي هذا الطموح البعيد، والحرص والنهامة، والطلب والإستزادة، سرّ شرفه وكرامته، واصطفائه وخلافته، وبه استطاع أن يتسلّم الأمانة التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال «فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان»[4] وبه استحقّ

(١) سورة الروم - ٢٧. (٢) سورة الشورى - ١١.

(٣) كثير الملل من القديم، محب لكل جديد طريف.

(٤) سورة الأحزاب - ٧٢.

الخلافة في هذه الأرض ، ووصل إلى أسمى مكان تحسده عليه الملائكة المقربون .

مخلوق أليف حنون :

وكذلك عُجنت طينته بالحب والحنان ، ورزق – عدا الحواس الخمس التي يستخدمها ويتمتع بها في حياته المادية – حاسة سادسة هي حاسة الحب والحنان قد تضعف وقد تقوى ، وقد تكمن وقد تبرز ، ولا يحرمها بتاتاً إلا من فقد الإستعداد وحاد عن الفطرة ودخل في الجماد ، فهو مخلوق أليف حنون ، قوي العاطفة رقيق الشعور ، يندفع إلى الجمال أو الكمال اندفاعاً لا يوجد عند غيره من المخلوقات ، من حيوانات وجمادات ، ويعطيها من نفسه ومشاعره ، وحبه وعاطفته وتفانيه ما لا يعطيه غيره ، تشهد بذلك أخبار العشاق والمتيمين الذين لم يخلُ منهم عصر أو مجتمع وأخبار العارفين المحبّين في أمم الأنبياء ، ويشهد بذلك الشعر الغزلي والأدب العاطفي الوجداني ، الذي تزخر به مكتبة الآداب العالمية .

خاضع خاشع بالغريزة :

وكذلك جبل ، مع الغرائز التي يحملها ، غريزة التواضع والخضوع ، والتطامن والخشوع ، وقد تجلّت هذه الغريزة في كل دور من أدوار حياته ، وفي كل طبقة من طبقاته ، فكان في دوره البدائي – ولا تزال له بقية في كثير من المجتمعات – يخضع أمام الأحجار وبعض الأشجار والأنهار ، وكان يعبد النار ، ويعبد الشمس أو القمر أو الكواكب ، ويخشع أمام مظاهر الطبيعة أو الظواهر الكونية ، ويخضع للسدنة والكهّان ، والأحبار والرهبان ، والجن والأرواح ، ولكل ما تعسّر فهمه ودقّ علمه ، ولا يزال رغم ثقافته الواسعة ، وعقليته المترقية ، ودعاويه الطويلة العريضة ، ورغم عتوه واستكباره ، وثوراته التي لا تكاد تنتهي ، يخضع للحكام والسلاطين ، وزعماء الأحزاب ورؤساء الحكومات ، والنظم والفلسفات التي هي من وضعه ، أو وضع بني

جنسه ، ويخضع كذلك في دور نبوغه وتحضّره للمبدعين والعبقريين ، والشعراء والأدباء والفنّانين ، وكثير من المفكرين والمشرّعين ، وكبار الاغنياء الموسرين وأصحاب الحول والطول ، والأمر والنهي خضوعاً فيه كثير من الوله والهيام ، وكثير من التقديس والتأليه ، فهو انسان ولوع حنون ، خاضع خاشع ، متطامن متواضع بالغريزة والفطرة ، .

لابد من مثل أعلى :

فلا بد له من مثل أعلى للجمال أو الكمال ، أو القوة والعزة ، أو الغرابة والغموض ، أو السيطرة والنفوذ ، ليشغل هذه الغريزة ومقتضياتها ، ويرضي مطالبها ويحقق غاياتها ،

الصلة العادلة المعقولة ، التي يجب أن تكون دائماً بين « الانسان » وبين « الله » :

تأمل في صفات الرب التي سبقت ، من قوة وقدرة ، وعلم وخبر ، ورحمة ولطف ، وكرم وجود ، واستجابة وقبول ، وقرب لا مزيد عليه ، وبكل ما نطق به القرآن من صفات الله العليا ، وأسمائه الحسنى ، وبكل ماجاء به في ذلك من المعجب المطرب ، من النعوت والأوصاف ، والأخبار والآثار .

ثم تأمل في صفات هذا الإنسان المخلوق ، واستعرض كل ما اتصف به ، من ضعف وعجز ، وفقر وفاقة ، ثم انظر الى طموحه الذي لم يعرف لأي مخلوق ، ونهامته — للماديات أو المعنويات — التي تفوق كل شره ونهامة عند أكبر حيوان ، وإلى حاجاته التي لا يشاركه مخلوق آخر في كثرتها وتنوعها ودقتها ، وإلى آماله ومطامعه التي لا تكاد تنتهي ، ثم انظر إلى غريزة الحب والحنان ، والخضوع والإنحناء المودعة في هذا الإنسان .

أما احتاج هذا الإنسان إلى أن يكون في خضوع دائم ، وفي ركوع أو

سجود لا انقطاع لها ، وفي مناجاة ودعاء لا نهاية لها ، أمام الرّب، الذي هو الإله الحق والجواد المطلق ، والذي أعطاه من كل ما سأل بلسان القال أو بلسان الحال ؟ : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها [١] » والذي يعلم الخواطر الدقيقة الدفينة ، والأماني الموؤدة المَنسية أو الأحلام القديمة المطمورة ، التي نسيها الإنسان أو تخلّ عنها أو يئس من تحقيقها ، والتي قد يَغار عليها القلب فلا يشرك فيها العقل « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه [٢] » « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [٣] » « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى [٤] » والذي هو أقرب من كل قريب ، والذي هو دائماً سميع مجيب « وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون [٥] » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [٦] » « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون [٧] » والذي كان السائل الملحف ، والداعي المتشبث ، أحب إليه من أبي ممتنع ، وصامت مستغن : « وقال ربّكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [٨] » أدعوا ربّكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين [٩] » ويقول رسول الله ﷺ : « إنه من لم يسأل الله يغضب عليه [١٠] »

الكون في خضوع دائم وعبادة مستمرة :

لقد ظلت الشمس مشرقة وهاجة منذ كان هذا الكون ، تنشر النور وتمنح الحياة والحرارة ، وظل القمر سراجاً منيراً ينير السبيل ويحدد الشهور والسنين، وقد انتصبت الجبال قائمة من آلاف السنين تبلّغ رسالتها ، ووقفت الأشجار

---

(١) سورة ابراهيم - ٢٤ . (٢) سورة الانفال - ٢٤ . (٣) سورة المؤمن - ١٩ .
(٤) سورة طه - ٧ . (٥) سورة البقرة - ١٨٦ . (٦) سورة ق - ١٦ .
(٧) سورة الواقعة - ٨٥ . (٨) سورة المؤمن - ٦٠ . (٩) سورة الأعراف - ٥٥ .
(١٠) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه « كتاب الأدعية باب ما جاء في فضل الدعاء »

على قدم وساق ، وافرة الثمار وارفة الظلال تعبد الرب وتخدم الإنسان – سيد هذا الكون وخليفة الله في أرضه – وانطلق الهواء يحمل رسالة الحياة لهذا الإنسان ، وهبت الرياح لواقح تحمل أمانة الماء من جهة إلى جهة ، وسارت السحب تحمل الأمطار وتحيي الأرض بعد موتها ، وجرت الأنهار تروي ظمأ الإنسان وتسقي الزروع ، وتثير دفائن الأرض ، ومشت الحيوانات والدواب على أربع كأنها في ركوع دائم تنقل الإنسان من مكان إلى مكان ، وتحمل الأثقال ، وله فيها دفء ، ومنافع ، ومطاعم ومشارب ، وزحفت كثير من الحيوانات على صدرها وبطنها فيها مآرب للإنسان ،

فهذه المخلوقات التي لا عقل لها ولا قلب ، في عبادة دائمة ، في طاعة وخضوع لأمر الله تعالى ، فلا عصيان ولا ثورة ، ولا تمرد ولا جموح ، ولا ملل ولا سآمة ، ولا إضراب ولا انقطاع عن العمل ، ولا راحة ولا عطلة ، فكأنها دائماً في السجود : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، ان الله يفعل ما يشاء (١) » « ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون (٢) » « ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال (٣) » «الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان (٤) » « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار (٥) »

---

(١) سورة الحج – ١٨ . (٢) سورة النحل – ٤٩ – ٥٠ . (٣) سورة الرعد – ١٥ .
(٤) سورة الرحمن – ٦ . (٥) سورة ابراهيم – ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ .

فهذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وعلى تنوع عباداتها في صلاة ، تتفق مع طبيعتها ووظيفتها ، وفي حمد وتسبيح لا يفقههما إلا من فتح الله بصيرته ورفع عنه الحجاب : « تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً [1] » « ألم تر أن الله يسبّح له من في السموات والأرض والطير صافات ، كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون [2] »

مركز الإنسان في هذا العالم وما يقتضيه ، وسبب تميّزه عن سائر الكون في العبادة :

لقد كان الإنسان بشرفه واختصاصه ، وعقله وقلبه ، أحقّ من جميع هذه المخلوقات التي سبق ذكرها ، بأن يكون في عبادة دائمة لا انقطاع لها ، من قيام وركوع وسجود ، ومن حمد وتسبيح وذكر لا يفتر عنه لسانه ، وقد كانت الهبات التي اختص بها ، والعناية الإلهية التي كان موضعها ، والنعم التي تدفقت عليه ونزلت كالمطر الغزير ، تقتضي أن لا ينقطع عن هذه العبادة ، ولا ينصرف عن هذه « الصلاة » طرفة عين ، وأن يكون كالملائكة الذين وصفهم الله بقوله : « وله من في السموات والارض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون [3] »

ولكنه اختير ليكون خليفة الله في أرضه ، وهيّىء لهذا المنصب ، فخلقت فيه الشهوات ، ووضعت فيه الحاجات ، وأودعت فيه المشاعر والأحاسيس ، والعواطف والرغبات ، وأودع فيه الحب والحنان والرقة ، والتألم والإلتذاذ ، ووضع فيه الإستعداد للمعرفة ، واستخدام ما خلقه الله في هذه الارض وبثه من دفائن وخزائن ، ونعم وخيرات ، وقوى وطاقات ، وكان تعلم الأسماء الذي

---

(١) سورة بني اسرائيل - ٤٤ . (٢) سورة النور - ٤١ . (٣) سورة الانبياء ١٩-٢٠.

خصّ به من دون الملائكة رمزاً لهذا الإستعداد الفطري ، ومظهراً من مظاهر الخلافة الأرضية ، ومفتاحاً من مفاتيح الإتصال بهذا الكوكب الذي مُنح إمارته والتصرف فيه ، فقال تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (١) » وقال : « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً (٢) » وقال : « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق (٣) »

فكان اختياره لهذا المنصب الخطير ، وكانت خلقته التي طابقت هذه الغاية وخضعت لها ، وكان قيامه بواجبه كخليفة في الأرض . كتبت له الوصاية على خيراتها وطاقاتها تأبى وتنافي أن يكون في قيام دائم ، أو في ركوع دائم ، أو في سجود دائم ، أو في تسبيح لا ينقطع ، وفي ذكر لا يفتر ، شأن الأجرام الفلكية ، أو الجبال الجامدة ، أو النباتات الساكنة ، أو الحيوانات العجماء ، فإذا حاول ذلك أو التزمه ، أقام الدليل على إخفاقه وخيبته ، كخليفة الله في الارض ، وصدّق ما قالته الملائكة وبرّر ترشيحهم أنفسهم لهذا المنصب الجليل ، على أساس التسبيح والتحميد والعبادة الدائمة ،

عبادة مطابقة لوضعه الخاص ومركزه الدقيق :

إذاً كان لا بد من عبادة تليق بفطرته وبمنصبه ، ومركزه في هذا الوجود ،

---

(١) سورة البقرة - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ . (٢) سورة البقرة - ٢٩ . (٣) سورة الاعراف - ٣٢ .

والمهمة التي ألقيت على عاتقه ، والواجبات التي يجب أن ينوء بها ، فكان لا بد من عبادة لأنهـا مقتضى الفطرة ، ونتيجة الغريزة ، ونداء الضمير ، وواجب الشرف ، وحاجة الإنسانية ، وغذاء القلب ، وكان لابدّ أن تكون هذه العبادة مطابقة كل المطابقة لوضعه الخاص ، ومركزه الدقيق ، وموقفه الفريد ، وأن يكون لباساً قد فُصل على قامته ، وعلى قدر حاجته ،

لباس فصل على قامته :

فكانت الصلاة المفروضة هي اللباس المفصّل على قامته من غير طول وفضول ، ومن غير قصر وضيق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير[1] » « إنا كل شيء خلقناه بقدر[2] » .

حكمة التشريع في تخفيف عدد الصلوات المفروضة ، وفوائده النفسيّة :

واختارت لذلك الحكمة الإلهية والتشريع الرّباني طريقة حكيمة تجمع بين المثل الأعلى وبين التدريج والتيسير ، ففرضت الصلاة خمسين صلاة في المعراج ، ثم أنزلها الله إلى خمس صلوات[3] ليعلم المسلم أن الأصل المفروض كان خمسين صلاة ، وأن ربّه تبارك وتعالى قد رآه أهلاً لذلك ، وجديراً به ، فيثير ذلك فيه الثقة بنفعه والإعتزاز بكرامته فلا يستقل هذه الصلوات الخمس ولا يستعظمها ،

---

(١) سورة الملك – ١٤ . (٢) سورة القمر – ٤٩ .

(٣) جاء في حديث طويل عن الإسراء ، رواه البخاري في صحيحه: « وفرض علي خمسين صلاة ، في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى عليه السلام ، فقال: ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت: خمسين صلاة ! قال ارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم ، قال : فرجعت إلى ربي ، فقلت يارب خفف على أمتي ، فحط عني خمساً » إلى أن قال ، فلم أزل بين ربي وبين موسى عليه السلام ، حتى قال يا محمد ، انهن خمس صلوات كل يوم وليلة ، ولكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة »

الجامع الصحيح « كتاب الاسراء »

ويرى أنه قد كان كفؤاً لأضعافها ، وأضعاف أضعافها ، فإنها لو بقيت فريضة محكمة لقام بها ، ولكن ربّه لطف بـه ، فجعلها خمس صلوات تساوي خمسين صلاة ، ولا يزال هذا الأصل الأول مصدر التشجيع ، وباعثاً من بواعث الطموح وعلو الهمة ، والتسامي في العبادة ،

نظيره في القرآن :

ونظيره في القرآن أن المسلمين كان يُطلب منهم في أول الأمر ، أن يقفوا في وجه عدوّهم ، وهو أكثر منهم عشر مرات ، ثم كان التيسير والمسامحة ، فطُلب منهم أن يقاوموه ، ويقفوا في وجهه ، وهـو ضعفهم ، فقال الله تعالى : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين [١] » وكان الحكم الأول – ولايزال – مصدر القوة والشجاعة ، ومصدر الثبات والإستقامة ، ومصدر المغامرة التي هي من أقوى عوامل الإنتصار ، وباعثاً من بواعث الطموح وعلو الهمة ، والتسامي في الجهاد ، ولهذه الحكمة الدقيقة – والله أعلم بأسرار كتابه – بقيت الآية المنسوخة تتلى في الكتات لتضمّ شجاعة إلى شجاعة ، وتزيد حماسة إلى حماسة ، وذلك هو المثل الأعلى للمؤمنين الصادقين والمجاهدين المستميتين ،

وجبات روحية ، وحمن صحية ، عيّن أعدادها ، وأوقاتها العليم الحكيم :

وهذه الصلوات الخمس تؤدّى في أوقاتها المعيّنة التي حدّدها الله فقال : « إن

(١) سورة الانفال – ٦٥ – ٦٦ .

الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً [1] » وأشار إلى أوقاتها في القرآن [2]
ولها ركعات معدودة تؤدى بها هذه الصلوات الخمس دائماً ، وقد داوم عليها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله واصحابه وسلّم مدة حياته ، حتى في الحروب ، وتواترت أخبارها تواتراً لا يُعرف لأي عمل أو عبادة في ملة من الملل ، وفي دور من أدوار التاريخ ، وتوارثتها الأمة جيلاً بعد جيل ، وطبقة بعد طبقة من غير فترة يوم واحد ، حتى في أدق ساعاتها وأعظم محنها وأزمانها ،

وهذه الصلوات الخمس بأوقاتها وركعاتها ، وجبات روحية وحقن صحّية ، شرعها الخلاق العظيم ، المبدع الحكيم ، الذي ليس طبيب النفوس فحسب ، بل هو خالقها العليم وصانعها الحكيم كذلك ، فلا بد من الإيمان والخضوع لحكمتها وتشريعها ، ولا بد من التمسّك بها ، والعض عليها بالنواجذ ، والإتيان بها في أوقاتها ، التي لا يعلم أسرارها وما يظهر فيها من تجلّيات وإشراقات ، وما يتنزل فيها من بركات ورحمات ، وما يوجب فيها التعبّد لله والسجود له مخالفة لعبّاد الشمس والكواكب ، ولعبّاد الاحجار والنار [3] ، وقد خضعت الاجيال البشرية ، والعقول السليمة ، لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم وتحديداتهم ، وهم من بني جلدتهم ، وفي مستواهم البشري ، لتجارب محدودة ، أو تخمينات مظنونة وما ظنك بالرب الحكيم ؟ « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى [4] » « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير [5] » ؟

---

(١) سورة النساء - ١٠٣ . (٢) يقول الله تعالى في سورة الإسراء : « أقم الصلوة لدلوك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » استنبط بعض المفسرين من كلمة « الدلوك » ثلاثة أوقات هي « الظهر » و « الفجر » و « المغرب » ومن « غسق الليل » « العشاء » و « قرآن الفجر » « صلاة الصبح » انظر التفصيل في سيرة النبي « لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي » المجلد الخامس ، وراجع في « لسان العرب » كلمة « الدلوك »

ويقول الله تعالى: « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » سورة طه » وراجع في تفسيره الكتاب المذكور ،

(٣) انظر البحث النفيس في ذلك في كتاب « حجة الله البالغة » الجزء الأول لحكيم الاسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم « ولي الله الدهلوي » « م ١١٧٦ هـ » تحت عنوان « باب أسرار الأوقات ص ٧٧ - ٧٩ . (٤) سورة طه - ٥٠ .

(٥) سورة الملك - ١٤ .

الحكمة في تكرر الصلوات وتعاقبها :

وفي تكرر هذه الصلوات وتعاقبها في يوم وليلة حكمة بالغة، وتغذية صالحة كاملة للنفوس، ووقاية لها عن الغفلة عن الله، واستحواذ المادية على القلب والروح، يقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في حكمة تكرار الصلوات، وتعاقبها في كل يوم وليلة :

« وسياسة الأمة لا تتم إلا بأن يؤمر بتعهد النفس بعد برهة من الزمان، حتى يكون انتظاره للصلاة واستعداده لها من قبل أن يفعلها، وبقية لونها وصبابة نورها بعد أن يفعلها في حكم الصلاة، فيتحقق استيعاب أكثر الأوقات ان لم يكن استيعاب كلها، وقد جربنا أن النائم على عزيمة قيام الليل لا يتغلغل في النوم البهيمي، وان المتوزع خاطره على ارتفاق دنيوي، وعلى محافظة وقت صلاة أو ورد أن لا يفوته، لا يتجرد للبهيمية، وهذا سر قوله ﷺ من تعار[1] من الليل» (الحديث) وقوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله[2] » .

الصلاة، ومكانتها في الاسلام :

وكان لا بد من الخضوع لحكمة التشريع والإيمان بأن الصلاة فريضة الله على عباده، وأنها عماد الدين، والفارق بين الكفار والمسلمين[3] وشرط النجاة

(١) اشارة الى حديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم : ولفظ البخاري « من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير الحمد لله وسبحان الله والله اكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال اللهم أغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ قبلت صلاته » (كتاب التهجد) قال الحافظ ابن حجر قال في المحكم : « تعار الظليم معارة، صاح، والتعار ايضاً السهر والتمطي والتقلب على الفراش ليلا مع الكلام » . (وقال ابن التين : ظاهر الحديث أن معنى « تعار » استيقظ، وانما ذلك لمن تعود الذكر واستأنس به، حتى صار حديث نفسه من نومه ويقظته، فأكرم من اتصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته) .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ٧٨ « باب أسرار الأوقات » .

(٣) وقد ورد في القرآن « وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » (سورة الروم ٣١ . وجاء في سورة براءة : « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » (سورة التوبة ـ ٥) وجاء : « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » (سورة التوبة ـ ١١) وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » وفي رواية : « بين الرجل والشرك ترك الصلاة » وللترمذي : « بين الكفر والايمان ترك الصلاة » وعن بريدة رفعه : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها ←

وحارسة الإيمان ،وقد ذكرها الله تعالى من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى، فقال : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون [1] » وقال: « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى [2] » وقد استثنى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة ، وقال : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون [3] » وقال ، وهو يذكر المؤمنين المفلحين: «والذين هم على صلواتهم يحافظون [4] » وقال وهو يحكي أهل النار : «ما سلككم في سقر قالوا : لم نك من المصلين [5] » وقال عن المنافقين: « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً [6] »

وهي فريضة دائمة مطلقة على عبد وحر ، وغني وفقير ، وصحيح ومريض ، ومقيم ومسافر ، لاتسقط عمن بلغ الحلم في حال من الاحوال ، بخلاف الصيام ، والزكاة ، والحج ، الأركان الثلاثة التي وجبت بشروط وصفات ، وفي أوقات معينة محدودة ، حتى أمر بها في ساحة الحرب ، وميدان القتال ، وشرعت صلاة الخوف ، فقال تعالى : « وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً ، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن

= فقد كفر » وروى ابن ماجه عن أبي الدرداء ، قال: «أوصاني خليلي أن لاتشرك بالله شيئاً ، وان قطعت وحرقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً ، فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة ، ولا تشرب الخمر ، فانها مفتاح كل شر »

وروى مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كتب الى عماله : ان اهم اموركم عندي الصلاة ، من حفظها أو حافظ عليها ، حفظ دينه ، ومن ضيعها ، فهو لما سواها أضيع ،

(١) سورة البقرة – ١ – ٢ – ٣. (٢) سورة الأعلى ١٤ – ١٥. (٣) سورة المعارج ٢٢ – ٢٣.
(٤) سورة المؤمنون – ٩ . (٥) سورة المدثر ٤٢ – ٤٣ (٦) سورة النساء ١٤٢ .

أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطر ، أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ، إن الله أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً ، فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً [1] » وقال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين ، فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون [2] »

دوام التكليف بالصلاة ، والخطر في تركها :

ولا تسقط هذه الفريضة عن نبي مرسل ، فضلاً عن صالح أو عارف ، أو مجاهد ، وقد قال الله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين [3] » ومن رأى أنها تسقط عنه لفضل معرفته ووصوله الى درجة اليقين و [المشاهدة] أو لحسن بلائه في الإسلام ، أو لسوابقه ومآثره الكثيرة ، فقد أتلف نفسه وعرّضها للخطر الأكبر .

مثل تارك الصلاة لفضل يعتمد عليه :

وكان الذي يترك الصلاة « اعتماداً على شيء آخر » ، كمن عمد من ركاب سفينة الفضلاء الحكماء ، إلى لوحة في السفينة ، ورأى أنها من فضول الصناعة وعملية التكوين ، وأنه يُستغنى عنها فخرقها ، أو عمد إلى بعض المسامير الرئيسية ، فرأى فيها الإسراف والمبالغة ، وجرّه حبّ الفضول والدخول فيما

---

(١) سورة النساء - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ . (٢) سورة البقرة - ٢٣٨ - ٢٣٩ .
(٣) (سورة الحجر - ٩٩ .) أجمع العلماء المفسرون الذين يعتد بهم على تفسيره بالموت ، ومسألة عدم سقوط التكليف عن العاقل البالغ مسألة معروفة في علم العقائد والكلام .

لا يعني . » فقلعها ، فجرّ على السفينة وعلى نفسه الشقاء ، وكان سبباً للكارثة العظيمة [١] ،

سر المحافظة على الصلوات ، وعقوبة من أنكر ذلك أو ثار عليه :

وفي الصلاة سر لسلامة الإيمان ، وسلامة الدين ، والإتصال بالله تعالى [١] والبقاء في حظيرة الإسلام ، والإنخراط في سلك المؤمنين ، لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، وقد ضرب بعض العارفين لذلك مثلاً عظيماً ، فقال :

« كانت لأحد الأغنياء الحكماء حديقة غنّاء ، ولمّا حضرته الوفاة ، دعا ابنه وقال له : أوصيك بالمحافظة على هذه الحديقة ، وعلى ما فيها من أشجار وأزهار ، ونباتات وحشائش ، فلا تُقص منها شيئاً استغناءاً عنه أو زهداً فيه ، فإنها كلها تقوم على حِكَمٍ غامضة ، وفوائد مستورة ، ولمّا مات الرجل وآل الأمر إلى ولده ، رأى أن نباتاً قد ذوِيَ وأصبح حشيشاً لا رائحة ولا غناء فيه ، ورأى أنه يشغل مكاناً من غير جدوى ، ويسيء إلى الحديقة وجمالها ومنظرها ، فاقتلع الجرثومة ، فما لبث أن دخلتها حيّة سوداء ، فلسعت سيّدها فمات من ساعته ، وعلم الناس أن الجرثومة كانت وقاية عن الحيّات والأفاعي والحشرات السامّة ، فلا تدخل حديقة فيها هذه الجرثومة [٢] »

كذلك من ترك الصلاة ، واستغنى عنها ، اعتماداً على وصوله إلى الغايات ، والنتائج التي يعتقد أن الصلاة شرعت لها ، وكانت قنطرة إليها ، أو اعتماداً على مأثرة من مآثره في خدمة الإسلام والمسلمين ، وكثرة عبادته في الماضي ، أو طول جهاده

---

(١) المثل مأخوذ من بعض رسائل العلامة المحقق العارف بالله الشيخ شرف الدين يحيى المنيري الهندي . (م ٧٨٦ هـ)

(٢) المثل مأخوذ من بعض رسائل العلامة المحقق العارف بالله الشيخ شرف الدين يحيى المنيري .

وحسن بلائه ، أو شدة اشتغاله بعمل مثمر ، يعــود على الإسلام والمسلمين بالفائدة والخير الكثير [1] ، فقد عرَّض نفسه للهلاك ، وأعماله للحبط ، وإيمانه للضياع ، وكان كالشاة المفارقة للقطيع والراعي ، التي يختطفها الذئب ويفترسها.

الصلاة للمؤمن العارف ، كالمـــاء للسمك :

وكانت الصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية ، غريزة الإفتقار والضعف والطلب ، وغريزة الإلتجاء والإعتصــام ، والدعاء والمناجــاة ، والإطراح على عتبة القوي الغني ، الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الحــافظ المانــع ، المعطي البــاذل ، العليم الخبير ، السميع المجيب ، واستجابة لغريزة الشكر والوفــاء ، وغريزة الحب والحنان ، وغريزة الخضوع والتواضع ، والعبودية والتذلل ، فهو في ذلك كالسمك لايعيش إلا في الماء ، وإذا اخرج من المــاء لم يزل في حاجة إلى الماء ، وفي حنين وفي فرار والتجاء إليه ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « وجُعل قرة عيني في الصلاة [2] » وقوله لمؤذنه بلال: «يا بلال أقم الصلاة ، أرحنا بها [3] ».

معقل المسلم ومفزعه :

وكانت الصلاة أقرب إلى المؤمن وأكثر إيواءاً ، وأسرع نجدة وإسعافــاً ، وأسخى وأحنى وأعطف عليه من حجر الأم الرؤوم الحنون ، على الطفل الشريد ، اليتيم الضائع ، الضعيف العاجز ، كلـما عوكس أو هدِّد ، وكلما أصابه الروع

---

(١) شأن كثير من الزعماء السياسيين ، ورجال الحكم ، والعاملين في حقل الاجتماع والسياسة والتعليم والتربية في كثير من البلاد الاسلامية ، فانهم يستهينون بأمر الصلاة ، ويعتذرون بأنهم في شغل شاغل في خدمة الأمة أو الوطن ، وفي جهــاد متصل لا يترك لهم وقتاً لأداء الصلوات المكرورة ، المتكاثرة في اليوم والليلة .

(٢) رواه النسائي . (٣) رواه أبو داود عن رجل من خزاعة من أصحاب النــبي صلى الله عليه وسلم « كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة » .

أو الفزع ، أو مسه الجوع أو العطش ، أوى إلى أمه فرمى نفسه في أحضانها ، أو تشبث بأذيالها ، كذلك الصلاة معقل المسلم وملجؤه ، الذي يأوى إليه ، والعروة الوثقى التي يعتصم بها والحبل الممدود – بينه وبين ربّه – الذي يتعلق به ، وهو غذاء الروح وبلسم الجروح ودواء النفوس ، وإغاثة الملهوف ، وأمان الخائف ، وقوة الضعيف ، وسلاح الأعزل ، ولذلك يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين [1] » ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، فعن حذيفة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلىّ [2] ، وروى أبو الدرداء : كان النبي ﷺ إذا كان ليلة ريح شديدة ، كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، إذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي [3] ،

وكان هذا شأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فقد أخرج أبو داوود عن النضر قال : « كانت ظلمة على عهد أنس فأتيته ، فقلت يا أبا حمزة ، هل كان هذا يصيبكم على عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال معاذ الله ! إن كانت الريح لتشتدّ فنبادر إلى المسجد مخافة القيامة » ،

وكان حنينهم إلى الصلاة ، وإيثارهم لها على كلّ ما حُبّب إلى النفس البشرية ، ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم في سبيلها معروفة عند المشركين ، وقد روى مسلم عن جابر قال : غزونا مع رسول الله ﷺ قوماً من جهينة ، فقاتلوا قتالاً شديداً [إلى أن قال] وقالوا إنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد » .

كل من الجسم ، والعقل ، والقلب ممثل في الصلاة :

(١) سورة البقرة – ١٥٣ – (٢) رواه أبو داود (٣) رواه الطبراني في الكبير وفيه زياد بن صخر .

وذلك ، لأن الصلاة ليست حركات رياضية ، ونظاماً رتيباً خشبياً جامداً ، لا روح فيه ولا حياة ، ولا نظاماً عسكرياً ، لا إرادة فيه ولا خيار ، إنما هو عمل يشترك فيه الجسم ، والعقل والقلب ، ولكل منها نصيب غير منقوص ، وكل فيها ممثل تمثيلاً حكيماً عادلاً ، فللجسم قيام ، وركوع ، وسجود ، وانتصاب وانحناء ، وللسان تلاوة وتسبيح ، وللعقل تفكر وتدبر ، وتفهم وتفقه ، وللقلب خشوع ورقة والتذاذ ، وقد أعطى الله تعالى في كتابه المحكم كلاً نصيبه فقال : « وقوموا لله قانتين [١] » وقال : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون [٢] » وكل ذلك من أعمال الجسد وقال : « يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون [٣] » فنص على ان الصلاة لابد أن تكون عن تعقل وشعور ، وذلك من أعمال العقل ، وقال : « قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون [٤] » والخشوع من أعمال القلب ، وقال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون [٥] » والخوف والطمع من أعمال القلب.

الاقتصار على تمثيل واحد من الثلاثة جهل وضلال :

ذلك لأن الإنسان جسم وعقل وقلب ، فجاءت الصلاة المشروعة في الإسلام أكمل صلاة ، مثلت فيها الطبيعة البشرية بنواحيها الرئيسية وشعبها المميزة ، وقد ضل من المشرعين والمتعبدين من اقتصر على الحركات الرياضية ، كما كان عند اليهود في الدور الأخير ، وضل من اقتصر على التدبر والتفكر ، والمراقبة والتأمل ، كما فعل بعض الصوفية المنحرفين ، وكثير من الحكماء المتفلسفين ، وضل كذلك من اقتصر على الخشوع والرقة ، والبكاء والدعاء ، أو السكر بالمحبة والحنين ، كما فعل بعض المتألهين ، أو الرهبان المتعبدين ، من جهلة

---

(١) سورة البقرة – ٢٣٨ . (٢) سورة الحج – ٧٧ . (٣) سورة النساء – ٤٣ .
(٤) سورة المؤمنون – ١–٢ . (٥) سورة السجدة – ١٦ .

النصارى ، أو أدعياء المسلمين ،

وضع الصلاة الدقيق الحكيم ، ونظامها التربوي المعجز :

وقد هيأت الحكمة الإلهية ، والتشريع الرباني « الصلاة » تهيئة دقيقة عميقة ، هي من المعجزات التشريعية ، لتحقق غاية العبودية ، والإخلاص لله تعالى ، وغاية الخضوع والتذلل ، والإستغاثة والإبتهال ، وإحياء الصلة بالله تعالى ، وتجديدها ، والإنقطاع عما سوى الله ، وإعلان الثورة على كل من نازع الله في ألوهيته ، أو ربوبيته ، أو عظمته وكبريائه ، أو حكمه وطاعته المطلقة ، ومن دعا إلى نفسه – بلسان المقال أو بلسان الحال – بالإخبات والخضوع ، أو بالعبادة والخشوع ، ومن زعم – ولو بلسان الحال – أنه يأمر وينهى ، ويُرجى ويخشى ، ولتنشىء في النفس قوة روحية ، وإيماناً عميقاً جديداً ، ونوراً يفيض به القلب ، يستطيع أن يقاوم به أقوى الفتن والمغريات ، وأقسى الحوادث والكوارث ، ويتغلب به على شرور النفس ومكايدها ، ومواضع ضعفها وسقطتها .

استقبال القبلة في الصلاة ، حكمته وتأثيره :

أمر المصلي باستقبال الكعبة في الصلاة ، وهو البيت العتيق الذي بُني لله وحده ، واختص بالعبادة لله حين كانت البيوت ، والمعابد ، والهياكل على ظهر الأرض لغيره ، تعبد فيها الأصنام والحجارة ، والأجرام الفلكية ، والآلهة الخيالية [1] ، فكان هو البيت الأول الوحيد ، الذي انفرد بعبادة الله ، والدعوة إليه ، وكان رمزاً أبدياً ، وشعاراً عالمياً للتوحيد ، « إن أول بيت وُضع

---

(١) كإله « الحب » وإله « الجمال » وإله « الحرب » وغيرها من الآلهة والإلهات عند اليونان ، والهند ، والآشوريين ، وقدماء المصريين .

للنّاس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين [١]. بناه أبو الأنبياء ، وإمام التوحيد ، ومؤسّس هذه الملة الأولى ، ابراهيم الخليل ، وابنه الجليل اسماعيل ، « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربّنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم ، ربّنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم [٢] » وكان أساسه على نقيض ما كان عليه النّاس يومئذ من عبادة غير الله ، وإطاعة الطاغوت ، وإعلان الحرب على كل ذلك ، « وإذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ، ربّ إنّهنّ أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه منّي ومن عصاني فإنك غفور رحيم » [٣] ، فكان اختصاصه بالتوجه إليه ، واستقباله في اعظم العبادات وأعمّها ، إعلاءاً لشعار التوحيد ، وإعلاناً بموافقة ابراهيم في عقيدته ودعوته ، وشارته وقبلته ، والإنتماء إليه ، « ملة أبيكم ابراهيم ، هو سمّاكم المسلمين [٤] » . يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« لما كانت الكعبة من شعائر الله ، وجب تعظيمها ، وكان من أعظم التعظيم أن تستقبل في أحسن حالاتهم ، وكان الإستقبال إلى جهة خاصة هنالك بعض شعائر الله منبّهاً للمصلي على صفات الإخبات والخضوع ، مذكراً له هيأة قيام العبيد بين أيدي سادتهم ، جعل استقبال القبلة شرطاً في الصلاة [٥] » .

وقد انتج هذا التشريع الحكيم وحدة الإتجاه العالمية التي ليس لها نظير ، والتي لها الأثر الكبير العميق في وحدة الملة ، وفي وحدة القلوب ، وفي وحدة التفكير ، والأثر الكبير العميق في اجتماع الخواطر ، وتركّز الهمة ، وانصراف

---

(١) سورة آل عمران — ٩٦ .
(٢) سورة البقرة — ١٢٧ — ١٢٨ .
(٣) سورة ابراهيم — ٣٥ — ٣٦ .
(٤) سورة الحج — ٧٨ .
(٥) حجة الله البالغة ج١ — ص ٣٦ .

التوجه إلى جهة واحدة ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، « وكان التوجه في الصلاة إلى ما هو مختص بالله بطلب رضى الله بالتقرب منه ، أجمع للخاطر ، وأحث على صفة الخشوع ، وأقرب لحضور القلب ، لأنه يشبه مواجهة الملك في مناجاته [1] » ويقول : « إن توجيه القلب لما كان خفياً نصب توجيه الوجه إلى الكعبة التي هي من شعائر الله ، مقامه كالوضوء وستر العورة ؛ وهجر الرجز ، فإنه لما كان التعظيم أمراً خفياً ، نصبت الهيئات التي يؤاخذ الإنسان بها نفسه عند الملوك وأشباههم ، ويعدّونها تعظيما [2] » .

جلال كلمة التكبير ، ومعانيها وآفاقها :

وشرع افتتاح الصلاة بالتكبير ، وبالكلمة المأثورة المتواترة المشروعة ، لإفتتاحها ، وهي قول « الله أكبر » ، الكلمة البليغة الواضحة ، المفهومة في كل زمان ومكان ، ولكل مجتمع وبيئة وفرد ، القوية المدّوية المجلجلة ، التي يخشع أمامها الجبابرة ، ويهوي لها كل صنم ، ويضطرب بها كل طاغية وطاغوت ، — لو قالها المصلي بفهم ووعي ، وإيمان وعقيدة ، ولو فهمها الأدعياء والمتزّعمون ، والمتسلّطون على حقيقتها — ، إن القدر المُشترك بين الأصنام التي تُعبد ، والأشخاص التي تؤلـه ، والأشياء التي تقدّس ، والقوى التي يخضع لها ، والرؤساء والزعماء الذين يطاعون طاعة عمياء مطلقة ، هو العظمة والكبرياء ، والتفوّق والترفّع ، والإستعلاء والإستيلاء ، فجاءت هذه الكلمة الموجزة المعجزة التي أمر بها في قوله : « وربك فكبر [3] » ؛ تنفي هذه الدعاوى والدعوات ، والمزاعم والإعلانات ، والأوهام والخرافات ، والمظاهر والسخافات ، ويثور بها المصلي ثورة حاسمة عارمة ، شاملة كاملة ، فهو بذلك « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها [4] » . ولا وكراً من أوكار الفساد ،

(١) حجة الله البالغة - الجزء الثاني ص ٢ .
(٢) حجة الله البالغة - ج١ - ص ٧٣ .
(٣) سورة المدثر - ٣ .
(٤) سورة الكهف - ٤٩ .

ولا خلية من خلايا الطغيان ، إلا أتى عليها ، إنها أبلغ كلمة تفتتح بها صلاة المسلم الموحّد .

طبيعة هذه الشهادة والعقيدة ، وأمثلة رائعة لها من التاريخ:

وإذا آمن الإنسان بهذه الكلمة ، التي يفتتح بها صلاته ، فيعتقد ويشهد بعظمة الله وكبريائه ، ويقول بلسان صدق وجدّ : « الله أكبر » وهيمنت عليه هذه العقيدة والشهادة ، وتغلغلت في أحشائه ، تضاءلت أمامه كل عظمة وكبرياء ، يتظاهر بها الملوك والرؤساء ، أو العظماء الكبراء — كما يسمّيهم الناس — ، وزالت مهابتهم من القلب ، حتى تراءوا له حيوانات حقيرة ، أو صوراً ودمىً هزيلة ، واستخفّوا بمظاهر دولتهم وسطوتهم إستخفاف العمالِيق بسخافات الأقزام ، واستخفاف الشيوخ الكبار ، بهازل الأطفال الصغار .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم خير مثال لذلك ، وقد روى المؤرخون الشيء الكثير مما يدلّ على استخفافهم بمظاهر القوة والعظمة ، ومشاهد الزينة والزخرفة ، منها ما رواه المؤرخ ابن كثير عن ربعي بن عامر ، قال : « أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زيّنوا مجلسه بالنمارق المذهّبة ، والزرابي الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه ، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضة على رأسه ، فقالوا له: ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت ، فقال رستم : « إئذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها [1] » .

---

(١) البداية والنهاية ، ج٧ - ص٩ .

ولم تزل هذه العقيدة العميقة تصنع العجائب في جميع أدوار التاريخ الإسلامي ، وتنشىء في أصحابها القوة الخارقة للعادة ، فيواجهون الملوك والأمراء بما لا يواجه به كثير من الناس الفقراء والضعفاء ، وتتبختر أمامهم أبهة الملك وحشمة الملوك ، فكأنها لا شيء ، ومن روائع قصص هـذا الإيمان العميق ، والشجاعة الخلقية ، ما رواه الباجي أحد أصحاب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام [١] ، يقول : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان [٢] في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفّين بين يديه ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه يأيوب ! ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوّىء لك ملك مصر ، ثم تُبيح الخمور ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال ، نعم ! الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، يناديه كذلك بأعلى صوته ، والعساكر واقفون ، فقال ، يا سيدي ! هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي ، فقال ! أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة ! فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة ، وسألت الشيخ لما جاء من عند السلطان ، وقد شاع هذا الخبر ، : يا سيدي ! كيف الحال ؟ فقال ، يا بنيّ ، رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ، لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، فقلت ، يا سيدي ! أما خفته ؟ فقال ! والله يا بنيّ استحضرت هيبة الله ، فصار السلطان قدّامي كالقط [٣] .

ولم يزل تاريخ الدعوة والعزيمة ، وتاريخ الإيمان والعقيدة ، يعيد نفسه في كل عصر ومصر ، فقد روى المؤلف المنبهي « الشيخ محمد بن مبارك

(١) « توفي سنة ٦٦٠ هـ » .
(٢) هو الملك الصالح نجم الدين ايوب ، توفي ٦٤٧ هـ .
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ج٥ - ص ٨٢ .

الكرماني »[1] قصة مماثلة ، يقول :

« طلب السلطان محمد تغلق [2] الشيخ قطب الدين المنور [3] إلى دهلي ، يعاتبه أو يعاقبه ، على عدم حضوره لتحية الملك ، وقد مر بحواره ، فلما حضر « البلاط » ودخل الديوان ، ورأى الأمراء والوزراء والحكام ، ورجال البلاط واقفين سماطين ، متخشعين مسلحين ، في هيئة تنخلع منها القلوب ، وكان معه ولده نور الدين ، وكان حديث السن لم يزر « بلاط » الملك في حياته ، ففزع لهذا المنظر الغريب ، وامتلأ رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً : يا ولدي ، العظمة لله ! يقول نور الدين : « إن استشعرت في نفسي قوة غريبة بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي ودابت ، وبدا الجميع عندي ، كأنهم قطيع من ضأن أو معز [4] .

أذكار الافتتاح وأدعيته :

ثم تأمل في جميع الأذكار والأدعية ، التي كان رسول الله ﷺ يفتتح بها صلاته ، كلها إخلاص وتوحيد ، وتقديس وتمجيد ، أو إخبات وإنابة ، وتلهف واستغاثة ، وحسبك أن تنظر فيما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ :

« سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ولا إله غيرك »[5] أو قوله :

---

(١) (توفي سنة ٧٧٠ هـ) .

(٢) الملك الجبار الذي اشتهر في تاريخ الهند بسطوته ، وعسفه ، وسفك الدماء (توفي ٧٥٢ هـ) .

(٣) من شيوخ الهند الكبار (توفي ٧٥٧ هـ) .

(٤) سير الاولياء ، من ٣٥٣ الى ٣٥٥ .

(٥) رواه اهل السنن عن ابي سعيد الخدري ، وروي عن عائشة أم المؤمنين ، وصح عن عمر بن الخطاب انه كان يستفتح به في مقام النبي صلى الله عليه وسلم ويجهر به ويعلمه الناس ، قال العلامة ابن القيم : وغيره من الاستفتاحات عامتها انما هي في قيام الليل في النافلة ، وهذا كان عمر يفعله ويعلمه الناس في الفرض ، (زاد المعاد - ج١ ص ٥٣) .

« اللهم باعد بيني وبين خطاياي ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقّني من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرَد » أو قوله : « الله أكبر كبيراً ، الحمد لله كثيراً ، سبحان الله بكرة وأصيلا ، اللّهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همْزه ونفخه ونفثه [1] » .

ثم يتعوذ من الشيطان الرجيم ، ويبسمل إهتماماً بهذه الصلاة التي يدخل فيها، وحرصاً على أن لا يكون للشيطان نصيب فيها ، وإجلالاً وتعظيماً للقرآن الذي يقرأه ، وعملاً بقوله تعالى : « وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » .

سورة الفاتحة ، جمالها وجامعيتها ، وتأثيرها في الحيـــاة :

ثم تأمل في سورة الفاتحة ، التي هي الدرة الفريدة في المعجزات السماوية ، وقطعة رائعة من القطع القرآنية البيانية ، لو اجتمع أذكياء العالم وأدباء الأمم ، وعلماء النفس وقادة الإصلاح ، وزعماء الروحانية ، على أن يضعوا صيغة يتفق عليها أفراد البشر على اختلاف طبقاتهم ، وعلى تنوع حاجاتهم ، وعلى تشتت خواطرهم ، يتقدمون بها أمام ربهم ، ويتعبّدون بها في صلواتهم ، تعبّر عن ضمائرهم ومشاعرهم، وتفي بحاجاتهم وأغراضهم، ولما جاؤوا بأحسن منها أو مثلها « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً [2] » . وقد قال الله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من

(١) واقرأ الأذكار والصيغ الأخرى في كتاب (زاد المعاد للعلامة الحافظ ابن قيم الجوزية وغيره من كتب السنة) .

(٢) سورة بني اسرائيل – ٨٨ .

المثاني والقرآن العظيم »[1] .

وقد افتتحت بالحمد ، وهي الكلمة الجامعة بين الشكر والثناء ، ومن الكلمات البليغة المعجزة ، التي لا تمكن ترجمتها في لسان آخر ، والحمدُ خير ما يبتدأ به عبد عرف نعم الله التي لا تحصى ، وعرف قدره ، وهو خير ما يُفاتح به في هذا الموقف الشريف ، وفي هذا المقام المحمود .

ثم يقرِّر المصلي أن الربّ الذي يحمده ، ويقوم ليستعين به ويعبده ، هو ليس ربّ قبيلة أو شعب ، أو أسرة أو فصيلة ، أو بلد ووطن ، إنما هو رب العالمين ، العقيدة الغريبة الثائرة ، التي تثور على جميع التقسيمات المصطنعة المزوّرة ، التي جنت على الإنسانية أكبر جناية ، وهكذا يُعلن المسلم وحدتين ، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام ، وعليهما قام الإسلام ، في كل زمان ومكان ، وهما وحدة الربوبية ، والوحدة البشرية ووحدة نسل بني آدم من غير فرق بين بلد ووطن ، أولون ودم ، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين ، مرةً « وهي الأساس » ، لأن الرب واحد ، ومرة ثانية ، لأن الأب واحد ، « يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا »[2] ، « يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »[3] . وفي شرحه وتطبيقه ، يقول رسول الله ﷺ في حجة الوداع :

« إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى »[4] .

(١) سورة الحجر – ٨٧ .
(٢) سورة النساء – ١ .
(٣) سورة الحجرات – ١٣ .
(٤) رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم يذكر المصلي من صفات الرب الكريمة ، الكثيرة ، التي عرفها وآمن بها ، صفة الرحمة التي هي من أليق الصفات ، – وكلها لائقة كريمة – بهذا الموقف الذي يقفه المسلم عابداً خاشعاً ، داعياً مبتهلاً ، محتاجاً فقيراً ، تائباً آيباً ، والمقام مقام الرجاء لا اليأس ، ومقام التفاؤل لا التشاؤم ، ثم يذكر ويتذكر يوم الدين يوم الجزاء ، والعقاب ، الذي يتجلى فيه ملك الله وملكوته ، في أروع مظهر ، لا ينازعه فيه ملك زائف ، أو حكم عارض ، « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١) » . فيجدد في نفسه الإيمان بالآخرة ، وإستحضارها الذي هو مصدر الخوف والمراقبة ، ومصدر الرقابة على النفس والضمير ، وما أحوج المسلم ، وهو الذي يستقبل الحياة المليئة بالإغراءات ، ويخوض فيها إلى هذا الإستحضار !

ثم يُعلن في كل تأكيد عرفته لغة العرب التي نزل فيها القرآن ، واختيرت لتكون لغة الصلاة العالمية – الرسمية – وفي أبلغ أسلوب من الأساليب البيانية العربية ، أنه لا يعبد إلاّ الله ، ولا يستعين إلاّ به (٢) ، وما الحياة إلاّ عبادة واستعانة ، وبها يتصل الإنسان بالإنسان ، والضعيف بالقوي ، والفقير بالغني ، والمحكوم بالحاكم ، والعابد بالمعبود ، فإذا جرّدنا ، وأفردنا لله تعالى ، فُككت السلاسل والأغلال وحُطّمت الأوثان والأصنام ، وبطل الشرك وزالت الفتنة ، وكان الدين كله لله ، أعظم إعلان يعلنه مسلم ، وأكبر تعهد يتعهده ، فلينظر ما يقول ؟ وليكن على نفسه حسيباً رقيباً . فكل ما يواجهه في الحياة خارج الصلاة . إما يدعوه لخضوع واستكانة ، وإما يدعوه لسؤال واستعانة ، وقد كفر بهما جميعاً ، وثار على كل من ترعمها ، أو تظاهر بها .

ثم يدعوه للهداية للصراط المستقيم ، التي هي أعظم حاجاته ، وأعز مطالبه ، وهي التي بُعثت لها الأنبياء ، وأُنزلت لها الصحف ، وقامت عليها سوق الجنة ، هي التي لا قيمة لشيء إذا فُقدت ، ولا نقص في الحياة والسعادة

---

(١) سورة المؤمن – ١٦ .

(٢) انظر فائدة التقديم لضمير المنصوب المنفصل وما يفيده من الحصر والتأكيد ، وما فيه من النكات النحوية والبلاغية في كتب التفسير ، والنحو ، والبلاغة .

إذا وُجدت ، وهي التي فُطرت النفوس البشرية على حبها وطلبها ، والبحث عنها ، والجهاد في سبيلها ، ولكن الهداية لا تقوم في الخلاء ، ولا تفهم إلاّ بأهلها ، ولا تتمثل إلاّ في أصحابها ، وأولئك هم الذين أنعم الله عليهم – من النبيين ، والصدّيقين ، والشهداء ، والصالحين – . وقد حث القرآن – وجميع الصحف السابقة – على حبهم والإنتساب إليهم والإنضواء إلى رايتهم ، والإقتداء بهديهم ، « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده (١) » ويتبع ذلك التبرؤ من الذين جانبوا الهداية ، وكفروا بالنعمة ، واتّبعوا الهوى ، وسلكوا طريق الردى ، أولئك الذين أسرفوا في العناد ، وبالغوا في الإفراط ، فحلّ عليهم غضب الله ، أو بالغوا في التحريف ، وتورّطوا في التفريط ، فوقعوا في الضلال : « إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين (٢) » .

تلاوة ما تيسر من القرآن :

وشرعت تلاوة ما تيسّر من القرآن : « فاقرأوا ما تيسر من القرآن (٣) » لتؤكد هذه المعاني وتغرسها في النفس ، أو تشرحها ، وتسقيها ، وتُغذيها ، لأن الصلاة عبادة وتعليم .

الخضوع الطبيعي ، المتدرج :

ويتدرج المصلي في الخضوع والإنحناء ، فيفتتح الصلاة بالقيام ، فيثنّي

---

(١) سورة الانعام – ٩٠ .

(٢) لا يتذوق كلمة « المغضوب عليهم » ولا يؤمن بصحتها وانطباقها على اليهود إلا من درس تاريخهم وعرف سيرتهم ، والدور الهدام الذي لعبوه في تاريخ الانسانية والمدنية ، وما يحملونه من حقد دفين للاجيال البشرية عامة ، ومنْ حب الإستعلاء بالاستئثار .

(٣) وكذلك لا يفهم الإنسان سر اختصاص النصارى بالضلال ووصفهم « بالضالين » إلا إذا قرأ تاريخ المسيحية ، وما تعرضت له من المسخ والتحريف ، والغموض والالتباس ، منذ نشأتها وفي عهدها الباكر ، والدور الذي لعبه «بولس» في تطوير هذه الديانة وتلوينهـا بلون خاص ، والدور الذي لعبته الكنيسة في تكوين العقيدة النصرانية وتفسيرها ، وخضوع العالم المسيحي لجميع هذه العوامل والمؤثرات . راجع – على سبيل المثال – كتاب «إظهار الحق» للعلامة رحمة الله الكيرانوي الهندي(١٢٣٣–١٣٠٨ هـ) .

(٤) سورة الفاتحة ٥–٦–٧ . (٥) سورة المزمل ٢٠ .

بالركوع . ويثلّث بالسجود ، وهو شأن الخاضع الطبيعي ، ولا يَخِرُّ ساجداً من ركوع ، بل يقف وقفة قصيرة خفيفة ، ثم ينحني للسجود ، ليكون أبلغ في الخشوع وأوقع في النفس ، وأدلّ على الذلّ [١] . وكذلك يتدرّج في التعظيم والتمجيد . فيقول في ركوعه : « سبحان ربي العظيم » ، ويقول في سجوده : «سبحان ربي الأعلى» ، فإذا بلغ الغاية في الخضوع والتذلّل ، ونصب أشرف أعضائه على أذلّ شيء في الوجود ، الأرض التي هي موطىء الأقدام ، ومضرب المثل في الذّلة والهوان ، هتف بأعظم كلمة يُعلن بها عظمة الله وعلوّه ، فيقول « سبحان ربي الأعلى » وهنا تتفق روعة الهيئة والمكان ، مع روعة البيان والإعلان ، ويفصل بين السجدتين بجلسة خفيفة ، لتكون السجدة مستأنفة بجدّدة ، ولتنتبه النفس من غفوتها ، وتشعر بلذة جديدة .

السجدة الخاشعة الحنون ، التي يضطرب لها الكون :

وإذا سجد ، فك سلاسل التقليد ، السلاسل التي فرضها عليه المجتمع والأعراف ، والعادات والآداب ، فخرّ ساجداً لله تعالى يمرّغ وجهه ، ويعفّر جبينه ، وأعطى القلب زمامه ، وأرسل النفس على سجيّتها ، فلا حجر على الخشوع ، ولا ملامة على الدموع ، وقد غلى مرجل الصدر ، وفاضت كأس القلب ، ولذلك يقول الصحابة رضي الله تعالى عنهم : « ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء [٢] » . وحكى عمرو بن العاص صلاة رسول الله ﷺ في الكسوف فقال : « ثم نفخ في آخر سجوده ، فقال أف أف ، ثم قال ربّ ألم تعدني أن لا تعذّبهم وأنا فيهم ، ألم تعدني أن لا تعذّبهم وهم يستغفرون [٣] »

---

(١) يقول شيخ الاسلام ولي الله الدهلوي، وهو يذكر حكمة القومة بين الركوع والسجود، « بها يحصل الفرق بين الانحناء الذي هو مقدمة السجود ، وبين الركوع الذي هو تعظيم برأسه » (حجة الله البالغة ج١ ص ٧٦) .

(٢) رواه ابو داود والترمذي عن عبد الله بن الشخير .

(٣) رواه ابو داود والنسائي .

وفي رواية (حين ينفخ يبكي) .

والسجود أقرب هيئآت المصلي وأحبها إلى الله ، وقد ورد في الحديث الصحيح : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء [1] » فينتهز المصلي هذه الفرصة الثمينة ، وينثر كنانة القلب ، ويُفرغ جعبة الدعاء والعبودية ، فيقول بلسان المقال أو بلسان الحال : [2] « أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذلّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه [3] » .

وهذه هي السجدة التي ترتعش لها الجبال الراسيات ، وتهتز بها الأرض ، ويرتعد لها الجبابرة الطغاة ، ولها في تاريخ الأمة ومغامراتها ، ومحنها شؤون ، وأخبار غريبة .

الصلاة على النبي ، محلها في الصلاة ، وحكمتها :

وهكذا يستمر المصلي في صلاته ، يكرّر القيام والركوع ، والسجود ، وأجزاء الصلاة الأخرى ، حتى يقعد القعدة الأخيرة ، ويتشهّد ويسلّم على النبي ﷺ ، فيقول : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ، ثم يسأل الله أن يصلي ويبارك عليه وعلى آله ، كما صلّى وبارك على ابراهيم وآله، فيقول: « اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلّيت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد » .

لقد كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وسائط بين الحق والخلق في

---

(1) رواه مسلم .

(2) يرى الفقهاء الحنفية رحمهم الله أن الادعية المأثورة ، أو ما يريده المصلي من دعاء محله التطوع والنوافل ، بخلاف ما يراه السادة الشافعية ، والمحدثون الكرام .

(3) من الدعاء المأثور في عرفة في « كنز العمال » مروياً عن ابن عباس رضي الله عنه .

الهداية ، وبهم تتحقق معرفة الذات والصفات ، وبهم يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويُوفّقون الكلم الطيب والعمل الصالح ، لذلك لم يقف أهل الجنة عند قولهم : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله »[1] بل ضمّوا إليه قولهم : « لقد جاءت رسل ربنا بالحق »[2] ، فقد كانوا هم السبب الطبيعي في وصول الهداية إليهم ، والتوفيق لكل ما يخلّصهم من الجهل والضلال في الدنيا ، والشقاء والعذاب في الآخرة ، فاستحقّوا بذلك شكر الأمم التي جاهدوا في دعوتها وتعليمها الجهاد الأكبر ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الهداية والمعرفة ، والإنابة والعبادة ، وما كانت هذه الصلاة التي يقومون بها أمام ربهم ، إلاّ نتيجة الرسالة التي حملوها ، والجهاد الطويل الشاق الذي قاموا به ، فاقتضت طبيعة الشكر والإعتراف بالجميل ، أن لا ينصرفوا من صلاتهم حتى يستوفوا هذا الحق .

ثم كان لمحمد القدحُ المعلّى ، والمقام المحمود في الدعوة إلى الله ، وتبليغ رسالته ، والجهاد في سبيلها ، فقد بدأ دعوته وجهاده ، وليس على ظهر الأرض ، إلاّ أفراد قلائل مُشتّتون موزّعون ، يعبدون الله وحده ، وليس في جزيرة العرب ، التي بُعث فيها مؤمن بالله يعبد الله مخلصاً له الدين ، ويطأطىء له الرأس ، وينصب له الجبين ، وقد كان في جوف الكعبة ثلاث مائة وستون صنماً : « وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاءاً وتصدية »[3] ، فلم يفارق هذه الدنيا ، ولم يلق ربّه حتى قرّت عينه ، إذ رأى غرسه يُثمر ويؤتي أكله ، فانتشر الإسلام في الجزيرة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وبُنيت المساجد ، وارتفع صوت الأذان في كل مكان ، ورُئي المسلمين سراعاً إلى مسجده ، وقد منعه المرض الشديد عن الإمامة ، فما فتر ذلك نشاطهم ، ولا نقص من عددهم ،

(١) سورة الاعراف – ٤٣ .
(٢) سورة الاعراف – ٤٣ .
(٣) سورة الانفال – ٣٥ .

أفلم تكن هذه الصلاة التي وفّق لها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، إلا حسنة من حسناته ، وثمرة من ثمرات دعوته وجهاده ، أفلا يجدر بالمسلم إذا أدى حق الله في حمده ، والثناء عليه ، أن يختم ذلك بالدعاء للنبي ﷺ بالرحمة والبركة ؟! .

ثم إن في ذلك وقاية وحرزاً عن الشرك ، فمن سأل الله الصلاة والرحمة على النبي ﷺ ، ورأى أن ذلك يفيده ويسرّه ، كان في مأمن من أن يعتقد أن في العالم من يستغني عن رحمة الله ، ويستغني عن مثوبته وكرامته ، ويشارك الله في ذاته أو صفاته [1] ، فقد كان رسول الله ﷺ رحمة للعالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، وقد دعا الله للصلاة عليه ، فقال : « إن الله وملائكته يصلّون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً [2] » وحث النبي ﷺ بنفسه على الصلاة عليه ، وسأل أمته ذلك ، كما جاء في أحاديث صحيحة مستفيضة تكاد تبلغ حد التواتر [3] .

ثقة المسلم بنفسه وتحديد جماعته وحزبه :

وقد كان للمصلي الذي أدى حق الله في الحمد والثناء عليه ، وحق الرسول في الدعاء له والصلاة عليه ، حظّ من السلام الذي يحتاج إليه ويحرص عليه ، الذي كان شعاراً للإسلام ، وتحية للمسلمين ، فيقول المصلي : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وبذلك يتعين مكانه وحزبه ، فهو مع عباد الله الصالحين في كل مكان وزمان ، يشاركهم ويلتقي معهم على دين الله الإسلام ، وفي الإخاء والسلام ، وذلك ينشىء فيه الأمل والثقة ، ويحارب فيه اليأس ، وما يسمّيه علماء النفس اليوم « بمركّب النقص » إذ يقرن بينه وبين زملائه المصلّين ، وبين

---

(١) الفكرة مستفادة من كتاب (معارف الحديث) للشيخ محمد منظور النعماني (المجلد الثالث).

(٢) سورة الاحزاب – ٥٦ .

(٣) اقرأ الاحاديث الواردة في الصلاة والسلام ، ومعانيها وحكمها ، ولطائفها في كتاب « جلاء الافهام في الصلاة والسلام على خير الانام » ، للعلامة ابن قيم الجوزية .

فضلاء الأمة وعباد الله الصالحين ، « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون [1] »

ثم يدعو المصلي لنفسه ، ويتعوذ من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال [2] ، فكل ذلك جدير بأن يتعوذ منهم المسلم ويلتجيء إلى الله من شرّه وفتنته ، وقد جاء في الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : « إنه لم يكن نبيّ بعد نوح إلا قد أنذر الدجّال قومه ، وإنّي أنذركموه » [3] .

نهاية الصلاة ، وحسن خاتمتها :

وبعد ذلك كله ، وبعد ما بذل جهده في إحسان هذه الصلاة ، وأداء حقوقها ، يعترف بالتقصير ، كأنه يقول بلسان الحال ، « ما عبدناك حق عبادتك » ويقول في لفظ النبي ﷺ الذي أوصى به خليله أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان أفضل الأمة بعد نبيّها ، وكانت صلاته أكمل الصلوات بعد صلاة الرسول [صلى الله عليه وسلم] : « اللهمّ إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور

---

(١) سورة المجادلة – ٢٢ .

(٢) روى مسلم عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم هذا الدعاء ، كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : قولوا ، « اللهم اني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » وروي عن ابي هريرة «رض» عن النبي صلى الله عليه وسلم «قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا فرغ احدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من اربع ، من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر المسيح الدجال » .

(٣) رواه الترمذي وابو داود عن ابي عبيدة بن الجراح ، اقرأ في موضوع الدجال وفتنته ، تفسير سورة الكهف في كتابنا « تأملات في القرآن » .

الرحيم [1] » فيكون الإعتراف بالتقصير آخر الكلام ، ويكون الندم مسك الختام ، وهو أفضل ما تختم به صحيفة أعمال .

ولا ينصرف من الصلاة ولا يقوم منها مسرعاً ، كأنه أنشط من عقال ، أو خرج من سجن ، بل يختم ذلك بخاتمة جميلة كريمة ، مباركة طيبة ، فيلتفت عن يمينه وعن شماله ، ويسلّم على المصلين وجماعة المسلمين ، وعلى الملائكة الشاهدين ، فيقول : « السلام عليكم ورحمة الله [2] » كأنه كان قد انتقل إلى عالم آخر ، وانقطعت صلته عن كل ما يحيط به من موجود مشهود ، ثم عاد إلى مكانه الأول ، ومركزه في الحياة ، فأقبل على من حوله وسلّم عليهم ، شأن العائد من سفر ، أو الحاضر من غيبته [3] ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم [4] » .

تناقض الصلاة « الحقيقية » مع عبادة غير الله ، وعبودية الانسان ، والحياة الجاهلية :

ومثل هذه الصلاة الخاشعة المخلصة ، التي يحافظ عليها المسلم بروحها وحقيقتها ، وآدابها وأوقاتها ، لا تتفق ولا تنسجم مع عبادة غير الله ، — ومن مظاهرها ، الشرك ، والوثنية ، والخرافة ، — وعبودية غير الله ، — ومن

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن ابي بكر الصديق « رض » قال : قلت يا رسول الله ! علمني دعاءاً ادعو به في صلاتي ، قال ، قل : « اللهم اني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب الا انت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني انك انت الغفور الرحيم » .

(٢) يقول شيخ الاسلام ولي الله الدهلوي : « وجعل التشهد ركناً ، لأنه لولا هذه الامور لكان الفراغ من الصلاة مثل فراغ المعرض او النادم » (حجة الله البالغة ج٢ - ص٥) .

(٣) من كلام الامام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله (م ١٢٩٧ هـ) في رسالته البديعة (قبلة نما) يعني دليل القبلة .

(٤) رواه ابو داود والترمذي والدارمي وابن ماجه ، عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم . انظر الفصل الدقيق العميق في بيان المصالح المقتضية لتعيين الفرائض والآداب ، ونحو ذلك في الصلاة ، لحكيم الاسلام الشيخ احمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة ج١ ص٧٥ - ٧٦) .

مظاهرها رهبة الملوك والأمراء ، وأصحاب القوة والثروة ، والأمر والنهي — واعتقاد النفع والضرر فيهم ، والتزلف إليهم بكل وسيلة ، وتملقهم ، ومسايرتهم في جورهم وعدوانهم ، والمناداة على العقيدة والضمير [1] ، كما شاهدنا في عصر الملوكية الأول ، وكما نشاهد كل يوم في عصر الحرية ، « والديمقراطية » الحاضر.

فجميع أركان الصلاة ، وجميع ما يقوله المصلي فيها ، ويقطعه على نفسه ويعلنه ينافي ذلك أشد المنافاة ، ويعارضه أشد المعارضة ، وهو يعارض الكلمة التي يفتتح بها صلاته ، وهو قوله « الله أكبر » ويعارض قوله « الحمد لله رب العالمين » فلا رب غيره ولا حمد لغيره ، وهو يعارض قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » فلا عبادة لغيره ولا استعانة بغيره ، وهو ينافي الركوع والسجود ، « فلا ركوع جسدياً ومعنوياً » « ولا سجود ظاهراً وباطناً » إلا لله تعالى ، لذلك كان الذين تحققت فيهم هذه الصلاة ، من أشجع الناس أمام الملوك والأمراء ، وأجرئهم على الجهر بكلمة الحق ، وأزهدهم في حطام الدنيا ، وأبعدهم عن التعاون على الإثم والعدوان [2] .

---

(١) يعني بيعها بالمزاد العلني كما يقول المصريون .

(٢) ومن أمثلته الرائعة المستطرفة التي ليس عصرها بعيداً ، أن شيخاً ممن صحب السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) امام دعوة التوحيد والجهاد ، ومؤسس الحكومة الشرعية في القرن الماضي في الهند ، قصد مرة طبيباً مسلماً في بلده ، وكان الشيخ ، قد علت سنه وأنهكه المرض ، وكان المحل بعيداً ، فما وصل الى الطبيب الا وقد بلغ الجهد ، وأعياه المشي على الأقدام ، وبقي ينتظر خروج الطبيب برهة طويلة ، فلما خرج الطبيب بعد انتظار شاق ، أقبل على عبادة مبتدعة ، فيها تعظيم لغير الله ، فما كاد يقع نظر الشيخ عليه ، الا أمر تلميذه بالإنصراف ، وخرج من ساعته ، فلما كان في الطريق ، قال له ، ما رأيت كاليوم ! أجهدت نفسك في الوصول الى الطبيب ، وأطلت الانتظار ، فلما خرج ، بادرت الى الانصراف ولم تقض حاجتك منه ، فقال له ، ويحك ألم تره ، يعصي الله ويشرك به ؟ فقال ، ما لنا ولعمله، عليه ضلالته وسخافته ، ولنا صناعته وبراعته ، فقال ، عجباً لأمرك ! اذا سكت على ذلك ، وانتفعت به ، فكيف أقوم في الليلة أمام ربي ، وبأي لسان أقول في قنوت الوتر ، « ونخلع ونترك من يفجرك » .

تأثير الصلاة في الأخلاق والميول :

وللصلاة تأثير في صرف النفس عن الأخلاق الرذيلة ، والفحشاء والمنكر ، والتمتع بالمتعة الرخيصة ، ليس لشيء آخر بعد كلمة التوحيد ، ولذلك يقول الله تعالى : « أتل ما أوحي إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون [1] » وذلك لأنها تصرف صاحبها من جهة إلى جهة ، ومن ذوق إلى ذوق ، ومن طلب إلى طلب ، ومن تفكير إلى تفكير ، ومن سفساف الأمور إلى معاليها ، وتحبب إليه الإيمان ، وتزينه في قلبه ، وتكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، هذا ، إذا كانت الصلاة حقيقية تتدفق بالحياة ، وتفيض بالحرارة والقوة ، ولذلك لما فوجىء قوم شعيب بالدعوة إلى التوحيد ، والفضيلة والتقوى ، والإنكار على ما كانوا فيه من ظلم وبخس وتطفيف ، أقبلوا على حياة شعيب يلتمسون فيها مصدر هذا الإنقلاب وهذا الإختلاف ، فقد وُلد ونشأ فيهم كابن قبيلة وابن بلد ، والذي يردون إليه طبيعة هذا الخصام والنزاع ، فلم يجدوا في حياته شيئاً أوضح من الصلاة التي كانوا يشاهدونها ، ويتعجبون لحُسنها وطولها ، فقالوا : « ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد [2] »

التشريعات الحكيمة ، لتفخيم شأن الصلاة ، وخلق الجو المناسب لها :

وقد هيأ الله بتشريعه الحكيم لها جواً من الإجلال والتعظيم ، ومن الخشوع والرقة ، ومن الجد والرزانة ، ومن الوقار والسكينة ، ومن التعاون والإجتماع ، ما لا يوجد له نظير لعبادة أو نسك في دين آخر ، وفي ملة أخرى .

---

(١) سورة العنكبوت - ٤٥ .

(٢) سورة هود - ٨٧ .

الأذان نداء للصلاة ، ودعوة للاسلام :

فشرع للدعوة إلى الصلاة والجمع عليها نداءاً ، لم تتجل فيه مقاصد الصلاة ، ومعانيها فحسب ، بل تجلت فيها كذلك مقاصد الإسلام وشعار التوحيد ، وروح الدين ، بوضوح وبلاغة وإيجاز ، وجمال ونغمة ، أصبح بها هذا النداء الذي يرفع به المؤذن صوته من مكان عالٍ خمس مرات في كل يوم ، دعوة مركزة إلى الإسلام ، تعريفاً بمقاصده وتعليماته ، قد يؤثر في نفوس كثير من غير المسلمين ، فيشرح الله صدورهم للإسلام ، وليس لهذا النداء - الذي يجمع بين الجمال والبساطة - نظير في أساليب الدعوة والإعلام بالعبادات في الديانات الأخرى[1] إنه هو النداء الديني الوحيد الذي ابتعد عن كل مظهر خارجي ، وعن استعانة بالآلات والإغراءات وجاء فيه لباب الدين ، وخلاصته ،

إنه يضم الإعلان بعظمة الله و كبريائه ، وأنه أكبر من كل كبير ، ويضم الشهادتين ، شهادة « أن لا إله إلا الله » وشهادة « أن محمداً رسول الله » ثم الدعوة الى الصلاة وحضورها في جماعة في المسجد ، ثم الإخبار بأنها وسيلة

---

(١) وقد وردت أخبار وأحاديث صحيحة في بدء الأذان ، وكيف شرع ، وكيف عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أساليب الدعوة الأخرى ، التي استخدمها غير المسلمين ، وآثر هذه الطريقة التي كانت تلقيناً من الله ، وإلهاماً منه ، منها ما رواه أبو داود عن أبي عمير بن انس عن عمومة له من الأنصار ، قالوا : « اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة كيف يجمع الناس لها ، فقيل ، أنصب راية عند حضور الصلاة ، فإذا رأوها ، آذن بعضهم بعضاً ، فلم يعجبه ذلك ، فذكر له القنع ، وهو شبور اليهود ، فلم يعجبه ، فقال هذا من أمر اليهود ، فذكر له الناقوس ، فقال هو من أمر النصارى ، فانصرف عبدالله بن زيد الأنصاري ، وهو مهتم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأري الاذان في منامه ، فغدا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ، اني بين نائم ويقظان ، اذ اتاني آت ، فأراني الاذان ، وكان عمر قد رآه قبل ذلك ، فكتمه عشرين يوماً ، ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له ، ما منعك أن تخبرنا ؟ فقال سبقني عبد الله بن زيد ، فاستحييت ، فقال صلى الله عليه وسلم قم يا بلال ، فانظر ما يأمرك به عبدالله بن زيد ، فافعل ، فأذن بلال »

الفلاح في الدنيا والآخرة» وأن لا فلاح بدونها ، فأصبح بذلك كله كلمة جامعة، ودعوة كاملة ، ونداءاً بليغاً ، يخاطب القلب والعقل ، ويلفت المسلم وغير المسلم، وينشّط الكسلان ، وينبه الغافل ، يقول حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« واقتضت الحكمة الالهية أن لا يكون الأذان صرف إعلام وتنبيه ، بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رؤوس الخامل والنبيه ، تنويهاً بالدين ، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله ، فوجب أن يكون مركباً من ذكر الله ، ومن الشهادتين والدعوة إلى الصلاة ليكون مصرّحاً بما أريد به [1] »

التطهر وما يورثه من اهتمام :

وشرع للصلاة التطهر والوضوء : فقال . « يا ايها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ،وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنباً ، فاطّهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءاً فتيمّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهرّكم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون [2] »

وذلك لأن التطهرّ والوضوء ، وخصوصاً إذا كان بإيمان واحتساب [3] ،

(١) حجة الله البالغة ج١ – ص ١٥٢ .

(٢) سورة المائدة – ٦ .

(٣) معناه أن يكون مؤمناً بما وعد الله عليه ، وأخبر به رسوله من الاجر والثواب ، ويكون طامعاً في ذلك راغباً فيه ، مقدراً له كل التقدير ، وله تأثير كبير عميق في قبول الاعمال ووزنها عند الله ، وقد جاء في حديث ، رواه الترمذي عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر اليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، أو نحو هذا ، واذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب» ، وفي صحيح مسلم والموطأ زيادة : « فاذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء »

يورث الإهتمام ويوقظ النفس، ويهيّئها لإستقبال الصلاة وما فيها من نور و سكينة.

وقد سنّ رسول الله ﷺ كتكميل فوائد الوضوء والطهارة، والإستعداد للصلاة التي هي مناجاة مع الله، السواك، وحث عليه حثاً شديداً حتى قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة [1]»

المساجد: فضلها، ومركزها في حياة المسلمين:

ثم بُنيت لها المساجد التي لا يوجد لها نظير في معابد الأمم والملل، في السذاجة والبساطة [2]، والنظافة والسكينة، وفي الجوّ الخاشع الروحاني الذي يسودها، وفي شعائر التوحيد التي تتجلى فيها: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه، يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال. رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار [3]» «وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً» [4] «وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين [5]» «يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد [6]»

وكانت هذه المساجد – ويجب أن تظل هكذا – مركز حياة المسلمين

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(٢) الاصل في المساجد أن تكون بعيدة عن الزخرفة، والاسراف في الاموال، وتقليد الاعاجم، وأهل الملل الاخرى في معابدهم، وقد روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أمرت بتشييد المساجد، قال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى» (رواه أبو داود) «وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أراكم ستشرفون مساجدكم بعدي كما شرفت اليهود كنائسهم وكما شرفت النصارى بيعها» (رواه ابن ماجه) وأخرج رزين عن أبي سعيد، قال: «كان سقف المسجد من جريد النخل، فأمر عمر في خلافته ببناء المسجد، وقال أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس».

(٣) سورة النور – ٣٦ – ٣٧. (٤) سورة الجن – ١٨. (٥) سورة الاعراف – ٢٩.

(٦) سورة الأعراف – ٣١. اعتمدنا في الاستشهاد بهذه الآيات على تفسير كلمة «المساجد» و«المسجد» بمكان الصلاة والبيت الذي بني لها وهو التفسير المشهور (راجع تفسير ابن كثير) وقد فسرها بعض المفسرين من السلف والخلف بأعضاء السجود أو بالصلاة (راجع تفسير ابن كثير كذلك)

وتعلمهم ودراستهم ، ومصدر الإصلاح والتوجيه ، تعالج فيها قضايا المسلمين الإجتماعية والدينية ، ويتلقون فيها أحكاماً في حياتهم ومهماتهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذا حدث حدثٌ أو نزل بالمسلمين أمر ، وكانوا في حاجة إلى توجيه جديد ، أو تعلم مزيد ، أمر أن ينادى في الناس ، « الصلاة جامعة [1] » وظلت المساجد هكذا ، فكانت القطب الذي كانت تدور حوله رحى الحياة ، وتتفجر منها عيون العلم والهداية ، وينبثق منها نور الإصلاح والإرشاد ، وتنطلق منها موجة الكفاح والجهاد ، ولا تزال منها بقيّة يحسد عليها المسيحيون ، والوثنيون ، المسلمين في بلادهم ، وينظرون اليها تارة بعين التلهف والحسرة ، وطوراً بعين الإشفاق والوجل ، ولا بدّ لنشأة المسلمين الجديدة أن تعود هذه المساجد والجوامع إلى مركزها الأول ، في حياة المسلمين وقيادتهم .

الآداب المشروعة لتقوية الجو الايماني الروحاني :

وشرع من الآداب والتوجيهات النبوية الحكيمة ما كان كفيلاً بالخشوع والسكينة ، والإقبال على الله تعالى ، فقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا كان أحدكم في الصلاة ، فإنه يناجي ربّه ، فلا يبزقنّ بين يديه ولا عن يمينه ،ولكن عن شماله وتحت قدمه [2] »وأمر المصلي بطاعة الإمام وتقليده، واتّباعه ، وكان في ذلك تجريد عن الفوضى والإفتئات ، وعن اتباع الهوى ، والإنسياق مع الرّغبات ، فلا تقدّم عن الإمام ولا تخلّف عنه ، ولا يسمح له بالبقاء في هيأة واحدة ، مهما وجد فيها لذة ، ومهما حدّثته نفسه بالبقاء فيها ، والزيادةمنها، فروح الصلاة إنما هو طاعة الله وامتثال ما أمر به ومحاكاة الرسول وتقليده في عبادته : « صلّوا كما رأيتموني أصلّي [3] » ، واتباع الإمام في حركاته

---

(١) « أنظر باب العلامات بين يدي الساعة » و « أبواب صلاة الخسوف » في الصحاح .
(٢) رواه عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، « أخرجه البخاري ومسلم ».
(٣) رواه البخاري « في باب الاذان للمسافر اذا كانوا جماعة » .

بسكناته ، وفي انتقالاته وتقلباته : « إنما جعل الإمام ليؤتمّ به [1] » .

والمساجد تتجلى فيها عظمة الله ، فلا عظمة لمخلوق ، ولا إختصاص لعظيم أو كبير ، وهو مكان مُشاع يتساوى فيه الحرّ والعبد، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير فهو « كمنى مناخ من سبق [2] » والإسلام لايعرف تلك الإمتيازات التي لم تكن إلاّ من بِدَع الملوك والأمراء بعد عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ولا تقدّم ولا امتياز في المساجد إلاّ على أساس العلم ، والحفظ من القرآن والفقه والتقوى ، وقد قال رسول الله ﷺ : « ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم. ثلاثاً [3] »

الجماعة ، أهميتها وفضلها :

وشرعت الصلاة المفروضة بالجماعة ، وهي طبيعة الصلاة المشروعة في الإسلام ، ووضعها الصحيح ، « واركعوا مع الراكعين [4] » ولذلك داوم عليها الرسول ﷺ وأصحابه مداومة شديدة ، حتى كأنها جزء من الصلاة ، ولم يتركها حتى في مرضه الذي مات فيه ، وقد جاء في صحيح البخاري ، (عن عائشة رضي الله عنها) : « ثقل النبي ﷺ ، فقال ، أصلىَ الناس ؟ قلنا ، لا ، هم ينتظرونك ، يا رسول الله ، قال ، ضعوا لي ماءاً في المخضب ، ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال ، أصلّى الناس ؟ قلنا ، لا ، هم ينتظرونك قال : ضعوا لي ماءاً في المخضب ،ففعلنا ، فاغتسل ،ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه ،ثم أفاق ، فقال ، أصلىّ الناس ؟ قلنا ، لا ، هم ينتظرونك ، قال، ضعوا لي ماءاً في المخضب ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ،

(١) رواه مسلم عن أنس بن مالك ، (باب ائتام المأموم بالامام) .
(٢) اخرجه الترمذي عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها مرفوعاً .
(٣) رواه مسلم (في كتاب الصلاة ، « باب تسوية الصفوف » ورواه ابو دواد والنسائي) .
(٤) سورة البقرة - ٤٣ .

فقال ، أصلّى الناس ؟ قلنا ، لا ، هم ينتظرونك ، والنـّاس عكوف في المسجد ينتظرونه ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، قالت ، فأرسل ﷺ إلى أبي بكر ، أن يصليّ بالناس[1] [إلى آخره] .

وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أشد النـّاس إلتزاماً لهذه الجماعة ، يقول عبدالله بن مسعود : « ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف[2] وفي رواية عنه « رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق ، قد عُلم نفاقه ، أو مريض[3] » وقد كان رسول الله ﷺ شديد الإنكار على من كان يتغيّب عن الجماعة ، ولا يشهد الصلاة مع المسلمين ، وقد جاء في الصحاح ، عن ابي هريرة رضي الله عنه ، « ان رسول الله ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات ، فقال : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصليّ بالنـّاس ، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها ، فآمر بهم فيحرّقون عليهم بحزم الحطب بيوتهم[4] »

بعض حكم الجماعة ، ومصالحها وبعض آدابها :

وفي الجماعة حكم دقيقة ومصالح عظيمة للمسلمين ، منها : ما هي اجتماعية وخلقية كالوحدة والإجتماع ، والتعاون والتعارف ، وقد بحث عنها علماء الإسلام ، وحملة الأقلام ، وأفاضوا فيها ، ومنها : ما هي أدق ، ولم يفطن لها كثير من الباحثين ، والكتـّاب العصريين[5] ،

منها : أن لاجتماع المسلمين راغبين في الله ، راجين ، راهبين ، مسلمين وجوههم إليه ، خاصية عجيبة في نزول البركات ، وتدلّي الرحمة ، وهذا هو

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) رواه مسلم وابو داود والنسائي .

(٣) رواه مسلم في صحيحه .

(٤) رواه مسلم في «باب فضل الصلاة بجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها» والحديث في الصحاح .

(٥) اقرأ البحث الدقيق العميق في « اسرار الجماعة ومصالحها » وشرح ما ورد فيها من الاحاديث ، والاخبار في الجزء الثاني ، من كتاب (حجة الله البالغة) ص ١٩ - ٢١ (لحكيم الاسلام الشيخ احمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي) .

السرّ في دعاء الإستسقاء وجماعته ، وفي جمع الحج [١] ، ومنها ، « التشجيع على العبادة والمحافظة على الصلوات ، والتنافس في إحسانها ، وإتقانها ، والإكثار منها ، وإصلاح ما قد يطرأ عليها من فساد أو من خلل للإنفراد أو الجهل ، وتعلّم ما فات من أحكامها وآدابها ، وأذكارها وقراءتها ، والتأسي بالعلماء الفقهاء، والعباد المخلصين . ومنها: أن إخلاص بعض المخلصين ، وإخباته وخشوعه ، يؤثر في الجماعة كلها ، ويوقظ النفوس الخامدة ، ويحرّك الهمم الفاترة ، وقد يكون سبباً في قبول عبادة الجميع ، والغض عمّا فيها من ضعف أو خلل أو تقصير ، وذلك شيء لايخالف المعقول أو المنقول ، فأهل الإخلاص والخشوع ، قوم لايشقى بهم جليسهم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الإهتمام بتسوية الصفوف، شديد الإنكار على الإخلال بها ، والتفريط فيها ، إذ لا تتحقق فوائد الجماعة لا تكتمل إلا بالمحافظة عليها ، وقيام المسلمين فيها ، كالبنيان المرصوص ، ولأن الصلاة والجماعة تربية للحياة كلها ، فمن لم يحسن القيام بها لم يحسن شيئاً من عمل الدنيا والآخرة ، وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ ، قال : « سوّوا صفوفكم ، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة [٢] » وعن النعمان بن بشير ، قال : « كان رسول الله ﷺ ليسوّي صفوفنا حتى كأنما يسوّى بها القداح ، حتى رأى أنّا قد عقلنا عنه ، ثم خرج يوماً ، فقام ، حتى كاد أن يكبّر ، فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف ، فقال : [عباد الله لتسوّن صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم [٣]].

الجمعة ، مكانتها وخصائصها :

وشرعت صلاة يوم الجمعة ، واتخذت لها آداب ، وزيادات وتحريضات ،

---

(١) مقتبس من كتاب (حجة الله البالغة) بتعديل يسير .
(٢) رواه البخاري ومسلم . (٣) رواه مسلم.

وخصائص ، تزيد في جلالها وفخامة شأنها ، وتورث الإهتمام بها ، وتساعد على الإنتفاع بها ، في العبادة والتقرب إلى الله وجمع شمل المسلمين ، والتعاون على البر والتقوى ، وقد جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة [1] ، من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » [2] وقد ورد في الحديث : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه [3] » وجاء : « لينتهين اقوام عن ودعهم الجمعات ، او ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين [4] » وقال : « لقد هممت أن آمر رجلاً ليصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة ، بيوتهم [5] »

وشرع فيه الإغتسال واستعمال السواك والتطيب ، والنظافة الزائدة ، وشرعت الخطبة ، ولم تكن خطبة النبي ﷺ تقليدية ، لا حياة فيها ولا روح ، ولا رسالة فيها ولا توجيه ، بل كانت متصلة بالحياة وبالواقع كل الإتصال ، يقول جابر رضي الله تعالى عنه : « كان النبي ﷺ إذا خطب ، احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش ، يقول ، صبحكم ومساكم [6] » قال العلامة ابن القيم في زاد المعاد : « وكان يعلم اصحابه في خطبته ، قواعد الإسلام وشرائعه ، وكان يأمرهم وينهاهم في خطبته اذا عرض له أمر أو نهي [7] » ويقول منتقداً للخطباء المتأخرين : « ثم طال العهد ، وخفي نور النبوة ، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً ، تقام في غير مراعاة حقائقها ومقاصدها ، فاعطوها صورها ، وزينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي

---

(١) هو الاذان الذي يتقدم الخطبة، اذ كان هو الاذان الوحيد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة ابي بكر وعمر ، فلما كان عهد عثمان ، وكثر الناس وانتشروا ، زاد الاذان الاول ، وارتضاه الصحابة والمسلمون وجرى العمل به في الاعصار والامصار ، اقرأ تفسير الآية ، في كتب التفسير وراجع (زاد المعاد) .

(٢) سورة الجمعة ـ ٩ . (٣) لأصحاب السنن . (٤) رواه مسلم والنسائي .

(٥) رواه مسلم في صحيحه . (٦) رواه مسلم والنسائي. (٧) زاد المعاد ـ ج١ص١١٥ .

الاخلال بهـا وأخلّوا بالمقاصد ، التي لا ينبغي الاخلال بهـا ، فرصّعوا الخطب بالتسجيع والفقر ، وعلم البديع ، فنقص ، بل عدم حظ القلوب منها وفـات المقصود بها [1] »

ورغم ان خطبه كانت واقعية دافقة بالحياة والنور ، والتأثير ، لم تكن طويلة مملّة ، شأن خطباء الجوامع اليوم ، ومحاضراتهم الطويلة ، التي يتبارون فيهـا ، ويتناولون فيها المباحث المحلّية المؤقتة ، التي تقبل المناقشة والجدل الكبير ، وتثير إنكار كثير من المستمعين ، وامتعاضهم ، وتفقد الخطب والجوامـع ، قدسيّتها وجلالها ، ونزاهتها ، بل كانت كسائر كلامه قولاً فصلاً ، لا فضول فيه ولا تقصير ، يقول جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه : « كانت صلاة النبي ﷺ قصداً ، وخطبته قصداً ، يقرأ بآيات من القرآن ويذكّر الناس [2] » وفي رواية : « كان ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هنّ كلمات يسيرات [3] »

وأمر الناس بالإنصات إلى الخطبة لتحصل الفائدة المقصودة في جو هـادىء خـاشع ، تغشاه السكينة والوقـار ، ولأن الموقف موقفُ العبـادة ، لا موقف الخطابة فحسب ، فأمر بالإنصات إلى الخطيب ، وشدّد في ذلـك حتى نهى عن منع الجليس عن الكلام ، لأن الناس إذا تولّوا ذلك ، حدث تشويش وضوضاء ، فورد في حديث : « من قال يوم الجمعة لصاحبه : أنصت ، فقد لغا [4] »

وطبيعة الجمعة ، ومقتضى المصالح التي قُصدت ، أن تكون في مسجد واحد في المدينـة ، أو في أقل عدد ممكن من المساجـد [5] ، إذا اتسعت المدينـة وانتشرت أطرافها ، واستبحر عمرانها لدفع الحرج ، ليجتمع المسلمون في مكان

---

(١) زاد المعاد ـ ج١ ص ١١٥ .

(٢) رواه مسلم وأصحاب السنن . (٣) رواه مسلم وأصحاب السنن .

(٤) رواه أبو داود عن علي بن أبي طالب مرفوعاً .

(٥) قال العلامة بحر العلوم عبد العلي اللكهنوي في كتابه (رسائل الأركان) : « ولأجل أن الجمعة جامعة الجماعات ، قال الإمام أبو يوسف لا يجوز تعدد الجمع في مصر واحد ، وهو ←

مرة واحدة في كل أسبوع ، فيكون ذلك أدعى للإئتلاف والإتحاد وأبعد عن التحريف والفساد ، وقد تهاون المسلمون في ذلك تهاوناً عظيماً ، يكاد يفقد الجمعة جلالها وروعتها وتأثيرها وقوتها .

الجمعة ميزان الاسبوع :

والرجل المشغول المسؤول المرهق بتكاليف الحياة ، وحقوق الأسرة ، يحتاج إلى يوم تتحرك فيه همته ، ويتفرغ فيه باله للعبادة والقربات ، وإجلاء صدأ القلب وتصقيله ، فيسري نوره في سائر الأيام ، وتعيش في كنف هذا اليوم ، وفي ظله ، وكان ذلك يوم الجمعة في الأسبوع ، وليلة القدر في رمضان ، ورمضان في سائر الشهور [1] ، وقد أحسن العلامة ابن القيم في قوله ، وهو يشير إلى هذه النكتة :

« إنه [أي يوم الجمعة] اليوم الذي يستحب ان يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام مزية بأنواع العبادات واجبة ومستحبة ، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة ، ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة ، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة

ـ رواية عن الإمام أبي حنيفة ، وبه قال الشافعي ، فإنه لو جاز التعدد لما كان واحد منها جامعاً للجماعات ، قال الإمام محمد ، ورواه عن الإمام أبي حنيفة ، وهذه الرواية هي المختارة وعليه الفتوى ، أنه يجوز تعدد الجمعة مطلقاً اثنين أو أكثر » .

(1) وقد أصبحت الجمعة في بعض نواحي الهند ، وخصوصاً في القرى ، ولعلها كذلك في كل من بلاد الإسلام ، هي الرابطة الوحيدة بين الفلاحين وأهل المهن ، وبين الإسلام ، يتصلون فيه ، ويتهيأون للصلاة ويعرفون شعائر الإسلام وشرائعه ، ويتجدد فيهم الشعور بإسلامهم ، والإعتزاز به ، فيعتصمون به عن أن يكونوا فريسة الردة ، ودعوات الإنسلاخ عن الإسلام ، أو دعوات الجاهلية كالوثنية وغيرها ، فلولا الجمعة واجتماعاتها ومقدماتها ، لذاب عدد كبير من المسلمين ، في المجتمعات الجاهلية ، التي يعيشون فيها ، وافترستهم الدعوات التي تكتسح بيئتهم ، ونسوا انهم مسلمون ، لذلك توسع بعض علماء الحنفية المتأخرين في صلاة الجمعة في القرى في هذه البلاد ، ولا يضايقون فيها مضايقة فقهية شديدة نظراً إلى هذه المصالح .

القدر في رمضان ، ولهذا من صحّ له يوم جمعته وسَلِم ، سلمت له سائر جمعته ، ومن صح له رمضان وسلم ، سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت له ، صح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الاسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر ، وبالله التوفيق[1] »

صلاة العيدين ، وامتيازهما الإسلامي :

أعتبرت الأعياد في الشعوب والأمم ، وفي الملل والنحل ، أيام حرية وانطلاق ، ومواسم لذة ومتعة ،واتّسمت « من غير استثناء تقريباً » عند أهلها بخلع العذار وطرح الحشمة والوقار ، والإسراف في اللهو والتسلية ، حتى أصبحت مناقضة للعبادات ومفهومها ، بعيدة عن كل جِدٍ ورزانةٍ ، وخشوع وعبادة .

ولكن بالعكس من ذلك ، صُبغ العيدان« عيد الفطر وعيد الأضحى » اللذان شُرعا في الإسلام استجابة للغريزة الإنسانية ، وتسليماً للأمر الواقع[2] ، بالصبغة الدينية الروحية ،فشرعت صلاة العيد بتكبيرات زائدة وخطبة بعدها، وسُن الإكثار من التكبير قبل الصلاة وفي الطريق ، وصدقة الفطر قبل صلاة عيد الفطر ، والأضحية بعد صلاة عيد الأضحى .

وكان الأصل أن تقوم في مكان واحد في البرّية ليجتمع المسلمون مرتين في السنة ، شأنهم كل أسبوع في الجمعة ، ولكن تهاون المسلمون في ذلك ، وأصبحت صلاة العيد تقام في كل مسجد كبير وصغير ،وضُعف تأثير هذه الصلاة ، ومقاصدها ، كما ضُعف تأثير الجمعة ومقاصدها ، يقول العلامة ابن القيّم :

---

(١) زاد المعاد ج١ ص ١٠٦ .

(٢) عن أنس ابن مالك، قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة،ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا . كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما : يوم الأضحى ويوم الفطر » (رواه أبو داود).

« كان ﷺ يصلي العيدين في المصلى الذي على باب المدينة الشرقي ، وهو المصلى الذي يوضع فيه محمل الحاج ، ولم يصلّ العيد بمسجده إلا مرة واحدة ، أصابهم مطر ، فصلّى بهم العيد في المسجد – إن ثبت الحديث وهو في سنن أبي داود وابن ماجه – وهديه كان فعلها في المصلى دائماً [1] » .

ويقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي وهو يذكر حكمة تشريع العيدين ، وما شرع لهما من إهتمام :

« إن كل ملة لا بد لها من عرضة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم وتعلم كثرتهم ، ولذلك استحب خروج الجميع حتى الصبيان والنساء ، وذوات الخدور ، والحيض ، ويعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين ، ولذلك كان النبي ﷺ يخالف في الطريق ذهاباً ، وإياباً ، ليطلع أهل كلتا الطريقين على شوكة المسلمين [2] » .

فضل الجمعة والجماعة ، في عصمة الدين ، عن التحريف ، وحفظ المسلمين من البدع ، والفوضى في العبادة :

وقد كان للجمعة والجماعة ومحافظة المسلمين عليها في الأمصار والأقطار فضل كبير ، في سلامة هذا الدين ، وسلامة الشريعة الإسلامية ، والأوضاع الدينية ، وبقائها على ما تركها عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه ، وبُعدها عن تحريف المحرّفين وعبث العابثين ، فلو كان المسلمون – أعاذهم الله عن ذلك – تركوا الجمعة والجماعة ، وانفردوا بعباداتهم وصلواتهم في بيوتهم ، وقاموا بها منفردين منعزلين ، موزّعين مشتتين ، لحُرّفت هذه الصلوات ومُسخت مسخاً كبيراً ، وأفقدها أصالتها ووضعها الأول ، وتنوّع المسلمون فيها ، وصاروا فيها فرقاً وأقساماً ، كما كانوا في كثير من مظاهر حياتهم المدنية ،

---

(١) زاد المعاد ج١ – ص ١١٩ .
(٢) حجة الله البالغة ج٢ – ص ٢٣ .

وآدابهم الاجتماعية ، وكانت للصلاة أنماط ونماذج ، محلّية وفردية ، كما كانت لليهود والنصارى ، وكما هو معلوم وشائع في ديانات الهند وطوائفها الدينية ، فقد كانت هذه الجماعة عاملاً كبيراً من عوامل وحدة المسلمين في العبادات ، وإحكام الدين من التحريف [١] .

ولهذه الحِكم والمصالح ، ولما فيها من إهتمام وانتباه ، ولما لا يحيط به علمنا ، كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ أضعافاً مضاعفة ، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وسوقه خمسة وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلاّ الصلاة لم يخط خطوة إلاّ رفعت له بها درجة ، وحطّت عنه خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة [٢] » وروى ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ،قال : صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة [٣] »

« الصلاة » في الديانات الأخرى :

وقبل أن نتقدّم في الحديث عن أنواع « الصلاة الإسلامية » الأخرى ، وسماتها وملامحها ، وأثرها في النفس والحياة يحسن بنا أن نلقي نظرة فاحصة على « الصلاة » في الديانات التي سبقت الإسلام ، وظلّت تعاصره إلى يومنا هذا ، ونتعرّف بفكرتها ومفهومها ، وحقيقتها ، عند هذه الديانات وأصحابها ، ووضعها وهيئتها ، وأحكامها وآدابها بقدر الإمكان ، فقد يكون الوصول إلى حقيقتها ولبابها ، في زحمة من الأقوال والآراء ، والتفاسير ، وكثرة من القياس والتخمين ، وتقديم صورة كاملة ، واضحة القسمات والملامح لها — كما استطعنا أن

---

(١) الفكرة مقتبسة من كتاب حجة الله البالغة ، للإمام ولي الله الدهلوي .

(٢) الستة إلا النسائي واللفظ للبخاري .

(٣) رواه مالك ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي .

تفمل ذلك بسهولة في صفة الصلاة الإسلامية وتصويرها ،تصويراً صادقاً دقيقاً — أمراً عسيراً جداً ، أو ضرباً من المستحيل ، ولا بدّ من ذلك للدراسة المقارنة، ـكم العلمي الصحيح ، ولتقدير قيمة الإسلام ، وما جاء به من آداب ـحكام ، وكيف بقي هذا الدين بعيداً — على مرّ العصور والأحقاب ، وعلى ـوّع من الشعوب والامم التي دانت به — عن كل تحريف وتصرف ، محافظاً على وضعه النقيّ الأصيل .

الصلاة عند اليهود :

إن تاريخ تشريع الصلاة وأحكامها ، وهيئتها ووضعها ، يكتنفه الشيء الكثير من الغموض ، في تاريخ اليهود ودياناتهم ، يصعب معه عرض صورة واضحة واحدة للصلاة ، في جميع العصور والأجيال ، وقد تطوّرت فكرتها وتشريعها تطوّراً عظيماً ، على مرّ الأيام والأحداث — بخلاف الصلاة في الإسلام — وتناولها الإصلاح والتجديد ، وهي لا تزال خاضعة بطبيعة الحال ، لعوامل التجديد والتطوير ،فيصعب على الباحث ،أن يهتدي إلى وضعها الأصيل القديم الموحّد ، الذي كان عليه أنبياء اليهود وأحبارهم ، وفقهاؤهم ، في أقدم العهود ، وهنا نقدّم خلاصة بحث لعالم يهودي كبير ، هو استاذ لمادة الديانة اليهودية وشريعتها ، في كلية عبرية كبيرة ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، يقول الأستاذ Samuel S. Cohon [1] :

« رغم أنه لم يرد في التوراة أمر صريح بالصلاة ، لأن وضع العبادات التقليديّ في العهد القديم ، كان محصوراً في الذبائح والقرابين [2] ، مع ذلك قد

(1) Samuel S. Cohon, Professor of Jewish Theology At The Hebrew Union College, Cincinnati, Ohio.

(٢) ولكن القرآن الذي جاء مهيمناً على الكتب السابقة ، قد ذكر ما يدل على وجود « الصلاة » في بني اسرائيل ، ومحافظة الأنبياء والصالحين من الأمة عليها ، فقد جاء في سورة الأنبياء(٧٣)عن إبراهيم ،وإسحق ، ويعقوب : « وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل

اعتبروا الدعاء والصلاة وسيلة للتقرب إلى الله ، إن أنبياء اليهود أحياناً نعوا على نظام القرابين الطقسي ، وعاشوا حياة الإلتجاء والإنابة ، وإن النبي « إرميا » كان يلتجىء أحياناً إلى التوبة والإستغفار ، والتذلل لله ، فراراً من أشغال الحياة الشاقة ومتاعبها ، وقد أوصى اليهود المنفيين في « بابل » بأن يوطنوا نفوسهم على استحضار الله تعالى ، والقرب منه ، عن طريق الدعاء والعبادة ، وقد استمر على ذلك مؤلفو سفر المزامير ، وإن تدينهم وورعهم ، هو الذي كون الصلاة اليهودية الفردية والجماعية ، وصاغها صياغة خاصة » .

لقد استنبط أحبار اليهود الذين بحثوا عن أساس للصلاة في التوراة ،مفهوم الصلاة من آية وردت في سفر التثنية تقول :

« وتحبه وتعبد الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك » « ١٢-١٠» .

وتدل الكلمات العبرية التي وردت في معنى الدعاء والعبادة ، على ما كانت عليه الصلاة عند اليهود ، وماذا تعني ، وإن أشهر هذه المصطلحات (Tephillah) وقد ترجمها « جولد تسهر » بالإبتهال الى الله كحاكم ، والإستسلام له .

لقد أضبحت الصلاة ثلاث مرات (عند الفجر ، وفي الظهيرة ، وعند غروب الشمس) في اليوم ، والتي كانت من شعار المتدينين الأتقياء في عهد الهيكل ، نظاماً مشروعاً للصلاة الفردية والإجتماعية في عهد الأحبار ، قد اعتبرت أوقات هذه الصلوات الثلاث ، وأساليبها ، وأساليب يوم السبت ، وصلاة الهلال

الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » وجاء في سورة مريم: (٣١) قول عيسى عن نفسه : « وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً » وجاء في سورة آل عمران (٤٣) « يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » ويظهر أن اليهود قد أضاعوا الصلاة وتهاونوا فيها من العهد القديم المبكر ، فقد جاء في سورة مريم (٥٧ - ٥٨ - ٥٩) : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً » .

لجديد ، وصلاة الأيام المقدّسة المضافة ، وصلاة يوم الكفارة الخاصّة ، تبدل لذبائح والقرابين العمومية في عهد الهيكل .

إن نظام العبادة التقليديّ عنـد اليهود ، يأمر بفصل الإناث عن الذكور ، في الصلاة ، ويقوم على تغطية الرأس وإحنائه[1]وعلى القيام في صلوات خاصة ، ويتأخر المصلي ثلاث خطوات إلى الوراء ، عند تلاوة « عميداه » ، وفاتحة سفر الحذقيل .

أما في صـــلاة الصبح في أيام الأسبوع ، فينبغي للمصلّي أن يرتدي مُلاءة خاصة ، ويربط التعويذات « فلقطير » بالذراع الأيسر والرأس ، ولا بد من ذلك لكل من يتجاوز الثالثة عشرة من السنّ من الذكور ، أمـــا في يوم الكفارة ، فيستعملون الطيلسان الأبيض « الذي يستعملونه في الكفن بعـد الموت » ، ولا تفرق الشريعـــة اليهودية بين الأئمة وعامـّة المصلّين في الصلاة ، وتقول إنهم متساوون أمام الله .

إنّ الطبقة المتجدّدة في اليهود ، عُنيت بالموسيقى في العبادة عناية خاصة ، وقد اختارت لكل صلاة ألحاناً خاصة ، ونغمات مخصوصة ، حتى تكون هــذه العبادة أوقع في النفس ، وأعمق تأثيراً . إنّ اليهودية المجـــدّدة التي ألحّت على الذوق والجمال قد قلّلت قيمة حركات الجسم المنبعثـــة ، وألغت نظام صفوف الذكور والإناث ، المنفصل بعضها عن بعض ، وألغت تغطية الرؤوس ، واستعمال الأردية ، ولما كانت الجماعــة المتجدّدة ، اقتصرت على صلاة يوم السبت والأيام المقدّسة ، فأصبح تقليد ربط التعاويذ لا حاجـــة إليه ، وأصبح القيام والسكوت ، وإحنـــاء الرؤوس في بعض الأحيان محدوداً شاذاً في مناسبات خـاصة .

---

(١) يظهر أن الصلاة عند اليهود لم يكن فيها سجود ، وقد اكتفى القرآن في ذكر صلاتهم بالركوع فقط : فقال : « واركعي مع الراكعين » . سورة آل عمران (٤٣) .

إن ضم الغناء والموسيقى إلى الصلاة اليهودية ، قد جنى على أهمّ أجزاء الصلاة ومقاصدها جناية كبيرة ، وقد تجرّد اليهود المتجدّدون ، واليهود المحافظون بطريق سواء عن روح العبادة، وهو الخشوع، والإقبال إلى الله بالقلب والقالب في عباداتهم ، بسبب التلحينات التي وضعها البارعون في فنّ الموسيقى والغناء من غير اليهود ، والتي طغت على الهيا كل اليهودية ، ومناهج عباداتها بشكل فظيع[1] ».

ويزيد ما جاء في «دائرة المعارف اليهودية» في مقال : « الصلاة عند اليهود ، ما قدّمناه وضوحاً وتفصيلاً في بعض الجوانب ، نلتقط منه بعض التفاصيل :

« وبناءً على ما أمر اسرائيل بالإستعداد اللازم للقاء ربّه » كان اليهود يقومون باستعدادات خاصة قبل الصلاة ، فقيد كان الصالحون القدامى منهم يبذلون فيها ساعة كاملة ، وكما كان من اللازم ، أن يغسلوا الجسد قبل الصلاة بحيطة بالغة ، ويرتدوا ملابس ملائمة للصلاة إمتثالاً لأمر النبي عزرا .

«دعاء الصلاة » يُقرأ قائماً متوجهاً إلى الأرض المقدّسة ، ولذلك دُعي باسم «عميداه» .

ولا ينبغي للمصلّي أن يصعد على صفة ، بل يجب عليه أن يصلّي في مكان هابط ، ولتكن الاقدام متصلة بعضها ببعض ، ومستقيمة ، كما تفعل الملائكة ، ويلزم على المصلّي أن يمدّ يديه ، ويرفعهما إلى « الحاكم المقدّس» وأن يكون خافض الطرف ، متعلق القلب بالأعلى ، يركع خلال التحميد والتمجيد ، ويقوم باسم الله .

ويتأخّر المصلّي بعد «عميداه» ثلاث خطوات ، ثم يميل يميناً ويساراً ، ويشبه عمله هذا بعادة الإستئذان من الملوك في الزمن القديم .

---

(1) Judaism, A way of Life Pages: 298, 316-to -318- and-358- to - 360.

الصلاة بالجماعة ، إنما تؤدى مع عشرة أفراد بالغين على أقل تقدير ، وتأدية الصلاة في مكان عام، محمودة للغاية ، وهي واجبة على الرجال والنساء ، وممنوعة للبنات والفتيات .

إن تأليف أدعية الصلاة والتحميد والتمجيد يُنسب إلى ١٢٠ رجلاً صالحاً في عهد ثمانين نبياً ، ولا يُدرى أن أدعية الصلاة ابتدأت بتعلم الناس إياها شفوياً، أم سجلت في الكتب ، وقيدت بالكتابة ، ويبدو أن الناس كانوا يحفظونها إلى مدة طويلة ، ويرددونها شفوياً ، ولعل الامر ظل هكذا ، الى عهد Geonic .

تكفي صلاة واحدة في طول النهار، كما يقول الإمام المجتهد Johanpah ولكن أئمة اليهود الآخرين يسمحون بثلاث صلوات في طول النهار ، وأربع في أيام الصوم .

أما الإمام «صموئيل» فيقول : « إن صلوات النهار الثلاث تتصل بتغيرات النهار الثلاثة ، عند طلوع الشمس ، وفي الظهيرة ، و عند غروبها[1] »

الصلاة عند المسيحيين الكاثوليك الرومان :

قد كان أول تأليف للصلاة المسيحية في القرن الرابع ، في مجمع نيقا[2] ، ولا يزال المجلس الفاتيكاني يُحدث فيه تعديلات ، ويُصدرها إلى العالم المسيحي الكاثوليكي، و كذلك نظام الكنائس الرئيسي يستطيع أن يُحدث فيه تغييرات،

---

(1) Jewish Encyclopaedia

(٢) يرجع كاتب مقال « الصلاة عند المسيحيين» في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» أن السيد المسيح كان يشارك اليهود في صلواتهم ويحضر عبادة الهيكل ، وكذلك كان يفعل أئمة المسيحية القدامى، وكانت العبادة المسيحية، تقوم على تلك العبادة التي نشأ عليها الجيل المسيحي الأول ، وأن الكنيسة المسيحية لم تقطع صلتها باليهودية ، وإنما اليهودية ، هي التي فصلت الكنيسة المسيحية

وإلى القارىء نموذج الصلاة الطقسة التقليدية ، في الكنيسة الكاثوليكية [١]

يدخل القس (الإمام) في الكنيسة ، فيقوم له الحاضرون تعظيماً ، ويقول (ناوياً للصلاة) باسم الأب ، والإبن ، وروح القدس ، أصلّي إلى مذبح الكنيسة ، وهنا يدور الحوار بين الإمام والجماعة في تقديس الله والثناء عليه .

ثم يتقدم الإمام باعترافه بالذنوب والخطايا ، ويقول « إنني أشهد الله القدير ، وأشهد مريم المباركة العذراء ، دائماً ، والملك الكريم ميكائيل ، ويوحنا المعمّد ، ورسل الله المباركين بطرس ، وبولس ، وجميع القديسين ، وجميع الأولياء الصالحين ، وأشهدكم أيها الإخوان ! وأعترف بأنني اقترفت ذنوباً فكرية ، ولسانية ، وعملية ، لا تعدّ ولا تحصى ، أنا صاحبها ، وأنا المسئول عنها وحدي ، لذلك أسأل مريم العذراء المباركة ، وميكائيل المبارك ، الملك الكريم ، ويوحنا المعمّد المبارك ، ورسل الله المباركين بطرس وبولس ، وجميع القديسين ، والاولياء ، وأسألكم أيها الإخوان ! أن تدعوا الله مالك الملك لي » .

وتدعو الجماعة له ، ويقول الإمام « آمين » ثم تردّد الجماعة نفس عبارة الإعتراف ، وطلب الدعاء ، ويجيبها الإمام بالدعاء ، وتقول الجماعة « آمين » ثم يدور حوار بين الإمام والجماعة في الدعاء ، وطلب الرحمة ، والامن والمغفرة للجميع .

ثم يرتقي الإمام المذبح ، ويتلو دعاءً لاتينياً يسأل الله فيه ، أن يمحو الخطايا ويغفر الذنوب ، ويتوسّل بالسيّد المسيح والقديسين والاولياء الذين تضم الكنيسة آثارهم ، ثم يقول الإمام ، يا الله إرحمنا ، ويقول الإمام يا عيسى المسيح

---

(١) في ضوء آخر نشرة اصدرها المجلس الفاتيكاني عند كتابة هذه السطور ، عنوانها : (The Sacrifice of The Mass) سلسلة (St. Paul publications)

إرحمنا ، وتقول الجماعة « يا عيسى المسيح إرحمنا » يقـال ذلك مرّتين ، ويعود الإمام ، فيسأل الله الرحمة ، وتعود الجماعة ، فتسأل الله الرحمة .

أما الحمد والثناء (Gloria) الذي يُتـلى في الكنيسة في أوقات العبادة ، فيشتمل على كلمات الحمد والثناء ، وتتكرّر فيه كلمات الأب ، والإبن الوحيد ويتكرر فيه وصف المسيح بخروف الله ، وبأنه يمحو خطايا العباد ، وبأنه يجلس على اليمين من الله ويتكرّر فيه طلب الرحمة منه وأنه يملك كل شيء ويعلو على كل شيء .

وتتلى قطعة من الكتاب المقـدس ، يعيّنها القِسّ ، وتقوم الجماعة عنـد تلاوتها تعظيماً ، .

وتتميّز الصلاة الأسبوعيـة في يوم الأحد في الكنيسة الكاثوليكية بخطبـة يلقيها الإمام في موضوع يقتضيه الحـال ، وتدعو إليه الضرورة ، وتجديـد الإيمان ، وقد جاء في هذه الكلمة وصف المسيح ، بأنه ابن الله الوحيد ، وأنه مخلوق من الله ، وأنه سابق لجميع الأزمـان ، وأنه رب الأرباب ، ونور النور ، وبأنه إله الحق ، وبأنه يشارك الأب في وجوده ، والذي وُجدت به جميع الأشياء ، وبأنه نزل لنجاتنـا من السماء ، « وهنالك يخرّ الحاضرون على ركبهم ، ويجثون » والذي ظهر في الشكـل الإنساني بواسطـة روح القدس ومريم العذراء ، وتشتمل هذه الكلمة على صفات المسيح الالوهية ، وعلى عقيدة الصلب والفداء ، ووحدة الكنيسـة المقدسة العالميّة ، وأنهـا مركز الهداية ، والمعموديّة ، وحشر الاجساد ، والحياة بعد الممات .

ويعقب الصلاة العشـاء الربّاني ، والأصل فيه أن القاصدين إلى الكنيسـة في الزمن القديم ، كانوا يحملون معهم الرغيف ، والخمر ، «عصير العنب» ويقدمونها إلى المذبح ، فكان القِسّ يأخذ شيئاً من الخمر ، ويلطّخ بها الخبز ، وكانوا يعتقدون أن هذه الخمر والرغيف يتحولان دم المسيح ولحمه ، فالذي يتناولها ،

يُعتبر أنه يحمل لحم المسيح ودمه ، والعشاء الربّاني تذكار للعشاء الاخير الذي تناوله المسيح في حياته ،أما الآن فيقوم مقام الخمر والخبز نقود يقدّمها القاصدون للكنيسة إلى القِسّ ، أما القسوس ، وأئمة الصلاة في الكنائس ، فلا بدّ لهم من هذا العشاء التقليدي في شكله الظاهر ، ويوزّع الخبز على الحاضرين .

ويُختم ذلك كله بدعاءٍ وجيزٍ ، وهنالك تنتهي الصلاة ، وتنتشر الجماعة .

الصلاة عند البروتستانت :

تشارك الصلاة في الكنائس البروتستانية « بقسميها النظامي « Methodist » والإنجليكاني « Anglican » الصلاة الكاثوليكية في أجزاء الإعتراف والتوبة والإستغفار ، وتجديد الإيمان ، وتوثيق العقائد الأساسيّة ، والحمد والثناء ، والدعاء ، وتلاوة الإنجيل ، إلاّ أنّ أساليبها وصيَغها تابعة لمناهج كنائسها المقررة ، وتتميّز بأشياء .

إنها لا تستعمل اللغة اللاتينية مطلقاً ، وثانياً أنّها صاغت الأدعية كلّها في أناشيد وترنيمات تُغنّى بألحان مرسومة مقررة[1] ، وتتميّز بصمتٍ يسود عند ذكر الله ، وتمتاز كذلك بحذف عبارات صريحة سافرة ممعنة في تأليه المسيح ، وتسويته بالله تعالى ، والتأمّل والسكوت عند بعض الأدعية ، وهنا نموذج للدعاء الجماعي التقليدي :

« أيها الأب السماوي ، أنت خلقتنا بحبّك ، وأبقيتنا بحبّك ، وإنّ حبّك سيُكملنا ، إننا نعترف بكل عجز أنّنا لم نحبّك بكلّ قلوبنا ونفوسنا ،

---

(١) راجع على سبيل المثال : The Methodist Hymnal.
The Methodist Publishing House U.S.A.

أنت لم يحب بعضنا بعضاً ، كما أحبّنا عيسى المسيح ، إنّ أرواحنا لا تزال فيها حياة، ولكنّ أنانيّتنا وأثرتنا أبعدتنا عنك، إننا حرمنا نفوسنا روحك المقدّسة، وتغافلنا عن نصرتك وتأييدك ، اغفر لنا ما مضى لنا ، وأصلحنا فيما نحن فيه ، وأرشدنا بروحك فيما يستقبلنا ، حتّى تتجلّى عظمة خلقك في نفوسنا ، وفي نفوس الخلق بواسطة عيسى المسيح الذي هو مولانا وملكنا » .

أما الصلاة في الكنيسة الإنجليكانية ، فتتقدم العبادة أجراس تدقّ إيذاناً بالصلاة ، وتتلى قطعة من الإنجيل ، وكلمة الإيمان كنشيد يغنّى به .

وفي مناسبات خاصة يحتفل بتقليد العشاء الربّاني ، ويعتقد التابعون لهذه الكنيسة أنّهم بإحياء هذه الذكرى يزكّون نفوسهم ، ويقوّون أرواحهم[1].

« الصلاة » في الديانة الهندكية :

أما (الصلاة) – أو العبادة بتعبير أصحّ – في الديانة الهندكية ، فسمتها البارزة الإضطراب الهائل في أساليبها ومناهجها ، وتقاليدها ، وأحكامها ، باختلاف الأقاليم والولايات ، والأزمنة والعصور ، والمذاهب والطوائف ، فيجد الباحث في ذلك نفسه في غابة كثيفة تكثر فيها الوهاد والنجاد ، وتلك سمة العقائد والمبادىء والمناهج الدينية ، والتقاليد الشائعة في الهند، لذلك وجد كثير من المشرّعين وعلماء الدين صعوبة عظيمة في تعريف «الهندوكي» دينياً وتحديده المنطقي الضابط .

فالعبادة المفروضة في الديانة الهندكية مضطربة اضطراباً عظيماً ، شديدة المرونة والسعة، متشتتة الأساليب والمناهج ، غامضة الحدود والشروط ، مبهمة في الأوضاع والأشكال، تنقصها الوحدة الشكلية ، والجامعة الإعتقادية ، لذلك

---

(١) إقرأ التفصيل: The Book of Common Prayer, The Church of India pakiston, Burma and Ceylon, 1963,

قلّما يجد الباحث صورة واضحة كاملة لها في كتاب، أو بحث لكاتب هندوكي من أساطين الفلسفة، والشريعة، ولعلّ الصورة التي عرضها عالم هندوكي كبير، وآثرنا نقلها تمثل أكبر منطقة في الهند، وأعم أشكال العبادة، فيها.

يقول الأستاذ (T.M.P. Mahadevan) رئيس قسم الفلسفة في جامعة «مدراس» في كتابه «مجمل الديانة الهندوكية» (Outlines of Hinduism [١]) وهو يتحدث عن نظام العبادة الطقسي في الديانة الهندكية:

« إن تماثيل «وشنو» وتجسّداته، وأصنام «شيو» و«شكتي» هي الأصنام المتبرلة عند العامة، التي تُعبد في الهياكل والبيوت، ولكن تماثيل «كرشن» في الشمال وتماثيل (Kartikaya) في الجنوب، التي لا تُعدّ ولا تحصى، هي الأصنام الشعبية التي يؤثرها الدهماء من الهنادك، إن العامة من الهنادك يؤمّون هذه الهياكل على اختلاف طبقاتهم ونحلهم، ويشاهدون فيها الإله الواحد، ويعبدونه.

إن الهندوكي يتلقى إلهه في بيته كضيف كريم، ويؤم الهيكل، وهو يحمل معه الفواكه والأزهار، ليقدمها إلى «ملك الملوك» رمزاً لحبّه وإجلاله، ونظام العبادة هو في الحقيقة محاكاة للتقاليد التي يقوم بها إنسان لضيفه الكريم، أو ملكه العظيم، فيرحّب بإلهه، ويعيّن له مكاناً للجلوس، ويغسل قدميه، ويقدّم إليه الصندل، والرزّ، كرمز للولاء والتقدير، ويقلّد التمثال عقداً من خيوط، ويلطّخ جبينه بعجين الصندل، ويقدّم له الرياحين، ويبخّر العود، ويوقد له السُرُج، ويديرها حوله، ويضع أمامه الطعام، ثم يقدّم له التنبول [٢]،

(١) كتاب متوسط في ٢٩٩ صفحة، نشرته مؤسسة (The Tana, limited,Bombay, India) عام ١٩٥٦م، قدم له الأستاذ الكبير رادا كرشنن، رئيس الجمهورية الهندية الأسبق، وأثنى عليه.

(٢) ترافقها بعض المواد الحجرية التي تطيب الفم، وتقدم إلى الضيوف.

ويحرق الكافور ، ويقدّم إليه الذهب كهدية ، ويسمّى زهر الذهب ، وفي الأخير يودع الإله أو الآلهة .

يعامل الإله في الهياكل ، كما يعامل الملوك ، فيوقظونه بالموسيقى والأغاني ، وبعد الإغتسال التقليدي يكسى اللباس الملوكي ، ويحلّى بالحلى والرياحين ، وتدار حوله الأضواء المتفنّنة ، ويقدّم له الطعام في أوقات معيّنة ، ويجلس الملك المجلس الملكي كل يوم ، ويشرّف عباده بمشاهدته ، ويسمع شكاويهم ، ويشملهم بعطفه ، ونعمته ، ويخرج في جولة في موكب ملوكي ، في الأعياد والمواسم .

وتمثل هذه المسرحيّة الربّانية الغامضة في جميع الهياكل في الهند ، لإغراء اولئك الذين لا يتخلصون من سبل الحياة المملّة التي لا تؤدى، إلاّ إلى مناطق الظلام الحالك . (١)

وهنا وصف آخر ، وتصوير لعبادة الهندكية ، بقلم مؤلف أوربي ، يطابق الوصف الأول ، ويزيده وضوحاً وتفصيلاً ، يقول Louismenon في كتابه «Hinduism» :

« رغم أن العصور القديمة ، لم تكن تعرف عبادة التماثيل ، ولكن مع تقدّم صناعة نحت الأصنام والتماثيل ، انتشرت عادة عبادة التماثيل ، لقد أصبح مع الزمن نحت تمثال الإله أو الآلهة ، ونصبه في مقام مقدّس ، والنظر إليه ككائن حيّ ، وتدهينه بالزيوت تقاليد هامة .

إنّ مبدأ النشاط الديني الرئيسي هو العبادة ، وطريقته الشائعة في الأوساط الدينية أن «العابد» يرحّب بالإله كضيف كريم ، فيغسله ويكسوه اللباس ، ويزيّنه ويطيّبه ، ثم يقدّم له الطعام ، وينشر حوله الزهور والرياحين ، ويحمل

---

(1) Outlines of Hinduism, Page, 48—50

المصباح المشتعل أو الشمعة ، ويطوف حوله مغنيّاً مزمّراً ، وقد يخرج به في موكب فاخر يلفت الأنظار ، ويثير الإعجاب ، وهنا تلتقي الأساطير الدينيّة القديمة مع الأساطير الشعبية ، وهذه التقاليد تؤدى في شكل جماعي شعبي في المعابد ، لا يتخلّى فيه الفرد عن واجبه الشخصي .

إن بعض الناس ، ولعلّ الكثرة الكاثرة من العامّة ينظرون إلى التمثال كإله بنفسه ، وذلك ما يطلق عليه لفظ عبادة الأصنام ، وعند بعض الناس ، ليس التمثال إلاّ رمزاً لقيَم خاصة ، وليست عبادة الأصنام وتقديسها إلاّ « تجسيماً » لهذه القيم المعنوية .

إنّ العابد خصوصاً إذا كان متصلّباً في ديانته ، ليستمدّ استمداداً عظيماً قبل أن يشرع في العبادة ، فيغتسل ويتنظّف ، ويحدّد الغذاء «بصوم» ، أو كفّ عن تناول الطعام» ويحافظ على وضع خاص للجسم ، والأصابع ، ويحبس النفَس ويتمثّل تسلط الإله على نفسه ، وتملّكه لها ، ويردّد الكلمات المقدّسة «منتر» في هدوء وسكوت ، والكلمة المقدسة « منتر » قد لا تعدو كلمة واحدة ، وقد تتألف بمائة صوت أو أكثر ، فإذا طالت هذه الكلمات ، وردّدها القائل ، فلا أهمية إذاً للفظ والصوت ، فيصبحان شكلاً مجرداً ، ففي العبارات التقليدية قد تتجرّد الألفاظ والأصوات عن المعاني ، وقد تشتمل بعض الكلمات المردّدة « منتر » على اسم بسيط «لله مثلاً رام رام» فتساعد هذه العبادة على تركيز الفكر على نقطة واحدة ، ويعتقدون أن الفرد يجد فيها الأمان ، ويفي بنذوره ، ويكفّر بها عن سيئآته .

ومن أوضاع العبادة الشخصية الأخرى تلاوة الكتب المقدّسة ، وأكثر من ذلك المراقبة بطريقة خاصة ، وُصفت وشُرحت في يوكا « Yoga » ، ومن الممكن أن تورث المراقبة كيفية من الذهول ، والتجرّد من الأنانية ، وتتعانق بها الروح بالحقيقة اللانهائية ، التي لا فناء لها ، وذلك ما تعتبره جميع الديانات الهندية المقصد الحقيقي ، والغاية الرئيسية .

وإلى حدٍّ ما ليست العبادة المفروضة ، إلا مـــا يؤدّيها الفرد في منزله ، ويقوم بها ثلاث مرات في اليوم ، في الصباح ، وفي الغداة ، وفي المساء ، ويقدّم كثير من الناس نذوراً للآلهة ، والآباء ، والأسلاف»[1] .

ويلاحظ المتتبّع لمناهج العبادة وتقاليدها في أقاليم الهندوسيات المختلفة وحدتين تجمعان بين هذه المناهج قديماً وحديثاً ، وشرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً .

اولهما العناية الزائدة بالغناء والموسيقى ، فقلّما تتجرّد العبـــادة في المعابد والمنازل من التغنّي والطرف ، والتصفيق[2] وطريقــة خاصة ، وقد دخلت الأغاني والموسيقى في صلب الديانة البرهمية ، وأصبحت ركناً أساسياً من أركانها ، والتجأ اليها كثير من علمائهم ، وفلاسفتهم ، وكهنتهم ، لإثارة الرقة والعاطفة ، والشوق في قلوب العبّاد من الذكور والإناث ، واشتركت في ذلك جميع الديانات التي اعتمدت على التجارب الإنسانيــة ، وعبثت بها يد التحريف ، ودخل فيها الشرك ، وقد قال الله تعالى عن أهل الجاهلية العربية ، : « وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاءً وتصدية »[3] وإن كانت هذه الأغاني المطربة ، والمعازف الرّنانة ، والتصفيقات المثيرة ، أفادت من ناحية الرقّة والحنان ، كما يحكيه بعض الناس ، فقد أضرّت كثيراً من ناحية الخشوع ، والسكينة والهدوء ، الذي تتطلبه العبادة لله تعالى .

والوحدة الثانية التي تجمع بين هذه المناهج المختلفة في المكان والزمان ، هي :

---

(1) Louis Renon : Hinduism : Page : 14, 15, 16

(٢) وقد كان ذلك جزءاً لازماً ، وركناً في عبادة الزعيم «غاندي» التي كان يقوم بها كل يوم مساءً ، وكانت له طريقة خاصة ، يعلمها بعض خاصته للضيوف الجدد .

(٣) مكاءً أي صفيراً ، وتصدية ، اي تصفيقاً ، وروي انهم كانوا يطوفون عراة ، الرجال والنساء مشبكين بين اصابعهم ، يصفرون فيهـــا ويصفقون ، «مقتبس من روح المعاني للعلامة الآلوسي» وروي عن كبار الصحابة والتابعين نحو هذا «راجع تفسير ابن كثير الجزء الثاني، ص ٣٠٧»

التمسك بعبادة الأصنام ، وإلحاح الفلسفة الهندية ، ودياناتها المختلفة على قيمتها وفوائدها ، وآثارها في النفس ، ويعجب الباحث إذا رأى مثل مصلح الديانة البرهمية ، ومجددها العظيم شنكر أشاريا Sankar Acharya من رجال القرن السادس المسيحي ، وهو الذي نفى الديانة البوذية من الهند ، وأعاد الديانة البرهمية القديمة إلى مركزها واعتبارها ، يدافع عن عبادة الأصنام والتماثيل ، ويعتبرها مرحلة طبيعية لازمة في تقدم الفكر الديني ، يقول الأستاذ الهندوكي الكبير ، V.S. Ghate ، رئيس قسم الدراسات الهندوكية في جامعة بومباي ، في مقاله ، في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» :

« إن شنكر أشاريا لم يعارض فكرة عبادة الأصنام ، ولم يهاجمها ، إنه يعتبر التمثال رمزاً ومظهراً ، وإنه ذم النظام الطقسي «Ritualism» وفلسفة العمل وجزاءه ، ولكنه دافع عن الآلهة المقبولة عند العامة ، إنه يقول :

- «إن الوثنية حاجة من حاجاتنا الفطرية في مرحلة خاصة من مراحل التطور ، حين تنال الروح الدينية نضجها واكتمالها ، وتبلغ سن الرشد يستغني الإنسان عن «الوثنية» فيجب هنالك رفض العلامات والرموز[1] .

وقد حمت هذه الوثنية - مهما نظر إليها الفلاسفة وعلماء الديانات الوثنية ، كرمز ومرحلة عابرة - على عقيدة التوحيد ، والإبتهال إلى الله ، والإخبات له ، وأصبح عباد الأصنام مقتصرين على عبادة هذه الأصنام عاضين عليها بالنواجذ يعيشون عليها ويموتون ، لا يعرفون غيرها ، ولا يلتجئون إليه في حاجاتهم وكربهم ، والذي يعبر هذه المرحلة وينتهي إلى الحقيقة النهائية ، والغاية في هذه العبادات ، كما تخيل هؤلاء الفلاسفة ، ويخلص لله تعالى العبادة والدعاء ،

---

(1) « Encyclopaedia of Religion and Ethics » 4th Edition 1958-Vol XI, Article - Sankaracharya»

أعزّ من الكبريت الأحمر ، والعنقاء المُغرِب في هذه الأمم والبلاد ، قد لا يتجاوز عددهم رؤوس الأنامل في أمة كبيرة ، تملأ البلاد ، لذلك كان ما حكاه الله تعالى عن ابراهيم من قول وشكوى ، حقاً ومنطبقاً كل الإنطباق على عبّاد الأوثان والأصنام والآفاق ، « ربّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس » إن هذه الأوثان لم تُضلّ في الحقيقة ، ولم تكن لها دعوة دينية ، ولكنها استحوذت على عقول عبّادها ، وسيطرت عليها ، وألهتهم عن عبادة الواحد القهّار ، فتشاغلوا بها عنه ، وحُرموا سعادة عبادة الله ولذتها ، فكان ذلك هو الضلال المبين .

السنن الرواتب ، وصلاة الوتر :

ونعود إلى الصلاة في الإسلام فنقول قد سنّ رسول الله ﷺ ركعات معدودة يصلي بعضها قبل بعض المكتوبات ، وبعضها بعد بعض المكتوبات ، ويواظب عليها في الحضر ، وكانت كخنادق تُحفر لحراسة حصن ، أو كسُور يقام حول مدينة ، فلا يمسها سوء ولا يصل إليها عدوّ حتى يعبر هذه الخنادق ، أو يقتحم هذا السور ، فمن حافظ عليها ، كان أجدر بأن يحافظ على الصلوات المكتوبة ، وكان أحرص عليها ، وألزم لها ، ثم إنها تُكمل ما وقع في الصلوات المفروضة من نقص ، وتجبر ما طرأ عليها من كسر[1].

وقد جاء في الحديث ، عن ابن عمر قال : « صلّيت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب في بيته ، وركعتين بعد العشاء في بيته ، قال ، وحدثتني حفصة ، أن رسول الله ﷺ كان يصلي

---

(١) روى الترمذي والنسائي عن ابي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن اول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت ، فقد افلح وأنجح ، وإن فسدت ، فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب تعالى انظروا ، هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل به ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر اعماله على ذلك .

ركعتين خفيفتين حين يطلع الفجر[١] وفي رواية ، « من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة ، بُني له بيت في الجنة ، أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر[٢] وعن عائشة رضي الله عنها رفعته : « من ثابر على اثنتي عشرة ركعة من السنة ، بنى الله له بيتاً في الجنة ، أربع ركعات قبل الظهر وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الفجر[٣] .

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان يصلي في بيتي قبل الظهر أربعاً ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيصلي ركعتين ، وكان يصلي بالناس المغرب ، ثم يدخل ، فيصلي ركعتين ، ثم يصلي بالناس العشاء ، ويدخل بيتي ، فيصلي ركعتين ، .... وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين[٤] .

وكان يُوتر بعد صلاة العشاء ، أو بعد قيام الليل ، ولا يتركه في سفر ولا حضر ، وقد صحّ عنه أنه قال : « الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا ، الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا ، الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا[٥] » وفي رواية عنه أنه قال : « إن الله أمدّكم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم ، الوتر ، جعله الله فيما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر[٦] .

وأهم هذه السنن الراتبة ، هي ركعتان بعد طلوع الفجر ، قالت عائشة رضي الله عنها : « لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل ، أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر[٧] »

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال النبي ﷺ :

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه الترمذي عن ام حبيبة . (٣) للترمذي والنسائي.
(٤) لمسلم وابي داود (باختصار) . (٥) رواه ابو دواد عن بريدة رضي الله عنه .
(٦) رواه الترمذي وابو داود عن خارجة بن حذافة رضي الله عنه .(٧) للستة إلا مالكاً.

« لا تدعوهما ولو طردتكم الخيل »[1] .

تنوع الصلوات ، وتنوع اغراض المسلم منها :

وليست الصلاة مقصورةً على فريضةٍ تؤدّى في وقتها ، ويتخلّى بها المسلم عمّا أوجبه الله عليه من فرض ، فذلك فرض لا يقبل الله عنه صرفاً ولا عدلاً ، ولكنها جُنّة المسلم وسلاحه ، والمفتاح الدائم الذي يفتح به كل قفل ، ويكشف به كل ما غمّ عليه ، وأهمّه ، أو شغل خاطره ، ففي الخوف صلاة ، وللإستسقاء صلاة ، وللكسوف صلاة ، وللإستخارة صلاة ، وللحاجة صلاة ، وللتأهب للموت والشهادة صلاة [2] .

سيرة السلف في هذه الصلاة ، ونظرتهم اليها :

وعلى المسلم أن يألف هذه الصلاة ، ويرى فيها الأنيس المؤنس ، والمغيث المنجد ، ويتعوّد كلما التوى عليه شيء أو أعياه أمر ، أو كَرَبَه همّ أن يبادر

(١) قال العلامة ابن القيم (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم) في السفر يواظب على سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن ، ولم ينقل عنه في السفر انه (صلى الله عليه وسلم) صلى سنة راتبة غيرهما» (زاد المعاد ج ١ ص ٨١)وقال في موضع آخر: « كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسافرون فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها، وروي هذا عن عمر وعلي وابن مسعود وجابر وانس وابن عباس وابي ذر، واما ابن عمر فكان لا يتطوع قبل الفريضة ولا بعدها إلا من جوف الليل مع الوتر ، وهذا هو الظاهر من هدي النبي صلى الله عليه وسلم، انه كان لا يصلي قبل الفريضة المقصورة ولا بعدها شيئاً ، ولم يكن يمنع من التطوع قبلها ولا بعدها، فهو كالتطوع المطلق ، لا انه سنة راتبة بالصلاة كسنة صلاة الاقامة ، (زاد المعاد ج١ص١٢٩)

(٢) روى البخاري في صحيحه « في باب كرامة الأولياء وفضلهم» عن ابي هريرة رضي الله عنه : أن خبيباً لما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب، دعوني اصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين ، فقال ، والله ، لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت،وكان خبيب هو الذي سن هذه السنة .

إلى باب الكريم فيطرقه ، ويلجّ به حتى يؤذن بالفتح ، وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، والتابعون لهم بإحسان في كل جيل ، قد تعوّدوا ذلك ، وكان شأنهم مع الصلاة شأن الجندي مع سيفه ، وشأن الغني مع ثروته ، وشأن الطفل الصغير مع بكائه وصراخه ، واستعطافه للأم الحنون ، بل كانوا أكثر إدلالاً وثقة بصلاتهم ، وأقوى اعتماداً عليها من كل ذلك ، وأصبح ذلك طبيعة لهم لا تفارقهم ، فإذا أفزعوا أو أثيروا ، وإذا دهمهم عدوٌ ، أو تأخر عليهم فتح ، أو التبس عليهم أمر ، إلتجأوا إلى الصلاة وفزعوا إليها .

وقد كان على هذه السيرة أئمة الإسلام ، وأعلام هذه الأمة ، وقادة المسلمين في كل عصر ، وقد حكي عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنه إذا أشكلت عليه آية ، أو التوى عليه علم ، عمد إلى بعض المساجد المهجورة ، فقام يصلّي ، فيعفّر وجهه بالتراب ويطيل السجود ، ويقول : « يا معلّم إبراهيم علّمني ، وكان شديد الإبتهال ، عظيم التذلّل لله تعالى ، يفتخر بأنه سائل مستجد ، عريق في « الشحاذة » ورثها أباً عن جدٍ ، قد سُمع ينشد في بعض مناجاته ودعواته :

أنا المكدّي وابن المكدّي وهكذا كان أبي وجدّي[1]

قيام الليل ، فضله وتأثيره ، وشأن السلف فيه ، وحاجة العالمين والدعاة اليه :

وأقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن « بطارية » القلب ، قيام الليل الذي أكثر القرآن من الحثّ عليه ، والترغيب فيه ، ومدح أصحابه حتى كأنه مُلحق بالفرائض ، وتابع لها ، ولذلك سُمّي نافلة ، وكان رسول الله ﷺ لا

---

(١) مدارج السالكين – ج ١ – ص ٢٩٦ ، طبعة (المنار) .

بتركه في حضر وسفر [1] ، ويذهب كثير من علمـــاء الإسلام ، أنه كان فرضاً عليه [2] ، وقد قال الله تعالى : « يا أيهـا المزمّل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا ، إنّ ناشئة الليل هي أشدُّ وطـأً وأقوم قيلا ، إنّ لك في النهار سبحاً طويلا ، فاذكر اسم ربك وتبتّل اليه تبتيـلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا [3] » وقال : « ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً [4] » ، ولذلك كان رسول الله ﷺ شديد المحافظة عليه ، عظيم الحرص والرغبة فيه ، وكان يقوم حتى تتورّم رجلاه ، يقول المغيرة بن شعبة : قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له ، قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ، قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً [5] » وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : « قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة » .

ويعرف المتتبع لأخبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، والذي يطالع دواوين الحديث ، وكتب السيرة والتاريخ ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشراً فيهم ، حتى أصبح شعاراً لهم ، وقد وُصفوا أمام «هرقل» وقادته بأنهم « بالليل رهبان وبالنهار فرسان» ويصفهم سيد التابعين ، ومن أعرف الناس بالصحابة ، الإمام الحسن البصري ، فيقول :

« إن المؤمنين لمـّا جاءتهم هذه الدعوة من الله صدّقوا بها وأفضى يقينها إلى

---

(١) قال العلامة ابن القيم : « ولم يكن صلى الله عليه وسلم يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً ، وكان إذا غلبه نوم أو وجع ، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة - (زاد المعاد - ج ١ ص ٨٤) .

(٢) قال العلامة بحر العلوم : « اختلفوا ، ا كانت صلاة التهجد فرضاً عليه أم تطوعاً ، ذهب إلى الأول جمع ، ومنهم اصحاب الأصول من مذهبنا ، وقال القسطلاني : إليه ذهب اكثر الاصحاب يعني الشافعية ، وذهب جمع إلى الثاني» رسائل الأركان ، ص ١٣٤ طبع لكهنؤ .

(٣) سورة المزمل - ١ - ٩ .   (٤) سورة بني اسرائيل - ٧٩ .

(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

قلوبهم ، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم ، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوماً كأنهم رأي عين ، ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ، ولكنهم جاءهم أمر عن الله فصدّقوا به ، فنعتهم الله في القرآن أحسن نعت» قال : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا» [إلى أن يقول] : ثم ذكر ليلهم خير ليل ، فقال : « والذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً»[1] ينتصبون لله على أقدامهم ، ويفترشون وجوههم سجّداً لربّهم ، تجري دموعهم على خدودهم ، فرقاً من ربّهم ، قال الحسن لأمر مّا سهروا ليلهم ، ولأمر ما خشعوا نهارهم[2] » .

وقد كان شعاراً للصالحين والربانيين ، والدعاة والمجاهدين ، والمربّين المصلحين في كل عصر ، وفي كل طبقة ، وقد كانوا يأخذون لكفاحهم بالنهار ، ولأشغالهم التي تتطلّب قوة خارقة للعادة ، وصبراً لا نفاد له ، زاداً ووقوداً من عبادتهم في الليل ، ومن يقظتهم في الأسحار ، ولا يفهم الإنسان سر قوة اولئك العلماء الربّانيين ، والدعاة المصلحين ، ومثابرتهم على الجهاد في التعليم والإصلاح ، وتحمّلهم للمشاق والمحن ، إلا من رأى مواقفهم بالليل ، وشأنهم مع ربّهم تبارك وتعالى. حتى كان اولئك العلماء الذين قد يعتقد من لا يعرف حقيقتهم ، أنهم كانوا من علماء الظاهر ، ويتّهمهم بالجفاف والخشونة ، من كبار المهتمّين بقيام الليل ، والذكر والتسبيح ، فما ظن القارىء الكريم ، بالذين اشتهروا بكثرة العبادة وشدة الزهد ، ورقة القلب والانقطاع إلى تربية النفوس ، أمثال الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، والشيخ شهاب الدين السهروردي ، والشيخ أحمد عبد الأحد السرهندي ، والسيد أحمد بن عرفان الشهيد الهندي ، يقول العلامة ابن قيم عن شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية ....

« صلّى شيخ الإسلام مرة صلاة الفجر ، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب

(١) سورة الفرقان – ٦٣ - ٦٤ .

(٢) كتاب قيام الليل (للمحدث الكبير محمد بن نصر المروزي المتوفى ٢٩٤ ﻫ) طبع لاهور ١٣٢٠ ﻫ .

من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ ، وقال ، هذه غدوتي ، ولم أتغدّ ، ولو لم أتغدّ الغداء سقطت قوتي ، أو كلاماً قريباً من هذا[1] ».

وكذلك كان شأن تلميذه ابن قيم الجوزية ، فيقول المؤرخ ابن كثير ، وهو يصفه ، « لا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة ، يطيلها جداً ويمدّ ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك[2] » .

ويقول العلامة ابن رجب الحنبلي ، « وكان ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة ، إلى الغاية القصوى ، وتألّه ولهج بذكر الله ، وشغف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله تعالى ، والإنكسار له ، والإطّراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك » [3] .

وأغرب من ذلك كله ، أمر العلامة الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي الذي هو زعيم النقّاد ، وحامل لواء الردّ على غلاة الزهّاد والعبّاد ، يقول سبطه أبو المظفر ، وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام ، وقال ابن النجّار ، له حظ من الأذواق الصحيحة ، ونصيب من شرب حلاوة المناجاة ، وقد ذكر ابن القادسي : « إنه كان يقوم الليل ولا يكاد يفتر عن ذكر الله »[4] .

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم ، وزعماء الإصلاح والتجديد ، ورجال التعليم والتربية ، ومن نفع الله المسلمين بنفوسهم وأنفاسهم ، وكتب لمآثرهم وآثارهم الإنتشار الواسع والبقاء الطويل ، والقبول العظيم والذكر الجميل ، من

---

(١) مجموعة الوابل الصيب لابن القيم ، ص ٧١٩ - ٧٢٠ (مطبعة المنار) .

(٢) البداية والنهاية - ج ١٤ - ص٢٣٤.

(٣) التاج المكلل، ص ٤١٧ ، نقلاً من طبقات الحنابلة .

(٤) ملتقط من التاج المكلل - للعلامة الامير صديق حسن خان .

أصحاب العبادة والسهر في الليالي، والقيام في الأسحار، وأصحاب الصلة الروحية بالله تعالى، وهكذا كان وسيظل، فلا تنشأ يقظة عن غفلة، ولا نهضة عن جمود وخمود، ولا حياة من موت، ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور:

«سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا[1]».

ثمرة النوافل، والاكثار من الصلاة، وآثاره:

وللمحافظة على الصلوات - بقالبها وروحها - والإكثار من النوافل تأثير لا يعرف لغيرها في صفاء النفس، والسمو الروحي، والإتصال بعالم القدس وتلقي التجليات الأخروية، لذلك جاء في الحديث، «أما، إنكم سترون ربكم كما ترون هذا[2]، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قال: «فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها[3]»».

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام؟ فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة، قال: ما عملت عملاً أرجى عندي، أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي[4]»

والنوافل والإكثار منها سبب كبير في تقوية محبة الله تعالى، وجلب رحمته واصطفائه، لذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم على من طلب منه المرافقة في الجنة بتكثير النوافل وكثرة السجود، فقد روى مسلم، «عن أبي فراس ربيعة

---

(١) سورة الأحزاب - ٦٢. (٢) قال هذا، وأشار إلى القمر.
(٣) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري. (٤) رواه البخاري (ج١ في باب فضل الطهور)

ابن كعب الأسلمي خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أهل الصفة رضي الله تعالى عنهم ،قال : كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال : « سلني ! فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ! فقال : أو غير ذلك ، قلت : هو ذاك ! قال : « فأعنّي على نفسك بكثرة السجود (١) »

وهي كذلك تورث إضمحلال العبد في إرادة الله تعالى وخشيته ، وحبه ، والإنسلاخ عن الطبيعة السبعية ، أو البهيمية ، التي هي مصدر الظلم والطغيان ، والإثم والعدوان ، ومصدر الهوى ، ومخالفة أمر الله ، ولذلك جاء في الحديث الصحيح ، « ما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينّه ولإن استعاذني لأعيذنّه (٢) »

تفاوت الصلوات التفاوت الكبير ،
وتفاضل أهلها التفاضل العظيم :

وليست الصلاة قالباً حديدياً ،وشيئاً جامداً محدوداً ، يتساوى فيه الناس ، ويتوقف المصلي فيها على مستوى واحد لا يتجاوزه ، إنما هي ساحة واسعة يتدرج فيها المصلي من حال إلى حال ، ومن بدء إلى كمال ، ومن كمال إلى ما لا يخطر على البال ، ويتفاضل فيها الناس تفاضلاً كبيراً ، فليست الصلاة مع الغفلة والجهل ، مثل الصلاة مع الإستحضار والتفقه ، وليست صلاة عامة المسلمين مثل

---

(١) رواه مسلم . (٢) رواه البخاري ، يقول العلامة ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث نقلاً عن بعض العارفين ، « انه حمله على مقام الفناء والمحو ، وانه الغاية التي لا شيء وراءها ، وهو ان يكون قائماً بإقامة الله له، محباً بمحبته له ، ناظراً بنظره له . من غير ان تبقى معه بقية تناط باسم او تقف على رسم . او تتعلق بأمر . او توصف بوصف — ومعنى هذا الكلام ، انه يشهد ، إقامة الله له حتى قام ، ومحبته له حتى احبه ، ونظره إلى عبده حتى اقبل ناظراً إليه بقلبه » (فتح الباري ج١١ – ص ٢٩٦).

صلاة العارفين ، وأهل اليقين ، ولا يجب أن تكون صلاة كل أحد في اليوم مثل صلاته بالأمس ، وقبل شهور وسنين .

ولذلك يذكر القرآن نوعين من الصلاة ، يذم أحدهما ويمدح الآخر فيقول : «فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يراؤن. ويمنعون الماعون[1]» ويقول : قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون[2]» كذلك يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نوعين من الصلاة ، صلاة خاشعه مقبولة ، وصلاة ساهية منقوصة ، فيقول عن النوع الأول : « وقد توضأ فأحسن الوضوء» ثم قال : « من توضأ وضوئي هذا ، ثم يصلي ركعتين لا يحدث نفسه فيها بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه»[3] وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليها بقلبه ووجهه ، إلا وجبت له الجنة[4] » وقال عن النوع الثاني ، كما روى عنه عمار بن ياسر ، قال سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها[5] » وقال : « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته ، قالوا ، يارسول الله ، وكيف يسرق صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ، ولا سجودها[6] » وعن أنس رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا اصفرت ، وكانت بين قرني الشيطان ، قام ، فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً[7] »

وتفاضل النّاس في الصلاة تفاضلاً ، حتى كانت صلاة الواحد منهم لا تقاس

---

(١) سورة الماعون ٤ - ٥ - ٦ - ٧ . (٢) سورة المؤمنون - ١ - ٢ - .
(٣) رواه البخاري ومسلم عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، واللفظ للبخاري.
(٤) رواه مسلم . (٥) رواه ابوداود والنسائي .
(٦) رواه الدارمي وأحمد . (٧) رواه مسلم .

بصلاة الآخر ، وكانت صلاة رسول الله ﷺ أفضل وأكمل وأسمى ، وأرقى ، وأثقل عند الله في الميزان من كل صلاة ، وكانت صلاة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، أقرب إلى صلاة رسول الله ﷺ ، وأشبه بها من صلاة غيره ، لذلك اختاره رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ليكون في مكانه ، ويؤم الناس في وجعه الأخير ، وقال — مع اقتراح عائشة أم المؤمنين أن يؤم عمر — مروا أبا بكر فليصل بالناس [1] ، وكذلك كان .

والناس يتفاضلون في الصلاة قبل أن يتفاضلوا في غيرها ، — من فضل علم أو ذكاء - وهي المقياس الصحيح ، وبها يحكم على دين الرجل ، ومكانته في الإسلام ، وليس امتياز هؤلاء الرجال الذين خلد التاريخ ذكرهم ، وكان لهم فضل في الأقران والمعاصرين ، ولسان صدق في الآخرين ، إلا لامتيازهم في هذه الصلاة ، وتفوقهم فيها على معاصريهم وأضرابهم ، وبلوغهم فيها درجة الإحسان ، ووصولهم فيها إلى أسمى مكان .

فضل الصلاة والقرآن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وختم النبوة :

كانت النبوة شمساً وهاجة تشرق على هذا العالم ، وتملأ النفوس والقلوب نوراً وحرارة ، وقوة وحياة ، وتربطها بخالقها ربطاً قوياً وثيقاً ، في أقل وقت وأكثر عدد ، وتنقل — من أراد الله به الخير — من حضيض الجهل والغواية ، والغفلة والبطالة ، وسوء المعرفة والضلالة ، إلى ذرى العلم والحكمة ، والطموح وعلو الهمة ، وإلى أقصى مدارج الوصول والكمال ، وإلى أعلى منازل القرب والولاية ، واتصلت بعثاتهم ودعواتهم صلوات الله عليهم حتى كانت بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، على فترة من الرسل ، فكانت شخصيته ، هي أقوى

---

(١) رواه البخاري في الصحيح .

شخصيات الرسل ، وكانت دعوته هي أتم الدعوات ، وكانت صحبته هي الإكسير الأعظم ، الذي يحوّل العداء الشديد حباً وتفانياً والبعدَ عن الله والوحشة منه ، قرباً منه وأنساً به ووصولاً إليه ، وكان الناس يشعرون في صحبته ، كأنما يمرّ بهم التيار الكهربائي ، وكانوا ينتقلون في لحظات ، من الشك في الدين ، والظن والتخمين ، إلى أعلى درجات الإيمان واليقين [1] وكان وجوده ﷺ في أمته أقوى سبب الإتصال بالله تعالى ، وقطع منازل القرب والولاية .

ولكن الله تعالى قدّر لهذه الحياة الكريمة نهاية كما قدّر لحياة غيره ، « وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل » [2] وأكمل به دينه ، وأتم به نعمته ، فقال: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً [3] » وختم به الأنبياء والرسل ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » [4] وانقطع اتصال السماء بالأرض لوحي جديد ، أو رسالة جديدة ، فكان لا بدّ أن يملأ هذا الفراغ الذي يتركه انقطاع النبوات ، وانتقال آخر الأنبياء وخاتم الرسل من هذه الدنيا ، ويربط الخلق بالحق ربطاً وثيقاً مباشراً ، ويملأ صدورهم إيماناً ، وحكمة وقوة روحية ، ويشعل عاطفتهم ، ويلهب جذوة قلوبهم ، ويصلون به أعلى درجات الإيمان واليقين ، ومنازل القرب والولاية .

وكان ذلك العوض والخليفة هو الكتاب المعجز الخالد ، الذي يتدفق بالحياة والقوة ، والذي لا تبلى جدته ، ولا تنقضي عجائبه ، « والصلاة » التي تزخر

---

(١) اقرأ قصة فضالة وما وقع له في عمرة القضاء ، وهو يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف ، واقرأ ما حكى عمرو بن العاص عن نفسه عند موته في صحيح مسلم ، واقرأ قصة عكرمة بن جهل وقوة إيمانه وحسن بلائه بعد إسلامه ، في كتب السيرة والتاريخ ، والأخبار في ذلك اكثر من ان تستقصى .

(٢) سورة آل عمران - ١٤٤ . (٣) سورة المائدة ٣ . (٤) سورة الاحزاب ٤٠ .

بالقوة والحيوية كذلك ، ولها من الفضل والتأثير في ربط الصلة بالله والوصول إليه ، وقطع منازل القرب والولاية ، ما ليس لشيء آخر في الدين ، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة في كل عصر وجيل إلى مكانة في الإيمان واليقين ، والعلم والمعرفة ، والربانية والروحانية ، والقرب والولاية لا يصل اليها ذكاء الأذكياء ، وقياس العقلاء والحكماء ، وما زالوا في عدد يفوت العدّ والإحصاءَ ، ولا يزالان يفيضان النموّ والحياة ، والجدة والنشاط ، والروحانية الصافية الدافقة في نفوس هذه الأمة وأجيالها ، تستغني بهما هذه الأمة ، عن نبوة جديدة وبعثة جديدة ، وتعيش متصلة بالله مرتبطة به ، في كل دور من أدوار حياتها ، وفي كل عهد من عهود التاريخ ، تستمد لنفسها من القرآن والصلاة ، رابطة قلبية ، وقوة روحية ، وتمد إلى العالم المعاصر ، يد الدلالة والهداية ، ولذلك يقول الله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيمُ هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير (١) » .

الصلاة ميراث النبوة ، بروحها وأحكامها ، متوارثة في الأمة بظاهرها وباطنها :

والصلاة ميراث النبوة ، والتراث النبوي الخالد العظيم ، الذي يجب أن تتوارثه ، وتتناقله هذه الأمة جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، وطبقة بعد طبقة ، يجب أن تتوارثها بأوضاعها وآدابها ، وتفاصيلها واحكامها ، وقد فعلت ذلك بفضل التوارث والتعامل ، وبفضل جهود المحدثين والفقهاء الذين رووا أخبارها ، ودوّنوا أحكامها ، وما يُفرض ، وما يجب ، وما يندب إليه وما يستحب ، وما هو سنة وما يخالفها ، وما يجوز وما لا يجوز ، فجزاهم

(١) سورة الحج - ٧٨ .

الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

وهكذا كان يجب أن تتوارث هذه الأمة روحها وحقيقتها ، وخشوعها وإنابتها ، وحرارتها ورقتها ، وقد كانت صلاة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم جامعة بين أوضاع وأحكام ، وبين روح وحقيقة ، وخشوع ورقة ، وقد سئل عن الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] ، وقد كانت صلاته صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي المثل الكامل للإحسان ، وقد روى مطرف عن أبيه ، قال : « رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء[2] » .

وقد كانت صلاة الخلفاء الراشدين والصحابة ، وكثير من التابعين ، ومن جاء بعدهم من المخلصين والربانيين ، وأهل القلوب الصادقة الخاشعة صورة للصلاة النبوية ، ومرآة لها ، وقد روت كتب التاريخ ، والطبقات والتراجم ، الشيء الكثير من طولها وجمالها ، وخشوعها ورقتها ، فقد جاء في حديث الهجرة ، عن عائشة رضي الله عنها ، وكان أبو بكر رجلاً بكاءاً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن[3] » وقالت : لما أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في شدة مرضه ، أن يتقدم أبو بكر ، فيصلي بالمسلمين ، وقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » « إن أبا بكر رجل رقيق ، وفي رواية أسيف ، إذا قرأ غلب عليه البكاء[4] » وقال الحسن البصري رحمه الله : « كان عمر رضوان الله عليه ، يمر بالآية من ورده بالليل فيبكي حتى يسقط ، ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض ، » وعن ابن عمر رضي الله عنه ، قال ، غلب على عمر رضوان الله عليه البكاء وهو يصلي بالناس صلاة الصبح فسمعت حنينه من وراء ثلاثة صفوف ، » وعن علقمة بن

---

(١) حديث متفق عليه. (٢) رواه أبو داود (٣) الجامع الصحيح للبخاري- الجزء الأول (باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة المنورة) .
(٤) الصحيح البخاري (باب أهل العلم والفضل أحق بالامامة) .

وقاص قال : « كان عمر يقرأ في العشاء الآخرة يوسف ، وأنا في مؤخر الصف حتى إذا ذكر يوسف عليه السلام سمعت نشيجه[1] » وعن عبدالله بن شداد سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف، يقرأ ، « إنما أشكو بثي وحزني إلى الله[2] ».

واجب قادة الاصلاح ، ورجال التعليم والتربية ، والحركات الدينيــة :

ومن واجبات هذه الأمة وعلمائها ومربيها ، بالأخص ، أن لا ينقطع هذا الإرث ، وأن لا تضيع هذه الثروة المباركة ، وأن لا ينطفىء هذا النور مهما تغيرت الأوضاع ، وغزت المادية القلوب والنفوس ، فإنها خسارة لا تعوّض بشيء ، وفراغ لا يملأ بأكبر قسط من الأحكام الفقهية ، وأسرار التشريع ، وذلاقة اللسان وسيلان القلم ، ولا أمل في حركة إصلاحية ، أو محاولة لبعث إسلامي ، إلا إذا ألهبت جذوة الإيمان ، والحب والحنان ، في نفوس أصحابها ودعاتها ، وأعادت إلى الأمة — عن طريق دعوتها وتربيتها وجهادها — ظلال تلك الصلاة الخاشعة الرقيقة ، التي امتازت بها القرون ، المشهود لها بالخير ، وعرفت كيف تقوم أمام ربّها في الصلاة قبل أن تعرف كيف تقف أمام عدوها، وفي المشكلات والأزمات ، وصدق إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، إذ قال ، « لن يصلح آخر هذه الأمة ، إلا ما أصلح أولها» [illegible] العظيم :

« قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون[3] » .

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لابن الجوزي . (٢) ذكره البخاري .
(٣) سورة المؤمنون – ١ - ٢ .

الزَّكَاة

الزكاة

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » (١)

صلة الرب والعبد ، وما توجبه من حب وإخلاص ، وبذل وإيثار :

لاحظ الصلة الغريبة الفريدة التي تقوم بين الربّ والعبد ، وهي صلة لا يوجد لها نظير ولا أساس للقياس من بين الصّلات ، في الأصالة والعمق ، والسعة والإحتواء ، والشمول والإحاطة (٢) ، وأقل ما يقال فيها ، إنها صلة الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب ، والرازق والمرزوق ، والمالك والمملوك ، والحاكم والمحكوم ، إنها صلة بين سيّد كريم وربّ رحيم ، وبين انسان فقير وعبد ذليل ، توجب صفات هذا الرب الكريم الكماليّة ، وأفعاله البديعة ، وربوبيّته الحكيمة الرّحيمة ، ورعايته اللطيفة الدقيقة ، أن يخلص له الحبّ ويهيم به القلب ، وتبذل في سبيله المهج والأرواح ، فضلاً عن الأموال والأملاك .

مظاهر الربوبيّة والعناية بالانسان :

وتأمّل في مظاهر ربوبيته الشاملة ، وهدايته الواسعة في هذا العالم ، وعنايته الفائقة بهذا الإنسان ، فهو الذي خلع عليه لباس الوجود المتناسب ، وهيّأه للإنتفاع بخيرات الأرض وطيّباتها ، وذخائرها وكنوزها ، ووسائلها وطاقاتها ،

(١) سورة براءة - ١١ .

(٢) سبق له بحث طويل في موضوع الصلاة .

تهيئة حكيمة دقيقة ، وألهمه حبّها والبحث عنها والفناء في سبيلها وطرق استخدامها ، والتعاون في تنظيمها ومبادلتها مع أبناء جنسه .

وقد تجلّت صفة الربوبيّة والهداية في جميع الأنواع والأجناس ، وفي جميع الأصناف والموجودات ، «الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى [1] » وكان للإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض من ذلك النصيب الأوفر ، والمركز الرئيسي ، «ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ، ورزقناهم من الطيّبات ، وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً [2] » فذلّل له مناكب الأرض ، ووطّأ له أكنافها ، وحثّه على استثارة دفائنها ، واستخراج خيراتها ومكامنها ، «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه [3] » وسخّر له منابع القوت ومصادر الغذاء ، وقوائم الحياة ، وهي الحبوب ، والماء ، والنّار ، الوسائل الأصيلة الفطريّة ، الأساسيّة الرئيسيّة ، التي تقوم عليها الحياة البدائية فضلاً عن المدنيّة الراقية ، «أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون ، إنّا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين [4] »

الطبيعة البشرية ، وما لها من أثر في الحياة والمدنيّة :

ثمّ أودع طبيعته — خلافاً لطبائع الجمادات والحيوانات — حب التجمّل والأناقة والتظرّف والنظافة ، والتنوع ، والتوسع في المطاعم والمشارب ، والزيادة في الحرث والنسل الطبيعية التي تكتسب بها الحياة البشرية حرارتها ونشاطها ، وحماستها وكفاحها ، ويكتسب بها هذا العالم عاطفة التقدّم والرّقي ، والتغيّر

(١) سورة طه : آية — ٥٠ . (٢) سورة الاسراء — ٧٠ . (٣) سورة الملك — ١٥ .
(٤) سورة الواقعة — ٦٣ — ٧٣ .

والطرافة ، فأرخى له العنان :

« كلا نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك وما كان عطاء ربّك محظوراً [١] »
« أنظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً [٢] »

وألهمه التعاون وضمانة الحقوق ، والحرص على سلامة الطرق وأمن البلاد ، وحبّ الأسفار والمغامرات في سبيل الرزق الكريم ، وجلب المنافع المشتركة ، فأودع كلّ ذلك الطبيعة البشرية على اختلاف أدوارها وتنوّع أمصارها ، « لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف [٣] » .

الوضع والواقع ، يقتضيان أن لا يُقرر للانسان ملك ولا يضاف إليه شيء ، وأن يكون الملك كله لله :

فكان هذا الوضع الفطري ، وكان هذا الواقع العملي الذي ظهر فيه عجز الإنسان وفقره ، وضعفه وتفاهته في أجلى أشكالها ، وظهرت فيه الربوبيّة الإلهيّة في أروع مظاهرها ، يقتضي بحكم العقل والمنطق والوجدان السليم ، أن لا يُقرّر للإنسان ملك ، ولا يتحقق له حقّ ، ولا يضاف إليه شيء ، إلاّ كما يُضاف إلى طفل صغير ، أو رضيع محمول ، يتقلب في حنان أمّه وعطف أبيه ، ويحبو ويدرُج في نعمتها ، ويرتع ويسرح في ظل جهدهما وكدحهما ، بل هو أقلّ شأناً وأكثر هواناً في هذا الكون الكبير وبجوار هذا الرب العلي القدير من هذا الطفل الصغير في بيت أبيه الكبير ، ولله المثل الأعلى في السموات والأرض ،

---

(١) سورة الاسراء - ٢٠.
(٢) سورة الاسراء - ٢١ .
(٣) سورة قريش .

وهو العزيز الحكيم [1] » ووجب أن يُضاف كلّ شيء مما تملكه الإنسان ، وأضافه إلى نفسه جهلاً من أموال ومكاسب إلى من خلقها ونمّاها ، وحرسها وصانها، ومكّن الإنسان منها لغرض محدود ، ووقت محدود ، وطريق محدود.

الفكرة الأساسية في النظام الاقتصادي الاسلامي ، تقرير الملكية الحقيقية لله تعالى :

ولهذه الحقيقة التي تسيطر على الحقائق كلها ، وهي الروح التي تسيطر على جميع النظم الدينية الخلقية والإقتصادية ، اضاف القرآن هذه الاحوال الانسانية كلها الى الله تبارك وتعالى ولم يقرر للإنسان إلا منصب الأمانة والخلافة ، فخاطب المسلمين تارةً بقوله : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم [2] » وطوراً بقوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه [3] » وقرر أن الله هو المالك الحقيقي ، والوارث الحقيقي ، فليس لإنسان يرضخ بجزء يسير من هذا المال منٌّ ولا فضل ، وليست له مأثرة يدل بها ، ولا مفخرة يتيه بها ، فقال : « وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله ، ولله ميراث السموات والأرض» [4] وكان مقتضى هذا الوضع ، أن يطلب من الإنسان أن يتخلى عن كل ما يملكه ، ولا يُمنح حق التصرف في ماله في قليل ولا كثير ، وأن يبقى مغلول اليد ، مقيد الإرادة ، مشلول الحرية .

سر إضافة الأموال والملكية إلى الانسان ، وفائدتها :

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك ، ولم يجر القرآن – وهو الكتاب السماوي الأخير – على نمط واحد من إضافة هذه الأموال ونتائج الجهود

---

(١) سورة الروم – ٢٧.
(٢) سورة النور – ٣٣.
(٣) سورة الحديد – ٧ .
(٤) سورة الحديد – ١٠ .

الإنسانية وثمرات كفاحه إلى الله تبارك وتعالى في كل مناسبة ، فلو فعل ذلك لما أثار دهشة واستغراباً ، لما قدمناه ، ولكنه لو فعل ذلك لأفقد الإنسان ثقته بنفسه ، واعتزازه بكرامتـه ، واعتماده على قواه وطاقاته ، وحرمه عاطفة الكدح ، ونشوة الطموح ، ودافع التنافس ، ولذة الحياة التي يجدها الإنسان في نسبة الأشياء إلى نفسه ورؤية نتائج سعيه وجهده ، هذه هي اللذة الفطرية التي تراود الأطفال الصغار لنسبة كل ما حواه بيتهم ، أو ملكه آباؤهم ، إلى أنفسهم ، وحرم بذلك الإنسان دافـع الحب والإشفاق ، والنصح والإخلاص ، في حراسة هذه الأموال والأملاك ، وتزكيتها وإنمائها ، وإثمارها وإنتاجها ، وجرّد الحياة البشرية من أقوى عوامل زحفها وصراعها ، وجهادها وكفاحها ، وأصبح العالم كله مصنعاً كبيراً ، يتحرك فيه بنو آدم كآلات صمّاء ، لا قلب لهم ولا ضمير ، ولا متعة لهم ولا لذة .

فلذلك كانت إضافة القرآن للأموال إلى أصحاب كسبها وانتاجها ، واقتنائها وإحرازها ، ، أكثر من إضافتها إلى خالقها ورازقها ، فقـال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقـاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون[1] » وقال : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[2] » وقال : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض[3] » وقال : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً[4] » وقال . « وإن

(١) سورة البقرة - ١٨٨ .
(٢) سورة البقرة ٢٦٢ .
(٣) سورة البقرة ٢٦٧ . .
(٤) سورة النساء - ٥ .

تؤمنوا و تتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم [1] ».إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي أضيف فيها المال والكسب إلى الإنسان .

وقد وسّع الله في ذلك ، وكرّم الإنسان حتى سمّى ما ينفقه المسلم في سبيل الله ، ويساعد به عباد الله قرضاً ، فقال : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة [3] » وقال : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم [2] » وقال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً [4] »

كيف غرس القرآن فكرة الأمانة والخلافة في نفوس المسلمين ؟ :

وقد كانت هذه الحقيقة التي قرّرها القرآن ،وهي حقيقة ملك الله المطلق ، وأنه هو المالك الحقيقي لكل ما وُجد في هذه الأرض ، أو اكتسبه الإنسان وأحرزه ، تُسيطر على تفكير المسلمين الأولين ، وتتحكم في حياتهم ، فلا يرون أنفسهم إلاّ أمناء مستخلفين في هذه الأموال : فلا إفتيات بالرأي ، ولا الحرّية المطلقة في التصرّف فيها ، ولا رياء ولا فخر ، ولا أشر ولا بطر .

وقد غرس القرآن فكرة « الأمانة والخلافة » وأرسخها في نفوسهم وعقولهم بطُرق شتى ، وأساليب تربوّية حكيمة ، وأعلم المسلمين بأن هذه الأموال إذا كانوا اكتسبوها وتملّكوها بكدّ اليمين وعرق الجبين ، وببراعتهم في طرق الكسب ، وحذقهم في الصناعات وأنواع التجارات ، فقد انتقلت الى

---

(١) سورة محمد عليه الصلاة والسلام - ٣٦ .
(٢) سورة البقرة - ٢٤٥ .
(٣) سورة التغابن - ١٧ .
(٤) سورة المزمل - ٢٠ .

الله تبارك وتعالى مرة ثانية بحكم ميثاق الإسلام ، والتخلي لله تبارك وتعالى عن جميع الحقوق والدعاوى ، وهو الذي يقرره الإنسان ويقطعه على نفسه بدخوله في الإسلام ، ونطقه بالشهادتين ، فلله أن يسترد وديعته متى شاء ، ويطلب سلعته التي اشتراها متى شاء، فقال: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة [1] » وأنذر من استحوذ عليه حب المال ، وآثر نفسه او راحته وشهواته على الجهاد في سبيل الله ، وأداء حقوق الله ، ورأى لنفسه حقاً وحرّية في التصرف فيه ، والضنّ به ، والحدب عليه ، فقال : « قل إن كان آباؤكم وابناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين [2] »

وأنذر المسلمين كذلك بأن الإضراب عن الإنفاق في سبيل الله بسخاء وعلو همّة ، وبذل النفس والنفيس لله تعالى ، وخذلان هذا الدين الذي به بقاؤهم وحياتهم ، وانتصارهم وازدهارهم سعيٌ في هلاك النفس ، ومرادف لما يسمّونه اليوم « الإنتحار » فقال : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين [3] » .

كيف آمن المسلمون الأوّلون بفكرة الأمانة والخلافة ، وكيف خضعوا لها ؟ :

وقد كانت هذه سيرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما كانوا يملكون من

(١) سورة التوبة - ١١١ .
(٢) سورة التوبة - ٢٤ .
(٣) سورة البقرة - ١٩٥ .

مالٍ ومتاعٍ ، وعقار وملك ، وحرث ونسل ، وقد وضعوها تحت تصرّف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومصالح الإسلام ، قد كانت هذه سيرتهم في مكة قبل الهجرة ،وقد مثّلها خير تمثيل أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفّان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وصهيب الرومي ، وأبو سلمة ، وغيرهم من كبار المهاجرين وأغنيائهم ،وقد كانت هذه سيرتهم وسيرة الأنصار رضي الله تعالى عنهم في المدينة .

وتجلّت هذه الفكرة والعاطفة بكل وضوح وقوة فيما قاله سعد بن معاذ قبل معركة بدر فقد جاء في الخبر :

« ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا أيضاً فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثاً، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ،فقال يارسول الله ! كأنك تعرّض بنا، وكان إنما يعنيهم ،لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم، فلما عزم على الخروج ، استشارهم ليعلم ما عندهم ، فقال له سعد ، لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترىٰ حقاً عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبّ إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمران لنسير معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك [1] » .

---

(١) زاد المعاد - ج - ١ ص ١٣٠ - ص ١٢٧ .

الحث على إنفاق الفضل في سبيل الله وقيام المسلمين به في نشاط وحماس :

ولما رسخت هذه العقيدة في قلوب المسلمين ، وملكتهم هذه الفكرة والنظرة الخاصة إلى المال ، واعتباره مال الله الذي استخلفهم فيه ، وتغلغلت في أحشائهم ، طلب منهم أن ينفقوا من أموالهم ما فضل وفاض عن حوائجهم « الشرعية الأساسية » فنزل : « ويسئلونك ماذا ينفقون ، قل العفو[1] » .

وامتثلوه وطبّقوه بنشاط وحماس ، فقد هان عليهم كل شيء بعد إقرارهم بأن المال مال الله ، وأنهم أمناء أوصياء ، حتى بلغوا إلى أن أنفقوا على خصاصة وحاجة ، وآثروا غيرهم على أنفسهم وأولادهم ، وكان من خبر أبي طلحة الأنصاري ما كان ، وسجله قلم التاريخ مثالاً رائعاً للسخاء والإيثار يندر نظيره في تاريخ المجتمعات البشرية ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتى رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله اصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبي ﷺ ، « ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله » فقام رجل من الأنصار ، فقال : أنا يا رسول الله ! فذهب إلى أهله ، فقال لإمرأته : هذا ضيف رسول ﷺ لاتدخريه شيئاً ، فقالت ! والله ما عندي إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء ، فنوّميهم وتعالي ، فاطفئي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول

---

(١) سورة البقرة - ٢١٩ - قال ابن كثير في تفسير « العفو » ما يفضل عن أهلك ، وكذا روي عن ابن عمر ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والقاسم ، وسالم ، وعطاء الخراساني ، والربيع بن أنس وغير واحد ، أنهم قالوا في قوله « العفو » يعني الفضل .

وقال ابن بطال في تفسيره ، أي ما فضل عن الكفاية .

الله ﷺ ، فقال : « لقد عجب الله عزّ وجلّ – أو ضحك – من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة [1] » .

الزكاة بمعنى الانفاق والصدقات :

وقد جاء ذكر « الزكاة » في السور المكية ، وهي لا تعني غير الإنفاق والصدقات ، فقال تعالى : « قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون [2] » وقال : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » [3] . وقد ذكرت في تعاليم الرسول وفضائل الإسلام ، أمام بعض ملوك العصر ، وقد قال جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي « وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام [4] » وذلك في العام الخامس بعد البعثة .

الحاجة إلى نظام معين للزكاة وتشريع يوافق الطبقات والعصور :

ولما بلغ المجتمع الإسلامي غايته من رسوخ العقيدة والتربية الخلقية ، والطاعة والإنقياد ، والسخاء والإيثار ، والتجرّد من الأنانية الفرديّة والجماعية ، وقوي الإسلام بأهله وإيثار أتباعه ، وتوسّع هذا المجتمع ، وتنوّعت فيه الأنماط

---

(١) سورة الحشر – ٩ – قد جاءت تسمية هذا الأنصاري في صحيح مسلم بأبي طلحة .
(٢) المؤمنون – ١ – ٤ .
(٣) سورة حم السجدة – ٧ – .
(٤) سيرة ابن هشام .

البشرية والمستويات الخلقية والروحية ، ففيه الغني والفقير والمتوسط بينهما ، وفيه السخي الأريحي ، الذي هوايته في الإنفاق والإيثار ، وفيه الشحيح وفيه المقتصد والمتوسط ، وكان ما يشرع في هذا المجتمع من أحكام ، وما يطالب به من أعمال ، هي الشريعة الخالدة العامة العالمية التي يمتثلها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي أوائل العصور وأواخرها ، وفي بداية المدنية وبساطتها ، وفي أوجها وتعقدها ، ومع القوة الإيمانية التي تحتمل أكبر مغامرة ، وتهوّن أعظم تضحية وتُسيغ أكبر مشكلة ، ومع ضعف الإيمان الذي قد يوجد في أطراف العالم الإسلامي البعيدة ، وفي الأجيال المسلمة المتأخرة إقتضت حكمة الله ولطفه بعباده ، أن يُشرع للزكاة نظاماً مبين الحدود واضح المعالم معيّن النصاب ، معلوم المقادير والأعداد ، ويكون وسطاً بين الكثير والقليل ، لا يستهين به الأغنياء الأسخياء أولو الهمم ، ولا يقصر عنه المتوسطون أو دون المتوسطين ممن استوفى شروطها .

وأن لا يوكل ذلك إلى الرأي ، ولا إلى همة الأفراد وطموحهم ، ولا إلى الإنفعالات الوجدانية العاطفية التي تكون في مدّ وجزر ، وقوة وضعف ، ولا إلى تشريع المشرّعين ، وحكمة العلماء والحكام ، فلا ثقة بها في كلّ زمان ومكان ، ولا يؤمن عليها من اتّباع الهوى والأغراض ، ففرضت الزكاة ، وحدّدت نصبها ، ومقاديرها[1] .

---

(١) نرجح أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة ، وكان ذلك قبل السنة الخامسة على الأرجح ، فقد جاء ذكرها كفريضة ، وركن من أركان الإسلام ، في حديث ضمام بن ثعلبة ، وفي حديث وفد عبد القيس ، (وكان قدومه في السنة الخامسة) ، وفي مخاطبة أبي سفيان مع « هرقل » ، وكانت في أول السابعة ، ومما يدل على ذلك ما ثبت عند أحمد ، وابن خزيمة ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر ، قبل أن تنزل الزكاة ، ثم نزلت فريضة الزكاة ، فلم يأمرنا ، ولم ينهنا ونحن نفعله » وإسناده صحيح ، وصدقة الفطر تابعة لرمضان وصومه ، وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة ، والآية الدالة على فرضيته ، مدنية بلا خلاف .

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بيان حكمة التعيين والتحديد في أحكام الزكاة ونظامها ، فقال :

« ثم مسّت الحاجة إلى تعيين مقادير الزكاة، إذ لولا التقدير ، لفرط المفرط، ولاعتدى المعتدي ، ويجب أن تكون غير يسيرة لا يجدون بها بالاً ، ولا تنجع من بخلهم ، ولا ثقيلة يعسر عليهم اداؤها، وإلى تعيين المدة التي تجبى فيها الزكاة، ويجب أن لا تكون قصيرة يسرع دورانها ، فتعسر إقامتها فيها ، وأن لا تكون طويلة لا تنجع من بخلهم ، ولا تدر على المحتاجين والحفظة ، إلا بعد انتظار شديد ، ولا أوفق بالمصلحة من أن يجعل القانون في الجباية ما اعتاده الناس في جباية الملوك العادلة من رعاياهم ، لأن التكاليف بما اعتاده العرب والعجم ، صار كالضروري الذي لا يجدون في صدورهم حرجاً منه ، والمسلم الذي أذهبت الألفة عنه الكلفة أقرب من إجابة القوم وأوفق للرحمة بهم [1] .

- فيم تجب الزكاة ؟ وحكمة التفاوت بين النصب والمقادير :

وحدد رسول الله ﷺ مقدار الزكاة والأموال التي تجب فيها ، ونصاب هذه الأموال ، الذي يجب فيه الزكاة وزمن وجوبها [2] ، فجعلها في أربعة أصناف من المال ، وهي أكثر الأموال دوراً بين الخلق ، أحدها الزرع والثمار ، الثانية بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم ، الثالث الجوهران اللذان بهما قوام العالم ، وهما الذهب والفضة ، الرابع أموال التجارة على اختلاف أنواعها [3] » .

---

(١) حجة الله البالغة ج ٢ - ص ٣ .

(٢) إقرأ الأحاديث الواردة في كل ذلك ، في كتب الصحاح ، واقرأ شرحها والبحث فيها ، وفهم فقهاء الإسلام لها في كتاب « نيل الأوطار » للعلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى ١٢٥٠ هـ) .

(٣) ماتقط من زاد المعاد - ج ١ - ص ١٤٥ .

قال الإمام ابن القيم وهو يتكلم في مصلحة إختيار الأموال التي تجب فيها الزكاة ، وحكمة التفاوت بين نُصبها ، وحكمة تعيين الزمن الذي تجب فيه الزكاة ، وهو حولان الحول ، في كتابه النفيس « زاد المعاد » :

« ثم إنّه أوجبها مرة كل عام ، وجعل حول الزروع والثمار عند كمالها واستوائها ، وهذا أعدل ما يكون ، إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة ، يضرّ بأرباب الأموال ، ووجوبها في العمر مرة ممّا يضرّ بالمساكين ، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة ، ثم إنّه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعي أرباب الأموال في تحصيلها ، وسهولة ذلك ومشقته ، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعاً محصلاً من الأموال ، وهو الرّكاز ، ولم يعتبر له حولاً ، بل أوجب فيه الخمس متى ظفر به ، وأوجب نصفه ، وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك ، وذلك في الثمار والزروع التي يباشر حرث أرضها ، وسقيها ، وبذرها ، ويتولىّ الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد ، ولا شراء ماء ، ولا اثارة بئر ودولاب ، وأوجب نصف العشر فيما تولىّ العبد سقيه بالكلفة والدوالي والنواضح وغيرها ، وأوجب نصف ذلك ، وهو ربع العشر [1] فيما كان النماء فيه موقوفاً على عمل متصل من رب المال بالضرب في الأرض تارة ، وبالإدارة تارة ، وبالتربّص تارة . ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار أيضاً ، فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة ، فكان واجبها أكثر من واجب التجارة ، وظهور النمو فيما يسقى بالسماء والأنهار ، أكثر ممّا يسقى بالدوالي والنواضح ، وظهوره فيما وجد محصلاً مجموعاً كالكنز أكثر وأظهر من الجميع .

ثم إنه لما كان لا يحتمل المواساة كل مال وإن قلّ ، جعل للمال الذي يحتمل

(١) يعني ٢,٥ بالمئة .

المواساة نُصبا مقدّرة ، المواساة فيها لا تجحف أرباب الأموال وتقع موقعها من المساكين فجعل للورق مائتي درهم ، وللذهب عشرين مثقالاً [1] ، وللحبوب والثمار خمسة أوسق[2] ،وهي خمسة أحمال من أحمال إبل العرب ، وللغنم أربعين شاة ، وللبقر ثلاثين ، وللإبل خمساً [3] » .

---

(١) وكل مثقال كان يعادل في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ، وكل دينار كان في زمنه بعشرة دراهم بالتقويم تعادل عشرون مثقالاً (أو عشرون ديناراً) مائتي درهم ، وهكذا تعادل نصاب الذهب والفضة، واعتمد على ذلك في التشريع بطبيعة المال ، وكان المعيار في الزكاة في كل عصر ومصر .

ومائتا درهم ، تعادل بالتقويم ستة جنيهات استرلينية ، في هذا العصر وعشرون مثقالاً (أو عشرون ديناراً) تعادل ٥ ، ١٢ ليرة ذهبية عثمانية ، أو ١١ جنيهاً بالعملة المصرية .

(٢) « الوسق ستون صاعاً ، وكل صاع ثمانية أرطال »

وهذا مذهب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأكثر العلماء ، فيعتبرون النصاب فيما تخرجه الأرض ، وهو خمسة أوسق ، فليس عندهم في أقل من ذلك زكاة ، وذهب ابن عباس ، وزيد بن علي ، والنخعي ، وأبو حنيفة الى العمل بالعام ، فقالوا ، تجب الزكاة في القليل والكثير ، ولا يعتبر النصاب ، والخلاف دائر على بحث أصولي ، فليرجع إلى كتب الاستدلال للمذاهب ، وكتب أصول الفقه ، وأحكام القرآن .

وقد ذكر شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي حكمة هذه المقادير التي جعلتها الشريعة نصاباً تجب على من يملكه الزكاة ، فقال ، « إنما قدر من الحب والتمر خمسة أوسق ، لأنها تكفي أقل أهل بيت إلى سنة ، وذلك لأن أقل البيت ، الزوج ، والزوجة ، والثالث خادم ، أو ولد بينهما ، وما يضاهي ذلك من أقل البيوت ، وغالب قوت الإنسان رطل ، أو مد من الطعام ، فإذا أكل كل واحد من هؤلاء ، ذلك المقدار كفاهم لسنة ، وبقيت بقية لنوائبهم ، أو إدامهم وإنما قدر من الورق خمس أواق (يعني مائتي درهم) ، لأنها مقدار يكفي أقل أهل بيت سنة كاملة ، إذا كانت الأسعار موافقة في أكثر الأقطار ، واستقرىء عادات البلاد المعتدلة في الرخص والغلاء » (حجة الله البالغة ج ٢ - ص ٣٢) .

(٣) ملتقط من كتاب « زاد المعاد » ج١ ص ٢٤٦ .

حكمة مواضع الزكاة وتوقيتها :

ويزيد ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ايضاحاً ويشرح حكمة اختيار مواضع الزكاة وتوقيتها ، فيقول :

« والأبواب التي اعتادها طوائف الملوك الصالحين من أهل الأقاليم الصالحة ، وهو غير ثقيل عليهم ، وقد تلقتها العقول بالقبول ،أربعة : الأول أن تؤخذ من حواشي الأموال النامية ، فإنها أحوج الأموال إلى الذب عنها ، لأن النمو لا يتم إلا بالتردّد خارج البلاد ، ولأن اخراج الزكاة أخف عليهم لما يرون من التزايد كل حين فيكون الغُرم بالغنم ، والأموال النامية ثلاثة أصناف ، الماشية المتناسلة السائمة ، والزروع ، والتجارة .

والثاني ، أن تؤخذ من أهل الدثور والكنوز ، لأنهم أحوج الناس إلى حفظ المال من السرّاق وقطاع الطريق ، وعليهم انفاقات لا يعسر عليهم أن تدخل الزكاة من تضاعيفها .

والثالث ، أن تؤخذ من الأموال النافعة التي ينالها الناس من غير تعب كدفائن الجاهلية وجواهر العادبين [1] ، فإنها بمنزلة المجّان يخفّ عليهم الإنفاق منه .

والرابع ،أن تلزم ضرائب على رؤوس الكاسبين فإنهم عامة الناس وأكثرهم ، وإذا جبي من كل منهم شيء يسير كان خفيفاً عليهم ، عظيم الخطر في نفسه .

ولما كان دوران التجارات من البلدان النائية وحصاد الزروع ، وجني

---

(١) يعني القدماء .

الثمرات في كل سنة ، وهي اعظم انواع الزكاة قُدّر الحول لها ، ولأنها تجمع فصولاً مختلفة الطبائع وهي مظنّة النماء ، وهي مدة صالحة لمثل هذه التقديرات .

والأسهل والأوفق بالمصلحة أن لا تجعل الزكاة إلا من جنس تلك الأموال فتؤخذ من كل صرمة من الإبل ناقة ، ومن كل قطيع من البقر بقرة ، ومن كل ثلة من الغنم شاة مثلاً [1] » .

مصارف الزكاة ، وقيام نظامها الاجتماعي :

وبيّن الله تبارك وتعالى مصارف الزكاة في آية من سورة براءة ، وهي قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم »[2] وقد كان نزول سورة براءة بعد فتح مكة . وقد استقرت دعائم الإسلام ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فقام نظام الزكاة

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج ٢ ـ ص ٣٠.

(٢) سورة براءة ـ ٦٠ .

راجع تفسير هذه الكلمات ومعرفة مدلولها وما فيه من اقوال ومذاهب « احكام القرآن » للامام ابي بكر احمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ) . « احكام القرآن » للقاضي ابي بكر بن العربي المالكي (م سنة ٥٤٢ هـ) وكتب التفسير والفقه للمذاهب الأربعة .

وهذه المصارف المنصوصة في القرآن باقية دائمة مع بقاء حكم الزكاة إلا المؤلفة قلوبهم ، فقال اكثر الأئمة وفقهاء الاسلام ، قد سقط سهمهم بانتشار الاسلام وغلبته ، واستدلوا على ذلك ، بامتناع ابي بكر من إعطائهم ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى جواز التأليف . ويعجبني في ذلك ، قول القاضي ابي بكر العربي ، « والذي عندي إن قوي الاسلام ، زالوا . وإن احتيج إليهم اعطوا سهمهم . كما كان يعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن الصحيح قد روى فيه « بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ » (احكام القرآن ـ ص ٣٨٥) .

الإجتماعي [١] ، وبعث رسول الله ﷺ السعاة والعاملين على الصدقات يتسلمون هذه الصدقات من أصحابها ، وبيّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحكام تحصيلها وآدابه ، وأوصاهم في ذلك وصايا ، تتجلى فيها الحكمة مع الرحمة ، والمصلحة الإجتماعية بجوار المصلحة الفردية [٢] وقد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه الى اليمن في العام العاشر الهجري [٣] ، وأوصاه وصية ، أصبحت أساس قانون الزكاة ومنشورها الرسمي ، قال له :

« انك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فادعهم الى شهادة أن لا اله الا الله ، وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب [٤] » .

مصالح الزكاة الأساسية :

اعتاد كثير من الكتاب الإسلاميين المعاصرين الذين خضعوا في قليل أو كثير للنظم الإقتصادية الحديثة ، وأهمية علم الاقتصاد وسيطرته على جميع النظم

---

(١) كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة . قال الإمام ابو جعفر الطبري . « ثم دخلت سنة تسع ..... وفي هذه السنة فرضت الصدقات . وفرق فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عماله على الصدقات (تاريخ الطبري الجزء الرابع من المجلد الأول . مطبعة بريك ليدن ـ ص ١٧٢٢) وقد وهم رحمه الله في قوله : فرضت الصدقات . فقد سبقت فرضيتها بسنين . كما قدمنا . وإنما كان في هذه السنة بعث العمال على الصدقات . وتفريقهم في الأمصار .

(٢) إقرأ هذه الوصايا ، والتوجيهات النبوية ، في دواوين الحديث والسيرة .

(٣) ذكره البخاري في اواخر المغازي .

(٤) رواه الجماعة عن ابن عباس رضي الله عنه .

ومناهج التفكير في هذا العصر ، أن يفيضوا ويسترسلوا في مصالح الزكاة الإقتصادية والإجتماعية ، وما تعود به على المجتمع الإسلامي من فوائد ومنافع ، واعتبروها – وبالأصح يفهم القارئ لكتاباتهم وبحوثهم أنهم يعتبرونها – جباية مالية من أعدل الجبايات ، وأكثرها اتزاناً واعتدالاً في جميع الجبايات التي عرفها تاريخ الإقتصاد في العالم ، ولذلك يعتبرون أنها أكبر أساس ، وأقوى دعامة « للإشتراكية » التي يعتقدون أن الإسلام دعا اليها وتحققت في أفضل عصوره ، وكادوا يغفلون – الا من عصم الله ووفقه – روح الزكاة التي تسيطر عليها ، وهي روح العبادة والتقرب الى الله ، وحكمتها الأساسية الأولى ، وهي حكمة تزكية النفس من الشح والحرص ، والأثرة وحب المال ، وظلم حقوق الفقراء وقسوة النفس وتزكية المال وتنميته ، وحلول البركة فيه برضا الله سبحانه وتعالى وقبوله ، وبفضل مواساة الفقراء الضعفاء ، وانعطاف قلوبهم ورقتها ، ودعائهم ، وقد ذكر الله هذه المصلحة الأساسية ، ونوه بها في القرآن ، ويكاد القرآن يقتصر عليها ، فقال مخاطباً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها [1] » وقال مقارناً بين الربا والزكاة ، « وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون [2] » وقد أخرج أبو داود عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، قال : ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب ما بقي من أموالكم » .

وتلي هذه المصلحة الأساسية مصلحة الجماعة والمجتمع ، وهي كفالة المجتمع الكفالة اللازمة الضرورية ، وسد حاجات الفقراء الطبعية البدائية ، وتهيئة كل

---

(١) سورة التوبة – ١٠٣ .

(٢) سورة الروم – ٣٩ .

عضو من أعضاء المجتمع أسباب الحياة الشريفة التي يستطيع بها القيام بحقوق الله وحقوق النفس ، والوصول الى الكمال المطلوب ، والغاية المطلوبة من كل فرد مسلم .

وقد كان العلماء الذين كانت دراستهم للإسلام والكتاب والسنة ، دراسة أصيلة عميقة ، ولم يعرفوا إلا مدرسة النبوة التي يتتلمذون عليها ، ويتخرجون فيها ، والذين أتوا البيوت من أبوابها في فهم الإسلام وفقه الكتاب والسنة ، يراعون الترتيب بين هذه المصالح ، وينزلون كل واحدة منها منزلتها التي عيّنها الكتاب والسنة ، وفهمها الصحابة رضي الله عنهم وتلقّاها المسلمون جيلاً بعد جيل ، وهنا ننقل نماذج من ذلك لبعض كبار علماء الاسلام :

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، وهو يبحث في مصالح الزكاة الرئيسية ، وحكمة التشريع فيها :

« واعلم أن عمدة ما روعي في الزكاة مصلحتان ، مصلحة ترجع إلى تهذيب النفس ، وهي أنّها أحضرت الشح ، والشح أقبح الأخلاق ، ضار بها في المعاد ، ومن كان شحيحاً ، فإنه إذا مات بقي قلبه متعلقاً بالمال ، وعذّب بذلك ، ومن تمرّن بالزكاة ، وأزال الشح من نفسه ، كان ذلك نافعاً له .

وأنفع الاخلاق في المعاد بعد الإخبات لله تعالى ، هو سخاوة النفس ، فكما أن الإخبات يعدّ للنفس هيئة التطلع إلى الجبروت ، فكذلك السخاوة تعدّ لها البراءة عن الهيئات الخسيسة الدنيوية ، وذلك لأن أصل السخاوة قهر الملكية البهيمية ، وأن تكون الملكية هي الغالبة ، وتكون البهيمية منصبغة بصبغها ، آخذة حكمها ، ومن المنبهات عليها بذل المال مع الحاجة اليه ، والعفو عمن ظلم ، والصبر على الشدائد في الكريهات ، بأن يهوّن عليه ألم الدنيا لإيقانه بالآخرة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بكل ذلك ، وضبط أعظمها ، وهو بذل المال بحدود ، وقرنت بالصلاة والإيمان في مواضع كثيرة من القرآن ، وقال تعالى

عن أهل النار: « قالوا لم نك من المصلّين ، ولم نكُ نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين [1] .

ومصلحة ترجع إلى المدينة ، وهي أنها تجمع لا محالة الضعفاء وذوي الحاجة، وتلك الحوادث تغـدو على قوم ، وتروح على آخرين ، فلو لم تكن السنة بينهم مواساة الفقراء وأهل الحاجات لهلكوا وماتوا جوعـاً ، وأيضاً فنظام المدينة يتوقف على مال ، يكون به قوام معيشة الحفظة الذابين عنها، والمدّبرين السائسين لها ، ولما كانوا عاملين للمدينة عملاً نافعاً، مشغولين به عن اكتساب كفافهم، وجب أن يكون قوام معيشتهم عليها . والانفاقات المشتركة ، لا تسهل على البعض ، أو لا يقدر عليها البعض ، فوجب أن تكون جباية الأموال من الرعية سنة .

ولما لم يكن أسهل ولا أوفق بالمصلحة من أن تجعل إحدى المصلحتين مضمومة بالأخرى ، أدخل الشرع إحداهما في الأخرى [2] » .

ويقول العلامة بحر العلوم اللكهنوي [3] :

« إن الزكاة ليست غرامة ، بل عبادة خالصة لله تعالى كسائر العبادات »

« لا بد في أداء الزكاة من النية ، لأن الزكاة عبادة عظمى ، أحد أركان الإسلام كالصلاة ، لا يقصد منها إلا الثواب ، فلا بد من النية ، وإن أدى بلا نية لا يتأدى الزكاة كالصلاة ،لأن الصلاة تلغو بلا نية، بخلاف الزكاة من دون النية، فإنها تصير هبة ، وينال ثواب الهبة ، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً »[4]

---

(١) سورة المدثر ٧٣ - ٧٥ .
(٢) حجة الله البالغة - جـ٢ ص ٢٩ - ٣٠ .
(٣) هو العلامة عبد العلي محمد ابن العلامة نظام الدين السهالوي اللكهنوي، كان إماماً جوالاً في الأصول والمنطق . ومن أشهر مؤلفاته (فواتح الرحموت ، شرح مسلم الثبوت) ، توفي سنة ١٢٢٥ هـ .
(٤) رسائل الاركان - ص ١٦٣ .

سماتُ « الزكاة » البارزة :

وللزكاة المشروعة في الإسلام سمات تميزها عن أنواع الجبايات والإتاوات التي تفرضها الحكومات أو المجتمعات ، أو تُسن في القوانين الوضعية البشرية ، وتجعل لها هذه السمات طابعاً خاصاً ، وطبيعة خاصة ، وتضفي عليها قدساً دينياً ، وتجعل لها تأثيراً في الحيــاة والأخلاق ، وفي الصلة بين العبد وربه مما لا يوجد « ولا يمكن أن يُوجد » في الجبايات وأنواع الضرائب والإتاوات ، مهما بلغت من العدل والنزاهة ، والخفة والضآلة .

التبشير والانذار :

فمن أبرز هذه السمات ، ومن اعمقها في التأثير ما يقترن بهذه الفريضة ، ويرافقها من روح الإيمان والإحتساب[١] ، وهي الروح التي تتجرد منها الضرائب الرسمية ، والجبايات القانونية بطبيعة الحال ، بل بالعكس من ذلك ترافق هذه الأخيرة روح المقت والسآمــة والسخط ، والاستثقال والإستكثار ، فإن دافع هذه الضرائب لا يعتقد أنها مشروعة من الله ، ولا يرجو عليها أجراً وثوابا ، بل يعتقد في أكثر الأحيان أن مصدرها تشريــع أفراد مثله ، أو أخس منــه ، وتُنفق في كثير من الأحيان في الأهواء والشهوات ، وفي المحافظة على السلطات ، أو لخدمة أشخاص معدودين ، أو أحزاب محدودة ، ثم لا يُرافق هذه الأحكام والتشريعات شيء من الترغيب والترهيب الدينيين ، بل يتبعها تهديدات وغرامات زمنية ، أو مناشير ومراسيم قاسية جافة ، تزيد دافعهــا كراهة وسخطاً ، وتذمراً ومقتاً .

---

(١) سبق شرحها في موضوع الصلاة ، راجع بحث « التطهر وما يورثه من اهتمام »

ولهذه الحكمة البالغة التي لا يقدر عليها إلا العلي الحكيم ، جاءت الزكاة في القرآن والحديث ، وفي التعليمات النبوية مقرونة بالفضائل ، وما لها من نتائج في الدنيا والآخرة ، وما وعد الله لفاعلها من الأجر والثواب ، والنمو والبركة في المال ، والعقاب الأليم لمن امتنع عنها ، ومحق ماله .

فيقول الله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[1] » ويقول : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[2] ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[3] » ويقول « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له ، وله أجر كريم[4] » ويقول « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسنا ، يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم[5] » ويقول : وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون[6] » والآيات في ذلك كثيرة .

وكذلك تبع هذا التبشير الذي هي حاجة الإنسانية ومقتضى الطبيعة البشرية ، إنذار وتخويف على اكتناز الأموال ، وحيازتها من الفقراء وذوي الحاجات ، والإمتناع من أداء حق الله وحق الفقراء في هذه الاموال التي تفيض

---

(١) سورة البقرة ٢٦١ - ٢٦٢ .
(٢) سورة البقرة ٢٧٤ .
(٣) سورة البقرة ٢٧٧ .
(٤) سورة الحديد ١١ .
(٥) سورة الحديد ١٨ .
(٦) سورة الروم ٣٩ .

عن الحاجة وتتكدس عند أصحابها ، تسلية بها ، وتطاولاً وشحاً وحرصاً ، فقال : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون[1] » .

وعلى هذا النسق الحكيم جرى لسان النبوة الأخيرة ، ففاض الحديث النبوي ببشارات ووعود كريمة على أداء الزكاة ، وآثارها الطيبة في المال والنفس ، وفي الدنيا والآخرة .

فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « ما تصدق أحد بصدقة من طيّب – ولا يقبل الله الا الطيّب – إلا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي احدكم فلوه أو فصيله[2] وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل في فلاة من الأرض ، فسمع صوتا في سحابة . اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة ، فإذا شرجة من تلك الشراج ، وقد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقة يحوّل الماء بمسحاته ، فقال : يا عبد الله . ما اسمك ؟ قال : فلان ! للاسم الذي سمع في السحابة . فقال : يا عبد الله . لِمَ سألتني عن اسمي ؟ قال : سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه . يقول : اسق حديقة فلان . باسمك . فما تصنع فيها ؟ قال : أما اذا قلت هذا فإني انظر الى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وأرد فيه ثلثه[3] » وقال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما نقص مال من صدقة ، أو قال ، ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ،

---

(١) سورة التوبة ٣٤ – ٣٥ .

(٢) الستة الا ابا داود .

(٣) لمسلم .

وما تواضع عبدٌ لله إلا رفعه الله [1] وعنه ، رفعه ، قال : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما : « اللهمّ اعط منفقاً خلفا » ويقول الآخر : «اللهمّ اعط ممسكا تلفا [2]» ومنها ، ماروت عائشة أم المؤمنين، قالت: « إنهم ذبحوا شاة ، فقال النبي ﷺ ما بقي منها ؟ قالت : ما بقي منها الا كتفها قال : بقي كلها ، الا كتفها »[3] .

وكذلك انذر الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم مانعي الزكاة،ومن لايؤدي حقّ الله والفقراء في ماله ، بالعقاب الشديد في الآخرة ، وبالنتيجة الوخيمة في الدنيا ، فقد روى ابو هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثّل له ماله يوم القيامة شجاعاً اقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ، يعني شدقيه ، ثم يقول : انا مالك ، انا مالك ، انا كنزك ، ثم تلا « ولا يحسبنّ الذين يبخلون الآية »[4]وعنه انه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.إذا اتخذ الفيء دولاً ، والأمانــة مغنما ، والزكاة مغرما ، وتعلم لغير الدين ، واطاع الرجل امرأته ، وعقّ امّه ، وادنى صديقه ، وأقصى اباه ، وظهرت الأصوات في المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم ارذلهم، وأُكرم الرجل مخافة شرّه، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ، ولعن آخر هذه الأمة اوّلها . فارتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وزلزلة ، وخسفا ، ومسخــا ، ، وقذفا . وآيات تتابــع كنظـام ، قطع سلكه فتتابع [5] .

وقدكانت نتيجة هذه الفضائل ، وما جاء في القرآن والحديث في الترغيب

---

(١) لمسلم والترمذي والموطأ .

(٢) للشيخين .

(٣) للترمذي .

(٤) رواه البخاري .

(٥) رواه الترمذي .

والترهيب ، أن المسلمين كانوا رقباء انفسهم ، وكانوا سعاة بيت المال المتطوّعين، ووكلاء فقراء المسلمين ، في اموالهم ، وحرثهم ، ونسلهم، فكانوا يبحثون عن المصارف ، ومستحقي الزكاة بحثاً امينا دقيقاً ، ويتحرّون مواضعها، ويحرصون على اداء ما يجب عليهم من حقّ الله ، فلا يطيب لهم عيش ، ولا يهنأ لهم طعام حتى يتخلّوا عن ذلك ، ومن تتبّع حيــاة الصحابة رضي الله عنهم ، ودرس سيرتهم وسيرة التابعين لهم بإحسان ، رأى مواقفهم في ذلك ، وعرف ما بلغ الإيمانُ وأخبار الترغيب والترهيب من نفوسهم ، حتى اصبحت بذلك الزكاة كالصلاة ، التي يحرص على ادائها المسلم ، ويحافظ عليها بدقّة ، ولا يقرُّ له قرار حتى يقوم بها .

وقد فطن لأهميّة هذه الفضائل ، وما لها من فضل في إثارة الشعور الديني، علماء الإسلام ، فحرصوا على إيراد هذه الفضائل والترغيب والترهيب في كتبهم، وأشادوا بها في مواعظهم وخطبهم ، وكان لها التأثير المطلوب في المجتمع الإسلامي ، فلولا هي لتعطّل اداء الزكاة ، ولهجر المسلمون القيام بها بأنفسهم، بعد ما تركت الحكومات الإسلامية المطالبة بها ، والإشراف علـ[illegible]

وقد أحسن شيخ الإسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي الإشارة إلى اهميّة هذه الفضائل ومكانتها في التشريع الإسلامي . فقال :

« ثم مسّت الحاجة الى بيان فضائل الإنفاق والترغيب فيه ، ليكون برغبة وسخاوة نفس ، وهي روح الزكاة ، وبها قوام المصلحة الراجعة الى تهذيب النفس ، والى بيان مساوىء الإمساك والتزهيد فيه ، إذ الشح هو مبدأ تضرر مانع الزكاة ، وذلك إما في الدنيا ، وهو قول الملك : اللهم اعط منفقاً خلفا ، والآخر : اللهمّ اعط ممسكاً تلفا ، قوله صلى الله عليه وسلم ، اتقوا الشحّ ، فإن الشحّ اهلك من قبلكم » الحديث، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الصدقة لتطفىء غضب الرب » وقوله صلى الله عليه وسلم ، « إن الصدقة تطفىء الخطيئة ، كما

يطفىء الماء النار » وقوله صلى الله عليه وسلم « فإن الله يتقبّلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها » الحديث [1]

تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم :

والسمة الثانية البارزة التي تميّز الزكاة عن سائر الجبايات والضرائب ، التي كانت تفرض في زمن الملوك والسلاطين، وفي عهد الحكومات الشخصيّة ،او في عصرنا الحاضر في الجمهوريات وحكومات الشعوب ، وتجعلها تختلف عنها اختلافاً واضحاً في البداية والنهاية ، وفي النتائج والآثار ، هي وضعها الشرعي الذي قرّره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بلفظه المعجز الحكيم ، وتعبيره النبوي الدقيق الذي يعدّ من جوامع الكلم . فقال : « تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم »، وذلك وضع الزكاة الأصيل الشرعي الذي كانت عليه، ويجب أن تكون عليه ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي تؤخذ من الأغنياء الذين يستوفون شروط وجوبها ، ويملكون النصاب المعيّن المنصوص ، وتصرف في مصارف عيّنها الله تعالى في القرآن ، ولم يكلها إلى رأي مشترع أو مقنّن ، أو حاكم أو عالم ، وهو قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء » الآية ، وتفضّل الشريعة ، وترجّح الأحاديث النبويّة أن تصرف هذه الصدقات على فقراء البلد الذي تجبى فيه .

وكذلك كان نظام الزكاة حتى في الحكومات التي لم تكن دقيقة كلّ الدقة، ولا أمينة كلّ الأمانة في تطبيق الأحكام الشرعية ، وتحقيق المثل الإسلامية العليا في الحكم والسياسة . فلم يحرم الفقراء والمساكين حقّهم في ظلّ هذه

---

(١) حجة الله البالغة ج ٢ ص ٣٠ - ٣١ .

الحكومات ، ولم تتعطل حدود الله كل التعطل (١)، في هذه الحكومات ، التي يبالغ كثير من المؤرخين المغرضين ، والباحثين المستشرقين في ذمها ، وانحرافها عن تعاليم الإسلام ، بل ثورتها عليها ، كما يقولون .

وبالعكس من ذلك، الجبايات والضرائب والمكوس، التي تفرضها الحكومات اليوم ، فهي صورة مقلوبة معكوسة للزكاة ، فهذه الضرائب — العادلة منها والمجحفة ، والصغيرة منها والضخمة ـ تؤخذ من الفقراء وأوساط الناس ، وترد على الرؤساء والأغنياء والأقوياء ، إنها تجتمع بعرق جبين الفلاحين ، والعملة والصناعين ، والتجار الذين يشتغلون ليلَ نهارَ في متاجرهم ودكاكينهم، وتصرف هذه الأموال بسخاء بل بقسوةٍ نادرةٍ ، ووقاحة زائدةٍ في استقبال رؤساء الجمهوريات الزائرين للبلاد ، وفي ولائمهم التي تشبه ولائم « الف ليلة وليلة» الخيالية الأسطورية وفي المهرجانات التي يُحتفل بها بين حين وحين، وفي مآدب السفارات في البلاد الأجنبية التي تجري فيه الخمر جري الأنهار ، وفي دعايات الحكومة التي تستنفدُ موارد الشعب وتمتصُّ دماءه ، وتحول بين رجل الشعب وقوته ، وفي جعالات الصحفيين الأجانب ، ووكالات الأنباء ، ورواتب المذيعين البارعين الذين حذقوا فن تلفيق الأخبار ، واتهام الأبرياء ، وتشريح الأحياء من المنافسين والأعداء وتكاليف الصحف التي تُعتبر أهمّ وأنفع من أقوى الجيوش ، وأحدث الأسلحة ، فما من حكومة شعبيّة ديمقراطيّة ، ولا من حكومة شيوعيّة أو اشتراكية، إلاّ وهي تمتصّ دم الشعب كالاسفنج، وتصبّه في بحر الدعاية والرشاء السياسي، والتلبيس الصحفي، ومحاكمة المعارضين، من المجرمين وغير المجرمين ، فلا أدقّ تصويراً ولا أصدق تعبيراً في وصف هذه الضرائب ، التي تقوم عليها الحكومات اليوم ، من قولنا إنها تؤخذ من فقرائهم وتردُّ على

---

(١) كتاب الخراج لقاضي القضاة ، الامام ابي يوسف ومقدمته بصفة خاصة برهان ساطع على ما كان من اهتمام في اوج الدولة العباسية بأحكام الخراج والزكاة والصدقات فإنه كتب هذا الكتاب العظيم باقتراح من امير المؤمنين « هارون الرشيد » .

أغنيائهم ». لذا كانت الزكاة الإسلامية التي فرضها الله على عباده الموسرين لطفاً ورحمة بالأمة ، ونتيجة لنعمة النبوة التي لا نعمة فوقها «ضريبية اذا كان لا بد من إطلاق هذه الكلمة أقل الضرائب مقداراً وأخفها مؤنة ، وأعظمها يمناً وبركة ، وأكثرها فائدة ، لأنها « تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ».

روح التقوى والتواضع والاخلاص :

والسمة الثالثة المميزة للزكاة ، هي روح الإخلاص ، والتواضع والإمتنان (لا المن) والإكرام الذي يجب ان يقترن به أداء الزكاة ، ويتصف بصاحبها وهي الآداب الدقيقة والأخلاق السامية النبيلة ، والروح الدينية التي حث عليها القرآن وأشاد بها ، ووصف كرام القائمين بهذه الفريضة بالتلبس بها ، فتارة نهى المتصدقين وأصحاب الخير والبر ، عن أن يكدر أعمالهم ، ويقلل من قيمتها المن والأذى ، فقال في الأسلوب القرآني المعجز : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ، يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل ، فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين [١] »

وتارة مدح أصحاب الخير والبر بروح التواضع والإشفاق الذي يسيطر عليهم عند اشتغالهم بهذه الخيرات وتلبسهم بها ، فقال : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم

---

(١) سورة البقرة ٢٦٢ - ٢٦٤ .

وجلة أنهم إلى ربهم راجعون (١) » وقال : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون (٢) » ، وتارة مدح القائمين بهذه المبرّات. وأعمال المواساة بالإخلاص التـــام ، والتجرد عن الأغراض المادية أو المعنوية ، فقال : « ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيما وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً ، إنّا نخـاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً (٣) » .

وكذلك حثّ على أن يكون حظ الله وحظ عباده الفقراء من المال الطيّب الكريم الذي ترغب فيه النفس ، ويكرم به الرجل لا من المرذول الرديء الذي يُزهد فيه ويُستهان بقيمته ، فقال : « يا أيهـا الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنـا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد (٤) » .

وفي الحديث : « أن عائشة أرادت أن تتصدّق بلحم منتن ، فقال لها النبي ﷺ أتتصدقين بما لا تأكلين ؟ ! (٥) » .

وبالعكس من ذلك الجبايات التي تجبيها الحكومات – عدلاً او ظلماً – تتجرد من هذا الروح الخلقي والتعبدي ، وعن تواضع النفس ، والخوف على العمل من الرياء وعدم الإخلاص ، وتحرّي المال الطاهر الطيّب الأثير الكريم ، ففي غالب الأحيان تقترن هذه الجبايات بروح المقت والضجر والإحتيال القانوني ، وتمتـد

---

(١) سورة المؤمنون ٦٠ .
(٢) سورة المائدة ٥٥ . قال العلامة ابو حيان الاندلسي في « بحر المحيط » « والركوع هنا ظاهره الخضوع لا الهيئة التي في الصلاة » ج ٣ ص ٥١٤ .
(٣) سورة الدهر ٨ – ١٠ .
(٤) سورة البقرة ٢٦٧ .
(٥) رواه أحمد .

المال الذي جاء من طرق غير شرعية ، وتلك طبيعة الأحكام والقوانين العلمانية الزمنية ، التي لا تسندها عقيدة ، ولا فكرة دينية ، أو قدسي روحي.

الفرق بين الزكاة والربا :

إن الزكاة والربا يتناقضان على خط مستقيم ، فهما من الأضداد المعنوية ، والمتناقضات الخلقية ، التي تفترق من بدايتها ، ولا تلتقي إلى النهاية ، فدوافع الواحد منها تناقض دوافع الآخر ، وكذلك الأهداف والغايات ، وكذلك الآثار في النفس ، وفي الفرد والجماعة ، وفي المجتمع الإنساني بصفة عامة .

فروح الزكاة خشية الله وطاعته ، وابتغاء رضوانه ، والمواساة والعطف على الفقراء والرثاء لأحوالهم ورقة القلب ، والإخلاص والتجرد عن الأغراض ، حين كان روح الربا معصية الله ، ومبارزته بالحرب ، وقسوة القلب ، والشح المفرط ، والنهامة المسرفة للمال ، وتضخمه وتناسله [1] من كل طريق ، وانتهاز فرصة حاجة الفقير الملحة ، واستغلال فقره وضعفه .

وحين كانت نتيجة الزكاة ، وأثرها النفسي زيادة الإيمان ، وانشراح القلب ، وطيب النفس والرسوخ في الكرم والنبالة ، والسخاء والسماحة ، كانت نتيجة الربا انقباض النفس ، وقسوة القلب ، وبلادة الروح وشراسة الخلق ، والضراوة باللحم الإنساني وماء الوجه ، وديباجة الحياة الإنسانية ، وانتهاك كرامتها ، والتمتع والإلتذاذ بمواضع الضعف والعجز في المجتمع والحياة .

وحين كانت نتيجة الزكاة فشو روح المواساة والكرم في المجتمع ، وانتشار

---

(١) ذلك لأن مال المرابي يلد المال ، ويبيض ويفرخ من غير مقابل ، من جهد او تجارة ، حتى يكون اضعافاً مضاعفة .

الغنى في أعضائه ، والبركة في الأموال ، والألفـــة في القلوب ، والتحابب في النفوس ، والثقة بين الأفراد ، كانت نتيجة الربا تكدس مال المجتمع ، وحصيلة جهود أعضائه في مكان واحد ، أو في فرد واحد ، أو في أفراد في أقل عدد ممكن ، فكان المرابي في هذا المجتمع ، هو الحوض الصغير الذي تنتهي إليه جميع السواقي في هذا البلد ، ويبقى من غير ماء ، أو كجبل المغناطيس الذي جاءت قصته في رحلات سندباد البحري في « ألف ليلة وليلة » ، الجبل الذي يقال أن سفينة رماها الطوفان إليه ، فجعل الربان يبكي وينوح ، فسئل عن السبب ، فقال : إبتلانا الله بجبل المغناطيس الواقع في هـــذا البحر . وإنه سيجر جميع المسامير الحديدية ، فتتحطم السفينة وتتناثر ألواحها وأجزاؤها ، فيلقمها البحر . وكذلك كان ، فالمرابي ، أو جماعة المرابين في بلد يملكون ذلك المغناطيس والمال الذي يجتذبون به جميع المسامير والروابط التي تربط أجزاء الحياة وقوائمهـا ، بعضها ببعض ، فتتناثر هذه الأجزاء ، وتتفكك هذه العرى والروابط ، وينزف جسم المجتمع دمه القاني الأصيل ، ويُصاب بالسل الخُلقي والإقتصـادي ، فإذا عاش ، عاش مسلولاً مشلولاً ، وإذا مات ، مات حزيناً سليباً .

وكذلك نتيجة الربا : التباغض بين الأفراد ، وزوال الثقة المتبادلة في المجتمع ، وفشو روح السخط والتشاؤم ، والشماتـة بين المتعاملين بالربا ، وبين الفقراء والأغنياء ، ووجود طبقتين متميزتين تمام التميز ، كانت إحداهما من جنس البشر ، والأخرى من الحيوانات والدواجن ، وهما طبقة الأثرياء ثراء فاحشاً ، وطبقة الفقراء فقراً مدقعاً .

لذلك يذمُّ القرآن الربا ذماً شديداً ، ويشنّع عليه ويقبّح تصويره ، بمقدار ما يمدح الزكاة ويحث عليها ، بل قد يكون تشنيعـه على الربا ، وذمّه له أقوى وأعنف ، من مدحه للزكاة والصـدقات ، وذلك أسلوب القرآن الحكيم في العقائد المنحرفة ، والأخلاق الذميمة ، والأعمال القبيحة . فكانت صيغته لذمّ الربا ، وعبارته فيه من أشد أساليب الذم والإنكار ، وأفظعها ، الأسلوب الذي

تقشعر له الأبدان ، وتنخلع منه القلوب ، وهو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون »[1] .

وصوّر آكل الربا تصويراً دقيقاً يثير المقت والكراهة في نفس القارىء المؤمن ، فيقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحلّ الله البيع وحرّم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[2] .

وقد قارن القرآن بين الربا والصدقات ، وآثارهما ونتائجهما ، في أكثر من موضع ، فقال في إيجاز ، هو الإعجاز ، وفي لفظ يحتاج تفسيره إلى مجلد ضخم ، وإلى استعراض تاريخ علم الإقتصاد ، وما آل إليه أمر البلاد والمجتمعات التي عاملت بالربا فقال : « يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفّار أثيم »[3] ، وقال : « وما آتيتم من رباً ليربوا في اموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون »[4] .

وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم – وكان خُلقه القرآن – فمدح الزكاة والصدقات ، وذكر آثارها ونتائجها في المال وفي جماعة المسلمين ، وقد مرّت الاحاديث التي وردت في البركة في المال الذي يتصدق منه ، وإعانة العبد المتصدق من الله ، وبالعكس من ذلك ، أنذر على منع الزكاة بالعقوبة العاجلة في الدنيا ، فقد روى بريدة عنه ، قال : « ما منع قوم الزكاة الا ابتلاهم الله

---

(١) سورة البقرة ٢٧٨ ٢٧٩
(٢) سورة البقرة ٢٧٥
(٣) سورة البقرة ٢٧٦
(٤) سورة الروم ٣٩

بالسنين (١) » .

وهكذا أكد على الربا والمطالبة به بالعقوبات في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، فقال : « ما من قوم يظهر فيهم الربا الا أخذوا بالسنة ، ما من قوم يظهر فيهم الرشا ، إلا أخذوا بالرعب (٢) » . وقال « لعن الله آكل الربا ، وموكله وكاتبه ، ومانع الصدقة (٣) » وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال : وقال رسول الله ﷺ أتيت ليلة أسري بي على قوم ، بطونهم كالبيوت ، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، قلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا (٤) وقال : « اذا اراد الله بقرية هلاكاً أظهر فيهم الربا (٥) » .

ومن اطلع على تاريخ المجتمع الإسلامي ، ودرسه من الناحية الخلقية ، ومن ناحية تطبيقه للأحكام الشرعية ، والأوامر الالهية ، وما جر ذلك عليه من يمن وبركة ، وأمن وسلامة ، وسعادة ورخاء . وإخلاله بالشريعة ، وتعطيله الحدود والفرائض ، وما جر ذلك عليه من بلاء وشقاء ، ومن ضيق وضنك ، صدق هذه الأخبار النبوية الصادقة ، وهذه الأحاديث الواردة ، وصدق الله العظيم : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٦) » ، وقال : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى (٧) » .

---

(١) للأوسط .
(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، والنسائي في السنن .
(٣) رواه الحاكم في المستدرك ، والنسائي في السنن .
(٤) رواه احمد وابن ماجه .
(٥) كنز العمال مروياً عن ابي هريره رضي الله عنه ج٢ ص ٢١٣ ،
(٦) سورة النحل ٩٧ .
(٧) سوره طه ١٢٤ .

الاصلاحات التي قام بها الاسلام في تشريع الزكاة :

قام الإسلام بدوره الإصلاحي ، في قانون الزكاة وأحكامها، كما قام بدوره الإصلاحي في سائر الأركان ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، وجاءت شريعة الزكاة وأحكامها كافلة بجميع المصالح الفرديّة والاجتماعيّة ، مبرّأة من كل تحريف وفساد ، أدخلتها الأمم السابقة ، وتلوّثت بها الأديان المحرّفة .

الصدقات في الديانات الأخرى :

إن الذي اعتاد المنهج العلمي التشريعي ، الذي يشتمل على حدود وقوانين وأحكام فقهيّة ، وتفاصيل قانونية في الشريعة الإسلامية بما فيها من كتاب وسنّة وكتب فقهيّة ، يفاجأ بحيرة ، وشعور بالإخفاق ، إذا بحث عن مثل هذا القانون المعيّن المحدود ، واضح المعالم ، معلوم الحدود ، لفريضة الزكاة ، أو الصدقات وفي أسفار الديانة الهندكية وفي كتب العهد القديم أو العهد الجديد ، أو في تلمود ، ويكتشف أنّها مقتصرة على مواد مبعثرة ، وأحكام هي أشبه بالتوجيهات الخُلقيّة أو الروحيّة ، أو بوصايا عامة ، منها بأحكام فقهيّة ، أو تفاصيل قانونية ، فلا يطلع بعد البحث الدقيق على مباحث أساسيّة تعطي لهذه الفريضة صورة فقهيّة قانونية .

فمثلاً ، إذا حاول أن يعرف على من تجب الزكاة وفيما تجب ؟ وما هو نصابها؟ وما هو القدر الواجب ، وما هي مصارفها بالضبط ، أو من يستحقها وتدفع إليه ؟ اسئلة تكفّلت كتب السنّة ، والفقه في الإسلام بالإجابة عنها ، وتكوّنت في تفصيلها هذه المكتبة الفقهيّة الهائلة في الإسلام ، لم يجد جواباً شافياً ، ولا يرجع الباحث في المقال الخاص بالزكاة أو الصدقات Charity في دائرة معارف الديانات والأخلاق بطائل كبير في هذا الموضوع رغم دراسة الكاتبين المختصين له دراسة واسعة ، وتتبعهم للمراجع القديمة تتبّعاً دقيقاً .

ويواجه الباحث المسلم هذا الوضع الغريب المختلف عن الوضع الإسلامي الفقهي في كل باب من أبواب الفقه في كل ديانة قديمة تقريبا ، فتصعب الدراسة المقارنة

للإسلام والديانات القديمة في العبادات والمعاملات ، وأبواب الفقه والأحكام .

« الصدقات » في الديانة الهندوكية :

نقدم أولاً ملخص المقال الذي كتبه الأستاذ (A. S. GEDEN) في «دائرة معارف الأخلاق والديانات» حول فكرة الصدقات في الديانة الهندوكية ، وأنواعها وطرقها ووضعها في مختلف أدوار التاريخ ، إنها محاولة دراسية موضوعية إلى حد كبير ، اكتفى فيها صاحب المقال بعرض المبادىء والنظريات فحسب ، ولم يتعرض للنقد والمقارنة والاستنتاج . إنه يقول :

« الصدقة واجب ديني عند الهنادك ، وهي تختلف عن الصدقات عند الغربيين في المبدأ والتطبيق لعدة اعتبارات وجيهة ، إن الصدقة بدافع البر والمؤاساة والرفق والعطف ، لاتوجد في الديانة الهندوكية ، ولكن مع ذلك إن تقاليد الأريحية والسخاء ، واشتراكية العقارات والأموال ، وسد حاجات الفقراء والمساكين عامة في هذه البلاد لا يدانيها أي بلد آخر في هذا المضمار ، وذلك طبيعي ، فإن الجماعات التي تجول في طول البلاد وعرضها عالة على المتصدقين لا يمكنها أن تستمر في عملها الدائب ، إلا إذا كانت على ثقة بأنها ستنال نصيبها من الرزق ، وذلك لا يتيسر طبعاً إلا في مكان عمّت فيه هذه الفكرة ، ونالت رواجاً وتطبيقاً في المجتمع ، لقد قال « منّو » : إن السخاء والعطاء واجب على الجميع في هذا العهد ، ولكنهم حصروا الذين ينالون الصدقات والإعانات في طبقة خاصة هي طبقة البراهمة ، وبعض طوائف النسّاك المعروفة الأخرى ، فهم وحدهم يستحقون المنح والعطاء والصدقة (DAKSHINA) دون طوائف المجتمع الأخرى ، أما جزاء هذه الصدقة وثوابها فهو على مقدارها وكميتها .

وهكذا حملت الصدقات في الهند هدفاً دينياً ، وهو الجزاء الحسن في الحياة الثانية[1] والحصول على المنافع الذاتية ، إن التعليمات الدينية للهنادك ، وكتبهم

(١) لا ينبغي أن ينسى القارىء أن الديانة الهندوكية تدين بالتناسخ والإنتقال المستمر من حياة إلى حياة ، بحسب الأعمال والأخلاق في الحياة السابقة ،وقد يكون ذلك بالظهور في صور حيوانات مختلفة بحسب تلك الأعمال والأخلاق .

الدينية لا تعني كثيراً بالسخـــاء الخاص الذي يتجرَّد عن كل غرض وفائدة ، ولكن أكثر الهنادك تجاوزوا عن ديانتهم في هذا المجال . أما الفكرة الغربية للصدقة والبر ، فإنها لا توجد هنا إلا في بعض الطوائف من النسّاك الذين يبذلون بعض الوقت في إغاثة الملهوفين وإسداء الخير ، ولا ريب أن هذه الأعمال لا تخلو من تأثير تعاليم بوذا الرقيقة الأريحية ، إن سدنة المعابد الكبار يقيمون مآدب غنية في الأعياد الدينية الخاصة للزائرين ، والضيوف ، غير مبـــالين بالنفقات الباهظة ، ولكن الفكرة الأساسية في كل هذه الأمور والتصرفات هندية ، وليست غربية أو مسيحية ، الحق أنّ الكهنة والنسّاك لا بدّ أن يعاهدوا على السخاء والعطاء ، ويجب عليهم أن يتصدّقوا بكتبهم إذا لم يجدوا شيئاً آخر ، ولكن الأمر بالعكس عملياً ، فإنهم يأخذون في معظم الأحوال ولا يعطون ، أما في الجماهير وغير البراهمة ، فإنهم يملأون هذا الفراغ بتقاليد الأسر المشتركة ، حيث تلزم فيها الصدقات في عدة مناسبات ، وتكون الجماعة مسئولة عن الفرد الجائع الملهوف .

وكانت فكرة الصدقات تحتلّ مكانة محترمة ملحوظة في عقول الشعراء في زمن الأدعية المقدسة « لويدا » فيتغنى الشعراء بأجر المتصدّق وعلو منزلتـه ، ويلهجون بذلك ، وتحتل الصدقات المكانة الأولى في الحقوق والواجبـــات التي تعود على أصحاب الأسر ، في الأدب الويدي ، وفي صحف الأزمنة الأخرى ، وكتبها الدينية ، ودقّقت في تحديد الطبقات التي تستحق هذه الصدقات ، وإن كانت الآراء قد اختلفت في هذا التحديد والوصف ، إنّ «منّو» وضع في هذا الباب أسساً ومبادىء وأحكاماً واضحة تأثرت بها التقاليد الهندوكية (في نطاق الصدقات) تأثراً بالغاً .

وعلاوة على تلك النواحي التي تأثرت فيها التقاليد الهندوكية بالتقـــاليد الغربية ، فإنها اعتبرت هذه الصدقات (DHARMASTHAM) يعني وسائل الأجر والثواب ، وقد خصّ SKUNDPURNA باباً كاملاً لمبادىء الصدقة ،

خصّ HEMADRI النصف الأخير من كتابه لهذه القضية وحدها .

وهكذا عاش عامة النسّاك الهندوكيين عالة على الصدقات ، إنّ أمثال هذه الجماعات تحيا حياة بؤس وضيق وجهاد في الغرب ، ولكن بالعكس إن النسّاك الهنديين لا يكسبون عيشهم بكدّ اليمين وعرق الجبين ، ولا يقدرون على ذلك ، إن نظام التسوّل الواسع النطاق الذي وصفناه ، توارثته الأجيال في الهند منذ زمن عريق في القِدم ، ولا شك في أن عبء هذا الجيش من المتجولين والمتسولين كان ثقيلاً على الطبقات الكادحة الفقيرة في المجتمع في جميع الأحوال .

إنّ الديانة البوذية ورثت فكرة الصدقة من البرهمية ، إنها طوّرت فكرة الصدقة للذين يهبون حياتهم للدّين ، ووسعت أسسها ومبادءها ، إنّ SAK YAMUNI (يعني بوذا) نفسه كان في « حياته الأولى « DAM ASURA يعني بطل الجود .) والسخاء ، ولذلك لم تكن هذه التقاليد والعادات غريبة على الكيان الخلقي والاجتماعي في الديانة البوذية ، أما الديانة الجينية فإنها لم تعترف بهذا الحق المبالغ فيه للبراهمة ، ولكنها ألقت مسئولية كل فرد من النسّاك على الشعب ، إنّ أي واحدة منهما (أعني الجينية والبوذية) لم تُشرّع مبدءاً جديداً ، بل انهما اعترفتا بتقليد الصدقة والبر للذين يعلّمون مبادىء الدين ، وتمسّكتا به عبر القرون .

وكانت هذه العطايا والمنح تنقسم إلى نوعين : الأول وقف العقارات «الأبنية والبيوت » وغلات القرى ، أو دفع العُشر من دخل الفرد في الصدقة ، وكان البراهمة - علاوة على ذلك - ينالون الشيء الكثير من الصدقات في الأعياد والمهرجانات الدينية ، والتقاليد الاجتماعية نقوداً وطعاماً ، ويدخل في ذلك ما يأخذه المتسوّلون المتجولون من متاع وأثاث من القرويين الجهلاء بسبب عقائدهم الخرافية التي يدينون بها ، وبما كان يساورهم من خوف ووجل ، إذا منعوا هذه الصدقات ، وردّوا هؤلاء المتسوّلين خائبين محرومين .

وكان عدد الصدقات التي كانت تعتبر أفضل الصدقات MHADAN يتراوح

بين عشرة وستة عشر نوعاً ، أهمها الذهب وتليه الأبنية وغلات القرى ، ونحو ذلك ، وكان أهم نوع من صدقة الذهب الذي يعلوها قيمة وأجراً ما يسمى بـ : TULADAN أو TULAPURSA كان المعطي يزن نفسه بالذهب ، ثم يقسم ذلك الذهب في البراهمة الموجودين ، ويقال أن أميراً هندوكياً في «قنوج» تصدق مئة مرة بهذه الصفة ، وذلك في القرن الثاني عشر الميلادي ، وقدم هذا النموذج وزير في ولاية صغيرة في «بهار» تسمى (MITAHALA) في القرن الرابع عشر ، وقد ذكر الرحالة الصيني المعروف بـ هونن سوانج HIVEN TSANG أخباراً عجيبة مدهشة الملك قنوج (SILADITYA) فقد كان يتصدق بكل ما كان يملكه من أسباب ومتاع بعد كل خمس سنوات ، وكانوا يستبدلون الفضة بالذهب أحياناً وكانت البقرة المصنوعة بالذهب ، أو زهرة « كنول » ظاهرة عامة في التقليد الذي يسمّى بـ : «الزنّار» . وكانت هذه البقرة تحطم عند نهاية مهرجان خاص بهـــذا التقليد تكسر وتوزّع في البراهمة ، أو توقف على معبد ، وكان الأمراء والأغنياء يهبون أواني الذهب والفضة المستعملة لضيوفهم ، أما الوقف على زوايا البراهمة من محصول الأرض ونحوه ، فإنه من التقاليد القديمة في الهند ، يجب ذكرها في حفريات : أشوكا ، ، ويروى أن هذا الملك منع قسراً عن هذا الإسراف في الصدقات والعطايا في الأيام الأخيرة من حياته ، الذي كاد يودي بنفسه وأسرته .

إنّ هذا النوع من الصدقة على البراهمة وزواياهم ليس شيئاً غير عادي حتى اليوم ، فإطعام البرهمي لا يزال يعتبر براً ، لا سيما إذا كثر عددهم ، وهي ظاهرة توجد إلى حدّ ما في كل تقليد عائلي ، أو مهرجان ولادة أو مأدبة ، أما في الأعياد المشهورة ، فكان يتسع هذا النطاق كثيراً ، حيث يتوافد إليها جماعات كثيرة من الزوّار والنساك ، ويقمن عدة أيام ، ويُستشهد على ذلك بشخصية (USAVADATA) الذي عاش في القرن الأول(كما يقولون) لقد دلّ أثر تاريخي عثر عليـــه في غار قدم أنه كان يفتخر بأنه كان يسدّ حاجات مئة ألف من البراهمة ، ويتصدّق بمئة ألف بقرة ، وست عشرة قرية ، وحدائق ونحو ذلك ،

نحن نجد في العصور القديمة عدداً من الملوك ، يكفلون عدداً من البراهمة زمناً طويلاً أو مدى الحياة ، فكانت جماعات من النساك تنعم وتترفه بالأوقاف والعقارات والأموال ، شأن الزوايا والتكايا في القرون المتوسطة في أوربا ،وقد يدخل معظم إيراد المملكة وأملاكها في حوزة هؤلاء النساك ، وفي ملكهم ، إنّ العادة المتبعة الشائعة في شمال الهند من تقديم مال مقرر أو عشر دخل الفرد إلى جماعات النساك أو «المعلّم» الذي يمتاز في نوع من العلم ، ويتزعم مدرسة فكرية ، قليلة بالنسبة إلى جنوب الهند ، والحق أن سلطان رجال الدين في الشمال ضئيل بالنسبة إلى الجنوب ، فإنهم يحصلون على الأموال بحكم القانون وقوة اليد ، ويستخدمون في ذلك كل طريقة ممكنة ، هؤلاء الزعماء الروحيون ورجال الدين، يتجولون في مدن خاصة ، ويطالبون بهذا المبلغ المقرر لهم المعترف به عند الجميع.

إن الأوقاف التي تُحبس على الأمور الخيرية ، هي التي تَدِرُّ على المؤسسات الدينية في جنوب الهند ، وتقوم بنفقاتها ، وبكفالة النساك والعبّاد المقيمين فيها ، أما في شمال الهند ، فلا يوجد فيه هذا النظام بهذا الشكل الواسع ، والعناية الفائقة .

وكان هناك مبدأ خاص ، وهو أن لا يتصدق الإنسان بكل ما يملك فيصبح عائلاً فقيراً ، وأن لا تتجاوز صدقة البقرة ألف بقرة ، وكانت هناك آداب وأحكام لأنواع أخرى من الصدقة ، وأن لا يقبل أحد تلك الصدقة التي رفضها البرهمي ، وأن لا يتصدق في نفس اليوم الذي قبض فيه ؛ أما مستحقو الصدقات فقد جرى تصنيفهم بحسب استحقاقهم ، منهم من يحرم دفع الصدقات إليه ، ويأثم فاعله ، وكان الواجب على كل هندكي ينتمي إلى أصل شريف أن يهب كل ماله ومتاعه للبراهمة ، إذا قضى مده معينة من حياته العائلية ، ورزق ولداً يبقى به نسله ، وأن يغادر مسكنه ومأويه ويتوجه إلى الغابات ويعيش فيها عيشة VANAPRASTHA ثم يكون ناسكاً يجمع قوته وطعامه بالتكفف، والوقوف على الباب ، هؤلاء النساك لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً ، إنهم يحملون كشكولاً من

نارجيل ، وكوباً من ماء ، وعصاً ، وسبحة طويلة في العنق ، وقد نجد من أفراد الطبقة المثقفة في العصر الحديث ، رجالاً وسّع الله لهم في الرزق ، واتسمت لهم الدنيا ، قد رفضوا أسباب الحياة وزهدوا فيها ، ووهبوا حياتهم الأخيرة للفقر والمراقبة الدينية .

وهنـــاك نوع آخر قديم من الصدقة ، هو تقديم المنح والعطايا لمستشفيات الحيوانات ، إن هذه المؤسسات والمستشفيات قديمة جداً ، في بعض الأماكن ، يعنى فيها بالأبقار المريضة الضعيفة الهزيلة ، وتجد فيها العلف، والماء ، والمأوى ، وذلك شيء يتبرع له الصالحون بكل سخاء ، ويتبرع له المؤمنون المتحمسون يومياً ، وأعتقد أن مقدار هذا النوع من الصدقة كثير جداً في هذه البلاد[1]

إن هذا الاقتباس يدلّ قارىء الكتاب على أن البراهمة كانوا هم المحور الوحيد الذي يدور حوله هذا النظام الكبير للصدقات ، والذي يمتدّ على حقبة طويلة في التاريخ ، ورقعة كبيرة من الأرض ، ويردف البراهمة النسّاك ، وهكذا نشأت في المجتمع الهندوكي - من غير شعور وإدراك - طبقة بقيت عالة في كل شيء على الصدقات والإعانات ، وعاشت غنية بالإستجداء والتكفف ، أما ما جرّ ذلك من قبائح خلقية ، واستغلال وانتهازية ، وتواكل وكسل ، وبطالة ، وإخلاد إلى الراحة ، فهو شيء طبيعي لا يعسر فهمه أو تقديره على الوجه الصحيح .

إن حياة التسوّل هذه لم تكن (ولو قيل أنها من خصائص عصر التدهور) محمودة في هذا المجتمع فحسب ، بل كانت لازمة لها ، وواجبة لتزكية النفس ، ولذلك اعتبروا الإستجداء والتكفف وسيلة فذّة للسمو الروحي ، وصفاء النفس ، وأصبح من واجبات الحياة اليومية لبعض الطبقات ، هذه الطبقة من النسّاك المتكففين (بهوخي) توجد في البلاد التي أغلبيتها من البوذيين ، وفي بورمـــا

Encyclopadia of Religions and Ethics Vol 1. (١)

خاصة تجلب هذه الظاهرة أنظار الأجانب[1] ، وقد أحدث عددهم المتزايد في هـــذه البلاد ، وبطالة جزء كبير من المواطنين بطالة تامة ، وأوضاعهم الخلقية والاجتماعية مشكلات وعقداً في حياة البلاد .

وفي جانب آخر اختص أكبر جزء من هـــذه الصدقات والعطايا بالبقرة فحسب ، من أجل تقديسها ، وعقيدة التناسخ التي لم تزل شعار الديانات الهندكية ، وأنفقت عليها مبالغ باهظة بخست حق ذوي الحاجة من بني آدم ، وأفراد الأسرة البشرية التي كرّمها الله .

ويبدو لنا أنّ هذا النظام وما فيه من التعاليم الدينية ، والتوجيهات ، ينقصه ذلك التنظيم والتحـــديد ، والضبط الذي تتسم به الديانات السامية كلها بوجه التقريب ، فنجد في هـــذا النظام حرية كاملة في الاختيار ، ومرونة مفرطة للأوضاع ، وخضوعاً زائداً الملابسات الزمنية والمحلية ، جعله مختلفاً عن الآخر باختلاف البيئات والأقاليم ، فكأنها أجزاء متناثرة لديانات مختلفة متنافرة .

الصدقات في اليهودية :

يقول العلامة السيد سليمان الندوي ، رحمه الله ، في كتابه المشهور سيرة النبي (المجلد الخامس) تحت عنوان « الزكاة في الأديان الماضية » :

« الزكاة أيضاً من العبادات التي فرضت في سائر الأديان السماوية ، ولكن أتباع هذه الأديان تناسوا هذه الفريضة ، حتى لم يبقَ لها اسم ولا رسم في قائمة الأحكام والتعاليم الدينية لهذه الأديان ، مع أن القرآن يعلن بصراحة ، وبتصديق الصحف السماوية أن الزكاة كانت جزءاً لازماً لهذه الأديان مثل الصلاة تماماً ، فالميثاق

---

(١) سافر مؤلف الكتاب في عام ١٩٦٠ م إلى (بورما) ، وزار (رنجون) و (ماندلي) وبعض الأماكن التاريخية المشهورة ، ورأى هذا النوع من الناس عن كثب ، وشاهد حياتهم اليومية ، واطلع على مناظر من التسول لا ينساها .

الذي أخذ من بني اسرائيل احتوى على الصلاة والزكاة معاً . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[١] ويقول في موضع آخر :

﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ﴾[٢] ويذكر اسماعيل عليه السلام ، فيقول :

﴿ واذكرْ في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولاً نبيّاً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربّه مرضياً ﴾[٣] ويقول على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حيّاً ﴾[٤]

إنّ التوراة تدلـّنا على أن عُشر محصول الأرض والأنعام كان واجباً على بني إسرائيل ، ونصف مثقـــال من الدينار لمن كان في عشرين من عمره ، أو فوق العشرين غنيّاً كان أم فقيراً . جاء في الخروج : « كل من اجتاز إلى المحدودين من ابن عشرين سنة ، فصاعـــداً ، يعطي تقدمة للرب ، الغني لا يكثر ، والفقير لا يقلل عن نصف الشـــاقل ، حين تعطون تقدمة الرب للتكفير عن نفوسكم » (الخروج ٣٠ - ١٤ — ١٥) وكانوا يتركون بعض السنابل في المزارع والحقول عند الحصاد ، وبعض الثمار في الأشجار ، فكان ذلك زكاة يؤدونها بعد كل ثلاث سنوات ، وكان هذا المال يدفع إلى بيت مال القدس ، ينال واحداً من الستين منه رجال الدّين ، أما العشر ، فكان يناله اللاويون من آل هارون ، وكان يوقف عُشره لضيافة الوافدين والحجاج ، وينفق على إطعـــام عامة المسافرين والفقراء ، والأيامى واليتامى يومياً »[٥]

أما الأموال التي كانت تجبى بزكاة نصف مثقال ، فكانت تدفع إلى خيمة

---

(١) سورة البقرة ٤٣ . (٢) سورة المائدة ١٢ .
(٣) سورة مريم ٥٤-٥٥) . (٤) سورة مريم ٣١ .
(٥) Charity Incyclopedia Britanica Edition H.

الاجتماع (أو مسجد القـدس) ، فكانت تنفق في شراء أواني المذبح والآلة » (الخروج ٣٠)[١]

إن اليهودية (التي قامت على أساس التعاليم النبوية على كل حال ، والتي عاشت تحت ظلال النبوة أكثر من جميع الأديان التي نشأت في النسل الآري) أقرب إلى تعاليم الإسلام ، وقيمه ومفاهيمه ، وأحكامه ؛ بالنسبة لهـذه الأديان بطبيعة الحال ، إن اليهودية لم تنظر إلى حياة البطالة نظرة إعجاب واستحسان ، ولم تشجعها شأن الديانة الهندوكية التي مضى ذكرها ، بل إنهـا بالعكس حاولت إيجاد الثقة بالنفس والإعتزاز في الفقراء والمساكين، يقول بنسيرا (BANSIRA) « إن العيش في كوخه المصنوع من قصب أفضل كثيراً من الراحة والهناء في بيت غيره ، التجول والتسول آفة كبيرة » (SIRA-22-24-29) ، وأمـا ما قيل في فضائل الصدقة ، ومنافعها العاجلة والآجلة ؛ فهو أقرب إلى تعاليم الإسلام ،إنّ التنوع في الصدقات والتوسع في نطاقها ، وشمولها لكل صغير وكبير يجلب الراحة للآخرين ، ويدخل السرور على القلوب يشبه الأحـكام الإسلامية وتعاليم القرآن والسـنّة ، فقد نرى هناك رعاية للعواطف الإنسانية ، والمشاعر المرهفة اللطيفة، تجلّت في أروع صورها ومظاهرها ، ووصلت إلى قمتها في النظام الإسلامي جاء في ABOTH-1-1 ، « إنّ الزكاة والصدقة ركنٌ من أركان المجتمع الإنساني ،وجاء فيه : « إنّ الصدقة لا تختص بالأغنياء وحدهم بل إنّ الفقير يتقرّب بها ، كما يتقرّب بها الغني » .

إنّ التعاليم اليهودية تفرضُ على اليهودي أن يتصدّق بعشر دخله ، ولكنها لا تسمح له بالخمس ، لئلا يقع في ضائقة ، ويحتـاج بنفسه إلى الصدقات ، KETHUBOTH-50A) وقد سمح بتدخل الحكومة أيضاً في تحصيل الصدقات ، إذا دعت إليه الحاجة : جاء في KETHUBOTH19B إذا رفض البخلاء الصدقة ،

---

(١) سيرة النبي ج ٥ - ص ١٤٨ - ١٤٩

أو لم يتصدّقوا كما ينبغي ، فعلى الحكام أن يرغموهم على ذلك ، أو يضربوا العصاة ، إذا اقتضت الضرورة حتى يدعنوا للأمر » . وهكـــذا أعطت اليهودية أسرة المتصدق حقاً كاملاً في الاستفادة من الصدقات ، واعتبرتها أحق بها دون غيرها ، وهو شيء يشبه الحديث النبوي : « إبدأ بمن تعول »[1] . جاء فيBABAMEZIA « أسرة المتصدق أولى بالاستفادة من هذه الصدقات ، والوالدان أحق بها ، ثم الأخوة والأخوات ، ويليها فقراء القرية ومساكينها ، ويأتي بعدها دور فقراء قرى أخرى » وذلك يشبه التعليم الإسلامي الوارد في حديث مشهور : « تؤخذ من أغنيائهم ، وتردّ على فقرائهم » ، ويمكن أن تقدم الصدقات إلى اليهودي وغير اليهودي سواء ، (GILTIN 61A) أما فك الرقاب بالفدية فهو أفضل وأسمى من غيره من الصدقات والمبرات BABA BATHRA 88 ويجب أن يلاحظ كرامة الشخص الذي ينال الصدقة ، (SHABBUTH 63A) والصدقة عابساً أو كارهاً تحبط العمل BABA BATHRA-98

وجاء في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » ما يلي : « كان هناك نظام خاص مستقل لإعانات الفقراء ، وأهل الحاجة في عهد التلمود ، وهو يتلخص في تقديم وجبات الطعام يومياً ، والنقود اسبوعياً ، وكان العهدة في هذا الأمر على شخصين أو ثلاثة من الثقات الأمناء ، فكانوا يجمعون التبرعات من الجمـــاعة ، كما كانت جماعة أخرى مؤلفة من ثلاثة أفراد تقع عليها مسئولية الفحص في أمر السائلين والفقراء BABA AATHRA-8A وكان يجب عليهم أن يكملوا مهمتهم ، ويؤدوا واجبهم مهتمين بعواطف الفقراء والمساكين ومشاعرهم KETHUBOTH6B وقد استمر هذا التقسيم إلى زمن طويل MIAMLOCVIT-9-3

وكان اليهود المتدينون متمسكين بأداء العشر الذي قررته شريعتهم باهتمام وانتظام ، وكانت عادة التسوّل شاذة في المجتمع اليهودي في القرون المتوسطة

---

(١) الصحيح البخاري .

ولكنها نالت رواجاً كبيراً في القرن السابع عشر ، وانتشر السائلون المحترفون في كل طائفة يهودية ، وبدا منظرهم كريهاً ، جديراً بالاحتقار ، نحن نجد صورة رائعة لمثل هذا الإستجداء الوقح في كتاب ملك الشحاذين KING OF SHINOWET لمؤلفه (TANGWILL) ولكن التنظيم اليهودي الجديد للمبرة الاجتماعية ، قضى على هذه الحرفة أخيراً .

ورغم هذا التشابه الجزئي بالتعاليم الإسلامية في هذا الموضوع ، الذي قدمنا بعض أمثلته في السطور الماضية ، نجد هناك فرقاً كبيراً بينه وبين نظام الزكاة والصدقات في الإسلام ، وهو أنه توجد في اليهودية فرقة خاصة لأخذ الزكاة ، وتدبيرها وتوزيعها في هذه الفرقة ، وهي فرقة تنتمي إلى سلالة خاصة ، ونسب خاص ، وهم يرثون هذا المنصب أباً عن جد ، يقول الكاتب اليهودي GFMOORE في كتابه (JUDAIESM) : « إن المبدأ الأساسي لهذا التنظيم (جمع الضرائب للأمور الدينية) كما جاء في القانون الأساسي لليهود ، هو أن يقدم عشر الإنتاج الزراعي إلى «اللاويين » ويقدم هؤلاء عُشر هذا العشر إلى رجال الدّين » .

ويذكر الكاتب ذلك الشره للمال ، والاستحصال بالقوة ، وهضم الحقوق ، الذي اتسم به هذا النظام ، فيقول :

« كان علماء اليهود يجمعون هذا العشر عن طريق عصابات قوية ، يوفدونها إلى الأراضي الزراعية نفسها ، فتأخذه قهراً وبطشاً ، وكانت تضرب الأحبار الصغار الضعاف ، الذين كانوا يريدون أن يستأثروا به بحق .

أما نشاط اليهود في أداء هذه الفريضة ، وتحمسهم لها ، وشعورهم بالمسئولية نحوها ، وتطبيقهم على المجتمع في مختلف أدوار التاريخ ، فيقول عنه المؤلف :

« لعلّ أداء العشر في اليهود تُرك إلى ضمير صاحب الضريبة ، مع أن التجربة تدل على أن الإعتماد على الضمير في هذه الناحية لم يأتِ بخير ، حتى أن هذا النظام

الذي يقوم على التطوع ، أخفق في منطقة صغـــيرة مثل جوديا (JUDEA) التي كانت حكم إيران ، فقرروا إرسال زعيم ديني مع اللاويين لجمــع الأموال (NEH-7-38F) ولكن هذه الحيلة ايضاً باءت بالفشل ، فقــد جاء في (NEH-13-10) إن أداء العشر تعطل بتاتاً ، حتى اضطر اللاويون إلى ترك معبدهم ، وتوجهوا إلى مكان آخر ليحرثوا أرضهم بأنفسهم وينالوا قوتهم » ، (MAL-3-8F)

ويقول مستطرداً :

« ولا عجب في ذلك فقد كان الفلاح لا يعتمد عليه مطلقاً في أداء الضرائب الدينية ، حتى المتدينين منهم كانوا يؤثرون تقاليد الآباء والأجداد وكانوا يحسبون أن العادات القديمة أولى وأفضل من فتاوى المدارس ، والإيضاحات الدينية ، ويقول :

« وقد أزعجت هذه الغفلة السائدة العامة قادة الدّين ، وأقلقتهم ، ولكن جميع المساعي والمحاولات لتنفيذ هذه الاحكام الدينية ، باءت بالإخفاق في صورة عامة ، ولم يبقَ هذا الانحراف فردياً ، بل أصبح جماعياً ، فقد أصبح ابتزاز حق الله في أموال الدين ، وانتهابه جناية قومية ، ذاقت الأمة وبال أمرها ، فقد كان من المقرر ، أن اليهود لا يستردّون ما فقدوه من فضل الله وبركاته إلا بالإصلاح الشامل ، واستعادة حياة الطاعة والانقياد » .

MAL 3-8-12 MIDRASH - TEBELHORON ISLAM 51 2Co, 8-9

ويقول :

« ولا شك أن علماء الدّين أنذروا قومهم ونصحوهم بأن هذا الخداع والمكر والإنحراف عن أداء العشر إثم كبير ، ولكنهم لم ينجحوا في إصلاح القوم » .

بعد هذه الشهادات الجلية الواضحة لعلماء اليهود ومؤرخيهم ، ومع العلم بأن اليهود ظلوا في جميع أدوار حياتهم شعباً مغرماً بالثراء الفاحش والاكتنـــاز ،

استخدم جميع الوسائل وكل ذكائه ، لتنمية الأموال وتكثيرها، وكان له الزعامة في عمل الربا ،وصناعة الصّرافة والنقود ، والبراعة في الأعمال التجارية في كل عصر ومصر ، يحلو لنا أن نتلو تلك الآيات الكريمة المعجزة التي ذُكر فيها بخلهم وحرصهم الزائد ، وتماطلهم في أداء الحقوق ، وميلهم إلى التأويل والتعليـل ، وعسى ولعل، وكلماتهم الوقحة الجريئة في مثل هـــذه المناسبات وعند أداء الواجبات :

﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾[1]

وقد قالوا حينما طلب منهم الإيثار والسخاء ، والبذل في سبيل الله في وقاحة وجرأة « يد الله مغلولة » :

﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾[2]

ويبدو لنا ـ في ضوء القرآن ـ أن يهود الحجـــاز الذين كانوا مسيطرين على اقتصاد البلاد محتكرين لتجارتها ، قصروا دائماً في الصدقات والمبرات وأداء الزكاة ، يقول القرآن : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا

---

(١) سورة آل عمران ـ ١٨١ جاء في تفسير ابن كثير في تفسير هذه الآية :
« قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » قالت اليهود : يا محمد، افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحنّ أغنياء » الآية ، رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم » .
(تفسير ابن كثير الجزء الثاني ص ١٦٨ طبع بيروت)
(٢) سورة المائدة ٦٤ .

الصلوة، وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾[1]

الصدقات في الديانة المسيحية :

وبما أن المسيح عليه السلام لم يأت لأتباعه بقانون عام شامل ، وبشريعة تضارع شريعة موسى عليه السلام ، بل إن عمله ظل مقصوراً[2] على إصلاحات وتغييرات شتى ، وإن دعوته الأساسية كانت تهدف إلى بعث روح صادقة للعبودية والإخلاص ، وإيقاظ عواطف الحب الإلهي والعطف على الإنسان ، وإحلال الحقيقة محل الصور والأشكال ، وكان ذلك إزاء التقليد الأعمى للعادات والأشكال التي أسرف اليهود في التمسك بها ، والعض عليها بالنواجذ ، فلم يقدم إلى أمته نظاماً مستقلاً للصدقات - شأنه في الأركان الأخرى للدين وشعب الحياة - يتضمن تعليمات وتشريعات دقيقة حيال الشريعة اليهودية ، وأحكام التوراة ، إنه حاول فقط إيقاظ الشعور بالحقيقة والروح ، والإخلاص والحق ، والحب الإلهي والأخوة الإنسانية في النظام السابق ، وذلك هو السبب في عدم وجود نظام واضح ، وقانون منظم للصدقات في ضوء توجيهات الكنيسة ، وكل ما يوجد في هذا الموضوع لا يعدو توجيهات خلقية عامة ، ومواعظ دينية .

ما هي مكانة الصدقات في العهد الجديد[3] وكيف كانت تعاليم سيدنا عيسى عليه السلام الأساسية حولها ، وتوجيهاته ، وعواطفه الشخصية نحوها ؟ وإلى أي حد بقيت هذه الفكرة في عهد الكنيسة بعده ، وما هو مدى تعامل العالم المسيحي بهذه الفكرة؟ يتحدث كاتب مسيحي وهو يستعرض هذا الموضوع بإيجاز

---

(١) سورة البقرة ٨٣ .

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام : «ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون» (سورة آل عمران - ٥٠)

(٣) الإنجيل

في موسوعة الديانات والأخلاق ، يقول :

« لقد ذكر السيد المسيح واجب الصدقات في خطابه على الجبل ، وفي مناسبات أخرى بنفس التأكيد ، والإخلاص الذي كان يتظاهر به علماء اليهود قبله ، فتجب الصدقة على أتباعه ، ولكن يجب أن تكون هذه الصدقة نابعة من الإخلاص ، وبنيّة الخير فحسب ، إن كل مسيحي يريد أن يكتمل في ذاته كما كان « الأب » الذي هو في السماء مكتملاً في شخصيته ، ولا ينبغي أن تشوب نيّته شائبة من الرياء ، وطلب المدح ، والعلو الشخصي (MT-6-IFF) كما أن الموعظة التي توجد في انجيل لوقا تنطوي على أحكام الصدقات هي أوضح من غيرها « أعطوا تعطون » أعطوا من يسألكم ، ومن أخذ متاعكم فلا تسترجعوه منه ، أحبّوا أعداءكم ، واقرضوهم ، ولا تؤيسوهم ، وستجزون جزاءاً كبيراً على ما تفعلون ، حتى تكونوا أبناء تلك الذات العالية الرفيعة ، لأنها ترحم الجميع وتعطف على الكفور المعربد أيضاً » (LUKE-6-30-35) .

لقد عمل السيد المسيح بما علّم الناس (بل كان عمله أكثر من تعليمه) إنه بذل قسطاً كبيراً من أوقاته بعد النبوة في إزالة متاعب الناس ، وخدمة الجماهير ، وإبراء الذين كان الشيطان قد مسّهم ، لأن الله كان معه (AC-10 38 م) .

ولكن لا ينبغي لنا أن نعتقد أن المسيح كان ضعيفاً في انتصاره للإنسانية ، فقد قال : إنه ينبغي للإنسان أن يكون طالباً « لملكوت الله » وللحق قبل كل شيء ، أما الصفات الحميدة الأخرى ، فإنها ستنشأ فيه بنفسها ، وقال : يجب أن يكون تفكير الإنسان (وهو يساعد الآخرين) في سلامة أرواحهم فوق تفكيره في سلامة أجسادهم ، فقد كان هو نفسه حينما يعالج الناس ، أو يساعدهم في أمورهم ، يفكر في مصلحة (الروح) الدائمة أكثر من مصالحهم المؤقتة ، كما أن ههنا ناحية لا بدّ من النظر فيها ، وهي أن السيد المسيح قد اعتبر أساس المساعدة والبرّ تلك العلاقة التي يتصل بها الإنسان بربّه ، فهذه هي العلاقة التي

لجعل الناس إخواناً ، وعلى هذا فبما أن الناس كلهم أعضاء أسرة واحدة في الحقيقة يتحتم عليهم أن يساعد بعضهم بعضاً على أساس كونهم عباد رب واحد .

وقد قال بولس : « وآزروا وتعاونوا فيما بينكم كالسيد العظيم ، واعملوا بقانون سيدنا عيسى عليه السلام » ، (GAL-62) ولكن الذي لا غبار عليه أنه ما دامت علاقة السخاء والصدقة بهذه الغايات السامية ، والنيّة الخالصة ، فلا مجال فيها للرياء والمباهاة .

ولننظر إلى أي حدّ تأثر أتباع عيسى عليه السلام وأنصاره الأولون بتعاليمه ، التي جاء بها وبالأسوة التي قدمها هو نفسه ، وقد برز نظام اشتراكي كنتيجة حتمية لنزع الروح في يوم (PENTA COST) أقامه الناس حسب رغباتهم ، وأنفق فيه أغنياء الجماعة جلّ أموالهم ، أو ما يقارب الكل على سد حوائج جيرانهم الفقراء (AC-2-44-45) ، ولم يبع كل الناس جميع أموالهم ، فالذين لم يكن عندهم مال فوق حوائجهم ظلّوا ينفقونه على سد مطالبهم ، أما الذين كانت عندهم أموال تفضل عن حاجاتهم ومطالبهم ، باعوها كذلك ، أو أنفقوها في مصالح الجماعة ، (4-34-35) ولا شك أن صدقة عظيمة كهذه لا تدوم إلى أمد بعيد ويبدو من أمثلة ANANIA و SÁPHIRA أن دافع الخدمة المطلوب كان مصطنعاً متكلفاً في أكثر الأحيان ، ولعل جميع تلك المفاسد التي تنشأ بمساعدة الكسالى والعجزة من الناس ظهرت في كنيسة القدس ، كما يبدو بتهديد بولس أن هذه المفاسد تعدّت إلى الكنائس الأخرى كذلك (2TH-3-10 FF) .

ولو أن صدقة العهد البدائي لم تدم على حالها السابق حينما فتر الحماس السابق في الناس ، غير أن الصدقة بقيت قائمة ، وظلت ميزة خاصة لجميع الكنائس المسيحية ، بل بقيت ميزة الكنيسة ، ولما قدم المسيحيون الجدد أيمانهم لبولس للحلف والوحدة ، أنفقوا بوجه خاص على مساعدة الفقراء (سواء كانوا من غير المسيحيين) إن هذا المبدأ هو الذي كان بولس يحرص على إبقائه والاحتفاظ به ،

(GAL-2-10) ، وبالنظر إلى هذه الغاية ، وانتشار الإتحاد بين كنائس اليهود وغير المسيحيين ، قام بولس بتنظيم كنائس مقدونية (ACHAI) بحيطة بالغة ، وجمعت تبرعات الصدقة فقام نفسه بإيصالها إلى سدنة القدس ، وشاركه في هذا العمل بعض الممثلين من الكنائس الأخرى (2Co, 8-9) .

أما ما أصدره بهذه المناسبة من الأمر بالتبرعات الأسبوعية ، فأصبح أساساً ـ فيما أظن ـ لذلك التبرع الأسبوعي الذي بقي في عدة كنائس بوجه عام ، ولا يزال باقياً في أكثر الكنائس في زمننا الحاضر ، ولا يقلّ حثّ الزعماء المسيحيين ـ عدا بولس ـ على التصدّق والترحم على الفقراء ، فقد شنّع (السانت جيمس) بكلمات قوية على ذلك الظلم والتعدّي ، الذي يصبّه الأغنيـــاء على الفقراء (TA 5-2-1-6-6) ولكنه صوّر قانون الخدمات الدينية تصويراً مجملاً يقول : « إن الديانة الأصيلة التي لاشية فيهـــا في نظر الإله والأب ، هي تفقّد أحوال الأيتام والأرامل ، والعطف عليهم ، والمشاركة في أحزانهم ، وتزكية النفس من غرور الفخر والمباهاة (1-27) .

وقد وجّه مؤلف « رسالة إلى اليهود » وصيّة عملية إلى مخاطبيه في آخر خطابه ، يقول :

« أحسنوا ، ولا تنسوا توزيع الصدقات ، فإن الله لا يرضى بهذه الذبائح » وقدم (السانت جوهن) فريضة الصدقة بغاية وضوح وجلاء ، انه يعتبر دافع خدمة الإنسان ، نابعاً من عاطفة الحب لله ، يقول :

« الذي تتوفر لديه أسباب الراحة والمتعة ، ثم هو يهرب من مساعدة أخيه الفقير ، وهو يعلم مدى احتياجه ، كيف يدوم فيه حب الله » .

وهكذا يتبيّن لنا أن الصدقة ، ومساعدة الفقراء تعتبر واجباً أساسياً للحياة

المسيحية ، في تعاليم السيد المسيح ، وأتباعه الأولين ، وأن علاقة هذا الواجب الأولى بتلك الصلة ، التي يتصل بها الناس بالرب تعالى عن طريق السيد المسيح ، وأن النتيجة الحتمية للإعتراف بهذه الصلة هي الصدقة والحسنة [1]

دور الاسلام الاصلاحي :

وقام الإسلام بعدة إصلاحات جذرية ، كان لها الأثر الثوري الكبير ، في نظام الزكاة وفي أخلاق المجتمع .

إلغاء الاحتكار الديني والطبقي :

منها أنه ألغى الإحتكار الديني ، والإحتكار العائلي ، الذي كان قد أساء إلى هذه الطبقة المحتكرة في جانب ، فأفسد أخلاقها ، وحولها إلى طبقة مترهلة عاطلة تعيش على الصدقات ، وتترفه على أساس الأموال ، التي تأتيها عفواً ومجاناً ، ولا تشعر بحاجة إلى الكدح والجهد ، والاكتساب بالطرق الطيبة الكريمة ، وكان رزقها مضموناً مكفولاً بمجرد أنها من أولاد النبي فلان ، أو من البيت الفلاني ، أو الأسرة الفلانية ، أو أنها تشغل المنصب الديني الفلاني بحكم الوراثة ، وإن لم تقم بحقوقه ومسؤوليته ، فنشأت بذلك طبقة محترفة ، تحتكر الدين وتستغل النسب وتتجرد عن كل فضيلة ، أو صفة من صفات الرجولة والمروءة ، والتعفف وعزة النفس .

وفي جانب آخر ، أساء إلى الفقراء والمساكين ، وأصحاب الخصاصة المستحقين ، الذين كانت حقوقهم تهضم ، لأن المتصدق كان يفضل بطبيعة الحال ، أن تذهب هذه الصدقات إلى من يتشرف بمنصب ديني ، أو بدم نبوي ، وسلالة كريمة ، كما يشاهد ذلك عياناً في المجتمع الهندي ، فقد استولى البراهمة ، وسدنة المعابد على الصدقات ، والنذور فلم يدعوا شيئاً لرجل الشعب الفقير الذي لا يعتز بالدم البرهمي المقدس ، أو بالسدانة والكهانة ، فحرم في كثير من الأحيان

(1) Encyclopedia of Religion Ethics W.A. Spooner.

ما يسدّ فاقته ويقيم صلبه ، وكان فريسة إهمال الأغنياء ، وترف البراهمة والسدنة ، وضحية الوضع الديني التشريعي ، في الديانة الهندية الآرية .

بالعكس من ذلك سدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلمّ باب هذا الإحتكار الديني والعائلي ، والظلم الإجتماعي إلى آخر الأبد ، وحرّم الزكاة على بني هاشم – الذين هم أسرة النبوة ، وأهل الفضل في تاريخ الإسلام ، والكفاح الديني – فقال في قوة وصراحة ، « إن الصدقة لا تحلّ لنا[1] » وكان يتورّع من أكل الصدقة كلّ التورّع ، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ كان إذا أتي بطعام ، يسأل عنه ، فإن قيل هديّة ، أكل منها ، وإن قيل صدقة ، لم يأكل منها ، وقال لأصحابه كلوا[2] » ويبالغ في منع أهل بيته من أكلها ، حتى لا يتعوّدوا ذلك ، ولا يحتجُّ به المسلمون ، فيفضّلوهم ويحرموا غيرهم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة ، فجعلها في فيه ، فقال ﷺ ، كخ كخ ، إرم بها ، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة[3] »

وقد كان هذا حكماً باقياً في حياته وبعد حياته صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد روي عنه مرفوعاً ، أنّه قال : « إن هذه الصدقات ، إنّما هي أوساخ الناس ، وإنّها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد » [4] وقد جرى العمل بذلك في الفقه الإسلامي والمجتمع الاسلامي ، وبقي باب الزكاة والصدقات المفروضة مفتوحاً على مصراعيه لعامّة المسلمين وفقرائهم ومستحقيهم ، لا تُهضم حقوقهم ، ولا يُغلبون فيها على أمرهم ونصيبهم[5] .

---

(١) رواه أصحاب السنن عن أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) رواه الشيخان .
(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) أنظر البحث في ذلك في كتاب « احكام القرآن » للجصاص ، والقاضي ابن العربي

وقد كانت هذه سيرته ﷺ في أهل بيته وأسرته ، فكان لهم النصيب الأوفر في المغارم ، والنصيب الأقل في المغانم ، فلما حرّم الرّبا ، بدأ بأسرته والأقربين إليه ، ولمّا وضع دماء الجاهلية ، بدأ بدم أحد أبناء أسرته ، فمّا جاء في خطبته في حجة الوداع ، قوله : «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، وكان مسترضعاً في بني سعد ، فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأوّل ربا أضع من ربانا ، ربا عبّاس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله الخ [1] . ولمّا فرضت الزكاة في الإسلام ، وكان باباً واسعاً ، باقياً مع الإسلام للرزق الواسع ، عمد إلى بني هاشم أهل بيته وأسرته — فحرمهم الإنتفاع به والتعيّش عليه ، وتلك طبيعة الأنبياء والرسل ، وسيرة من يكرمهم الله بالرسالة والنبوة ، كان لمحمد ﷺ فيها المقام المحمود .

إسقاط الوسائط في أداء الزكاة :

ومنها ، أنه أسقط الوسائط بين مؤدّي الزكاة وبين مستحقيها ، الوسائط الدائمة التي كان قد فرضها ممثلو الشريعة الموسوية ، وهم الأحبار والرهبان ، فكانت الفريضة لا تسقط عن صاحبها إلاّ إذا تسلّمها الكهّان أو الأحبار ، أو سدنة البيت المقدس ، فأنشأ ذلك في هذه الطبقة حبّ المال الفاحش والنهامة ، وأساءوا التصرّف فيها أحياناً كثيرة ، واستولوا عليها ، وحرموا ذوي الحاجة المستحقين ، ولذلك قال القرآن : «يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم [2] »

---

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه .

(٢) سورة التوبة ٣٤ .

فقد انشأت هذه الوساطة وهذا الإحتكار فيهم الشره والإستيلاء على أموال الناس والإكتناز ، والثراء الفاحش .

وقد أسقط الله هذه الوساطة الكهنوتية ، كما أسقطها في جميع العبادات ، وإقامة الفرائض الدينية ، فكل مسلم يستطيع أن يصلي بنفسه ، ويؤدي زكاته بنفسه ، ويصوم ويحجّ بنفسه ، لا يحتاج إلاّ إلى معرفة أحكامها ، المعرفة التي لا بدّ منها في أداء هذه الأركان ، والنّية ، وتحقيق الشروط التي شرطت لها ، فإذا توّفرت هذه الشروط لم يكن في حاجة إلى وسيط ، وإلى طبقة دينيّة رسمية .

تمليك المستحقين ، وتحكيمهم فيما يأخذونه :

ومنها ، أن بعض الأجزاء من أموال الزكاة ، كما قدّمنا ، كانت مقيّدة بقيد ، لا يتصرّف فيها من يأخذها تصرفاً مطلقاً ، فقد كان جزءاً مخصّصاً لحجاج بيت المقدس ، ولكنه كان مختصاً بضيافتهم وطعامهم ، ولكن الشريعة الإسلامية ، ملّكت الفقراء والمساكين ، ومن يستحق الزكاة هذه الأموال التي يأخذونها ، فيتصرفون فيها ، كما يشاءون ، وينفقونها في حاجاتهم ورغباتهم ومصالحهم ، وذلك ماتفيده اللام في قوله تعالى : « للفقراء والمساكين والعاملين عليها [1] »

هذه الإصلاحات والتحسينات ، هي التي جعلت نظام الزكاة الإسلامي ، أرقّ وأدقّ ، وأوفى ، وأرقى نظام تعبّدي واجتماعي ، وأكفل بالمصالح الفردية والإجتماعية [2] » .

---

(١) سورة التوبة - ٦٠ . انظر البحث في هذه اللام ، في كتب احكام القرآن ، وفي كتب اصول الفقه للمذاهب الأربعة .

(٢) استفدنا في هذا البحث من المجلد الخامس « السيرة النبوية » لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى .

مكانة الزكاة في الاسلام ، ووضعها الشرعي الأصيل :

قُرنت الزكاة بالصلاة في اثنين وثمانين[1] ٨٢ موضعاً من القرآن ، وتكرّر في القرآن : « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة [2] » ، وفي وصف المسلمين ، « يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة [3] » وقد عدّها رسول الله ﷺ من أركان الإسلام وأسسه ، فقال : « بُني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان [4] » وسُئل ما الإسلام ؟! فقال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان [5] ». وفي حديث ضمام بن ثعلبة ، أنه قال له ، « أنشدك بالله آلله أمرك ان تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا ، فتقسمها على فقرائنا ؟ ، قال ، اللّهم نعم [6] » ، والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصى ، وقد بلغت حدّ التواتر المعنوي، وانعقد على كونها قرينة الصلاة الإجماع ، وتعاملت الأمة بها جيلاً بعد جيل .

وقد جعل الله إقامة الصلاة وأداء الزكاة علامةً لصحة الإسلام وأحكامه ، ودخول الرجل في السلم مع الله والإخاء مع المسلمين ، فقال : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم [7] » وقال : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصّل الآيات لقوم يعلمون [8] » وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن عمر قال ، قال

---

(١) حسب إحصاء العالم الجليل الأمير قطب الدين خان الدهلوي (م١٢٨٩هـ) في ترجمة مشكاة المصابيح وشرحها .

(٢) سورة البقرة – ٧٣ – (وغير ذلك) .

(٣) سورة المائدة – ٥٥ .

(٤) أخرجه مسلم والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٥) للشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه .

(٧) سورة التوبة – ٥ .

(٨) سورة التوبة – ١١ .

رسول الله ﷺ ، « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » وأخرج البخاري ومسلم والنسائي من حديث أبي هريرة ، قال ، قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئتُ به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

الاصل في الزكاة ، أن تكون بنظام :

وطبيعة الزكاة ، ووصفها الشرعي الأصيل ، أن تدفع الى بيت مال المسلمين ، والى من يلي أمرهم من الخلفاء والأمراء[1] ، كما أن طبيعة الصلاة ، ووضعها الشرعي الأصيل أن تؤدى في جماعة .

تمسك ابي بكر الصديق لهذا الاصل ، ومحافظته عليه :

وهذا هو الأصل الشرعي ، الذي فارق عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا ولقي ربه ، وترك المسلمين عليه ، فتمسك به خليفته وأمينه في دينه وأمته ، وأفقه الناس لهذا الدين وأسراره ، ومقاصده ، وأغيرهم عليه ، أبو

---

(١) والمسلمون مكلفون شرعاً بإقامة نظام الخلافة والإمارة ، آثمون بالتهاون فيها ، والاخلال بها ، كما هو واضح من دراسة كتب الحديث والفقه ، وكما هو ظاهر من فهم روح الاسلام ومقاصده ، وتفيد في هذا الموضوع مطالعة كتاب « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » لشيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، وكتاب « منصب الامامة » لحفيده العلامة الشيخ اسماعيل الشهيد ، وكان المسلمون الأولون يستعظمون أن يقضوا أقصر مدة من الزمان ، من غير خلافة وخليفة ، وقد اعتاد المؤرخون أن يذكروا بدء السنة في هذه الفترة بقولهم ، وحلت سنة كذا ، والمسلمون من غير خليفة ، فكيف ، لو شهدوا هذه الحقبة الطويلة التي تمر من غير تفكير ، أو توجع لهذا الوضع الشاذ ؟!

بكر الصديق ، فجدّ وألحّ على أن يقاتل مَن منع الزكاة عن بيت المال .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه هذا الخبر مفصلاً ، وما جرى بين أبي بكر وعمر – وهما شيخا الإسلام وركناه – من الحديث ، وكيف اختلفت وجهة نظرهما حتى وافق عمر ، وأقرّ أبا بكر على ذلك ، واعترف بعمق نظره ، ودقة فهمه ، وغيرته على هذا الدين ، والى القارىء هذه القصّة بطولها ، كما رواها أصحاب الصحاح [١] :

« عن أبي هريرة رضي الله عنه ، لما توفي رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب : فقال عمر ، كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ ، أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه ، إلاّ بحقه ، وحسابه على الله تعالى ؟ فقال والله ، لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حقُّ المال ، والله لو منعوني عناقاً [٢] ، كانوا يؤدّونها الى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعها ، قال عمر : فوالله ما هو إلاّ ان قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق .

لماذا وقف ابو بكر هذا الموقف ، من مانعي الزكاة ؟ :

وقد بحث العلامة الخطّابي [٣] ، في أصناف أهل الرّدة ، والبغي ، وحقيقة منعهم للزكاة ، ومراتبهم ، وموقف أبي بكر منهم ، ليستطيع به القارىء أن يستعرض الوضع التاريخي في تلك الفترة وأسباب اختلاف فهم الصحابة وحكمهم عليه ، يحسُن أن ننقله هنا باختصار وتلخيص ، يقول رحمه الله :

---

(١) رواها الجماعة ، إلا ابن ماجه .
(٢) في لفظ مسلم ، والترمذي ، وأبي داود : « لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه » بدل العناق »
(٣) ننقله من كتاب « نيل الأوطار » للعلامة الشوكاني – ج٤ – ص١١٩ – ١٢٠

« أهل الرّدة كانوا صنفين ، صنفاً ارتدوا عن الدين ، ونابذوا الملة ، وعدلوا الى الكفر ، وهم الذين عناهم أبو هريرة رضي الله عنه ، وهذه الفرقة طائفتان ، إحداهما أصحاب مسيلمة الكذاب من بني حنيفة ، وغيرهم الذين صدقوه على دعواه في النبوة ، وأصحاب الأسود العنسي ، ومن استجابه من أهل اليمن ، وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد ﷺ مدّعية النبوة لغيره ، فقاتلهم أبو بكر ، حتى قتل مسيلمة باليمامة ، والعنسي بصنعاء ، وانفضت جموعهم ، وهلك أكثرهم . والطائفة الاخرى ارتدوا عن الدين ، فأنكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرهما من أمور الدين ، وعادوا الى ما كانوا عليه في الجاهلية ، فلم يكن يسجد لله في الأرض إلاّ في ثلاثة مساجد ، مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس .

والصنف الآخر ، هم الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة ، فأنكروا وجوبها ووجوب أدائها الى الإمام ، وهؤلاء على الحقيقة أهل البغي ، وإنما لم يُدعوا بهذا الإسم في ذلك الزمن خصوصا ، لدخولهم في غمار أهل الرّدة ، وأضيف الإسم في الجملة الى اهل الرّدة ، إذ كانت أعظم الأمرين وأهمها ، وأرخ مبتدأ قتال أهل البغي من زمن علي بن أبي طالب عليه السلام ، إذ كانوا منفردين في زمانه لم يختلطوا بأهل الشرك .

وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة ، من كان يسمح بالزكاة ، ولم يمنعها إلاّ أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي ، وقبضوا على أيديهم في ذلك كبني يربوع ، فإنهم قد كانوا جمعوا صدقاتهم ، وأرادوا ان يبعثوا بها الى ابي بكر ، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك ، وفرّقها فيهم ، وفي أمر هؤلاء ، عرض الخلاف ، ووقعت الشبهة لعمر بن الخطاب ، فراجع ابا بكر وناظره ، واحتج عليه بقول النبي ﷺ ، أمرت ان اقاتل الناس ، الحديث » وكان هذا من عمر تعلقاً بظاهر الكلام ، قبل ان ينظر في آخره ، ويتأمل شرائطه ، فقال له ابو

بكر ، إنّ الزكاة حق المال ، يريد ان القضية قد تضمنت عصمة دم ومال متعلقة بأطراف شرائطها ، والحكم المعلق بشرطين ، لا يحصل بأحدهما و الآخر معدوم ، ثم قايسه بالصلاة ، وردّ الزكاة إليها ، فكان في ذلك ، من قوله دليل على ان قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعاً من الصحابة ، ولذلك ردّ المختلف فيه الى المتفق عليه .

فلما استقر عند عمر صحة رأي أبي بكر ، وبان له صوابه ، تابعه على قتال القوم ، وهو معنى قوله ، فعرفت أنه الحق ، يشير الى انشراح صدره بالحجة التي أدلى بها ، والبرهان الذي اقامه نصاً ودلالة [1] »

فضل موقف ابي بكر ، وحسن أثره في الاسلام :

قد كان منع الزكاة عن الإمام ثلمة كبيرة في الإسلام ، وباباً واسعاً للثورة والفوضى ، لو سمح ابو بكر – لا سمح الله بذلك – بفتحه ، وتهاون في سده وإغلاقه ، لما استطاع أحد من بعده أن يسدّه ، وفتح على إثره أبواب اخرى في أمر الصلاة فقال قوم : لا لزوم للجمعة والجماعة ، وحسبنا أن نصلي فرادى أو في بيوتنا ،

---

(١) يبدو لي ، أن قتال أبي بكر للذين ارتدوا عن الدين ، ونابذوا الملة ، وعدلوا إلى الكفر ، والذين انكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة وغيرها من أمور الدين ، وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية ، وهم الذين عدهم الخطابي من اهل الصنف الأول ، وكذلك الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فأنكروا وجوب الزكاة ، وهم الذين عدهم الخطابي من الصنف الثاني ، كان قتال ابي بكر رضي الله عنه لهؤلاء جميعاً على اساس انهم من اهل الردة ، وقد كفروا بانكار ما صح في هذا الدين بالضرورة ، ولذلك قال : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال » اما الذين انكروا وجوب ادائها إلى الامام فاستبدوا بها واستأثروا ، او فرقوها في قبيلتهم ، ومن كان يسمح بالزكاة ، ولم يمنعها ، إلا ان رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي . فأطاعوهم . كان قتال ابي بكر لهم على اساس انهم من اهل البغي . وقتال اهل البغي ثابت في القرآن . متفق عليه بين المسلمين . فقد قال تعالى : « فإن بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله (سورة الحجرات – ٩ –) هذا . والله اعلم بالصواب.

وفي أمر الصيام . فقيل لا لزوم لتوقيته برمضان ، او بمبدئه ومنتهاه ، وكذلك الحج الإجتماعي الذي مناسكه معينة ، وأوقاته محدودة الى غير ذلك ،وأصبحت الخلافة النبوية ، ونظام الإمارة في الإسلام ، الذي ترتبط به الحدود والاحكام ، وعزة الإسلام ، كبحر العروض اسم ولا ماء ، وانفرط عقد الإسلام والمسلمين على اثر وفاة الرسول ، كما انفرط بعد قرون وأحقاب ،فكان موقف ابي بكر ، الذي لا هوادة فيه ولا ليونة ، ولا مساومة فيه ولا تنازل ، موقفاً موفقاً ملهماً من الله ، يرجع اليه الفضل الأكبر في سلامة هذا الدين ، وبقائه على نقائه وصفائه وأصالته ، وقد اقر الجميع ، وشهد التاريخ بأن ابا بكر قد وقف في مواجهة الردة الطاغية ، ومحاولة نقض عرى الإسلام عروة عروة ، موقف الانبياء والرسل في عصورهم ، وهذه خلافة النبوة التي ادى ابو بكر حقها ، واستحق بها ثناء المسلمين ودعاءهم الى ان يرث الله الأرضَ واهلها

تفويض أداء زكاة الأموال الباطنة إلى أربابها :

وبقي الوضع هكذا بفضل جهاد ابي بكر وصلابته ، تُدفع الزكاة والصدقات المفروضة بجميع انواعها ، الى بيت المال حتى كانت خلافة عثمان ابن عفان رضي الله تعالى عنه ، فسمح بأداء زكاة الأموال الباطنة ، وهما النقدان ، الى مصارفها ومستحقيها ،وان يتولى ذلك أصحابها بأنفسهم ، وبقيت زكاة الأموال الظاهرة، وهي المواشي والزروع والثمار ، تدفع الى بيت المال ، يقول الإمام ابو بكر الجصّاص الرازي في تفسيره : [1]

اما زكوات الاموال،فقد كانت تحمل الى رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ثم خطب عثمان ، فقال ، «هذا شهر زكواتكم ، فمن كان عليه دين ، فليؤدّه ، ثم ليزكِّ بقية ماله »، فجعل لهم اداءها الى المساكين ، وسقط من اجل ذلك حق الإمام في اخذها ، لأنه عقد عقده إمام من أئمة العدل ، فهو

---

(١) احكام القرآن للجصاص - ج ٣ ص ١٥٥ .

نافذ على الأمة ، لقوله ﷺ : « ويعقد عليهم اموالهم [1] »

إخلال حكومات المسلمين بنظام الزكاة ، وعقوبته في الدنيا :

واحتفظت الخلافة الإسلامية – بأنواعها ودرجاتها المختلفة – بحقها في جباية زكاة الأموال الظاهرة ، واستمرّ هذا الوضع الى آخر الخلافة العباسية كما يدل عليه كتاب الخراج للإمام أبي يوسف ، والكتب التي ألفت في أدوار مختلفة في موارد الخلافة وماليتها ، حتى زال هذا الوضع الشرعي زوالاً كلياً في حكومات المسلمين ، التي لم تطبق النظام الشرعي ، ولم ترث خلافة النبوة في مناهجها الخلقية ، وخصائصها الإجتماعية ، وسياستها المالية ، فكان ما رأيناه من اضطراب الحياة في بلاد المسلمين ، وحرمانهم من بركات نفاذ أحكام الشريعة الإسلامية على منهاجها الصحيح ، وعُذبوا أخيراً بالرأسمالية الغاشمة ، وبالإشتراكية الكاذبة ، والشيوعية المتطرفة المجنونة ، « ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون [2] »

---

(١) يقول العلامة علاء الدين ، أبو بكر الكاساني الحنفي (م ٥٨٧ ه‍) « وأما المال الباطن الذي يكون في المصر ، فقد قال عامة مشايخنا ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طالب بزكاته ، وابو بكر وعمر طالبا ، وعثمان طالب زماناً ، ولما كثرت اموال الناس ، ورأى ان في تتبعها حرجاً على الأمة ، وفي تفتيشها ضرراً بأرباب الأموال ، فوض الأداء الى اربابها » (البدائع والصنائع ج ٢ – ص ٣٥) .

ويقول العلامة ابن الهمام (م ٨٦١ ه‍) « وعلى هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخليفتان بعده ، فلما ولي عثمان رضي الله عنه ، فظهر تغير الناس ، كره إن تفتش السعاة على الناس مستور اموالهم ، ففوض الدفع الى الملاك نيابة عنه ، ولم تختلف الصحابة عليه في ذلك ، وهذا لا يسقط طلب الإمام ، اصلا » (فتح القدير ج ١ – ص ٣١١)

(٢) سورة السجدة – ٢١ .

الزكاة هي الحد الادنى ، للبر والمواساة :

كانت الزكاة المشروعة في الإسلام ،هي الحد الادنى للبر والمواساة في أموال المسلمين وثروتهم ، وفريضة لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، وهذا الذي تطالب به الشريعة الإسلامية بكل جد وصرامة ، وتعتبره شرطاً للإسلام ، وشعاراً للمسلم ، وركناً من اركان الدين الاساسية ، « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين [1] » والذي ينكرها ، ويمتنع عن أدائها — عمداً وإصراراً — يُعتبر أنه خلع ربقة الإسلام ، وفارق المسلمين ، وقد قاتلهم أفضل الأمة بعد نبيها ، وأفقهها لدينه أبو بكر الصديق، ووافقه الصحابة رضي الله عنهم ، فكان إجماعاً منهم .

إن في المال حقاً سوى الزكاة :

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم — في حياته الخاصة ،وفي ذوقه واتجاهه ، وفي تحريضه وترغيبه ، وفي وصاياه وتوجيهاته ، لخاصة أصحابه ، ولمن أراد أن يأنس به ، وسمت همته — لم يقف عند هذا الحد ولم يعتبره المثل الأعلى في البر والمواساة ، وأداء الحقوق ،وقد عبر عن ذلك في أسلوبه النبوي الموجز المعجز ، الذي تقصر عنه عبارات البلغاء وإطناب العلماء ،بقوله : « إن في المال حقاً سوى الزكاة » . فقد روى الترمذي بسنده عن فاطمة بنت قيس ، « سُئل أو سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزكاة ، فقال : إن في المال حقاً سوى الزكاة ، ثم تلا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » الآية » وتمام الآية ، « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة

---

(١) سورة التوبة — ١١ .

والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء ، وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون [1] »

النظرية النبوية الخاصة ، الى الحياة والى المال :

وقد دلت سيرته فيما آتاه الله من مال ، وسيرته في أهل بيته ، الذين كان اعظم هذه الأمة براً بهم وحدباً عليهم ، كما قال : « خيركم ، خيركم لأهله ، وانا خيركم لأهلي[2] » ، وسيرته في أقرب الناس وأحبهم إليه ، على نظرته النبوية الخاصة ، التي كان ينظر بها الى هذه الأموال ، بل الى هذه الحياة كلها ، بل الى هذا الكون كله ، نظرة تقصر عن تصويرها ، والتعبير عنها المعاجم ، والثروة اللغوية – على سعتها وضخامتها – وتسيء الى جلالها وسموها ، ونزاهتها ورقتها ، المصطلحات الإقتصادية الجافة ، إنها نظرة من يستحضر جلال الله وعظمته ، ويتخلق بأخلاقه ، ويستحضر اليوم الآخر ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم [3] » ويحن إليه أكثر من حنين السمك الى الماء ، وأعظم من حنين الطائر الى وكره ، فينطلق لسانه قائلا : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة [4] » ويرى الى هذا المال كزبد البحر ، أو غثاء السيل ، أو حصى البطحاء ، لا يقيم له قيمة ولا وزناً ، ويرى الخلق عيال الله ، ويرى نفسه كولي اليتيم ، ويفضل لغيره الخصب والرخاء ، والسعادة والهناء ، ولنفسه وعياله ، وأهل بيته الفاقة والجوع ، والتقشف وخشونة العيش ، يقول : « أشبع يوماً وأجوع يوماً [5] » ويقول : « اللهم ارزق آل محمد قوتاً [6] »

---

(١) سورة البقرة - ١٧٧ .

(٢) رواه الترمذي والدارمي عن عائشة رضي الله عنها ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس الى قوله لأهلي .

(٣) سورة الشعراء - ٨٨ - ٨٩ .

(٤) رواه البخاري ج ٢ - ص ٩٤٩ .

(٥) روى الترمذي عن ابي امامة مرفوعاً ، « عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يا رب ، ولكن اشبع يوماً ، وأجوع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك »

(٦) رواه البخاري ج ٢ - ص ٩٥٧ .

ويبلغ أزواجه رسالة الله ، وقد صادفت هواه ورغبته،وذوقه واتجاهه ، فطاب بها نفساً ،وقرّ بها عيناً ، « يا أيها النبي قل لأزواجك ، إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعكنّ وأسرّحكنّ سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً [1] » فلم يكن منهنّ إلاّ أن آثرن الحياة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤثرن الحياة مع آبائهنّ ، وإخوتهنّ الذين توسّع عيشهم ولانت حياتهم .

معيشة الرسول ﷺ ، وأهل بيته :

وكيف كانت الحياة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، التي آثرنها وفضّلنها ؟ ، استمع الى عائشة الصديقة تتحدث عنها في صدقها الموروث ، وتجربتها الواسعة ، وخبرتها التي لا خبرة فوقها ، « ولا ينبئك مثل خبير »

ما شبع آل محمد من خبز البُرّ ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين ،لا يوقد في بيتنا نار ، وما كان طعامنا الاّ التمر والماء ، ولقد توفي رسول الله ﷺ وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد ، إلاّ كسرة خبز من شعير على رف لي [2] »

ويدخل عليه عمر يوماً ، فيراه على حصير ، قد أثر في جنبه ، ويرفع رأسه في البيت فلا يجد الاّ إهاباً [3] معلقاً ، وقبضة من شعير ،وحصيراً تكاد تبلى ، فيبكي عمر ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ما يبكيك. يا ابن الخطاب ؟ ، فيقول عمر : يا نبيّ الله ! ومالي لا أبكي ، وهذا الحصير ، قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا ارى فيها إلاّ ما ارى ، وذاك كسرى وقيصر، في الثمار والأنهار ، وأنت نبي الله وصفوته ؟ ، فيقول عليه السلام : أفي شك انت ، يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا [4] »

---

(١) سورة الاحزاب – ٢٨ – ٢٩ .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وغيرهما .

(٣) الاهاب كيس من جلد .

(٤) إقرأ الحديث في الجامع الصحيح ، للبخاري ، ومسند ابن حنبل ، وسنن ابن ماجسه ، والألفاظ متقاربة .

تحرجه من المال الفاضل ، وقلقه من بقاء مال الصدقة :

وكان لا يجد الراحة مع المال الفائض عن حاجته التي لا حاجة دونها ، ولا زهد فوقها ، والفاضل من أموال الصدقة التي يأخذها للتوزيع على فقراء المسلمين ، « فعن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت كان : لرسول الله ﷺ عندي في مرضه ستة دنانير او سبعة فأمرني رسول الله ﷺ ، ان أفرقها ،فشغلني وجع النبي ﷺ ، ثم سألني عنها ، ما فعلت الستة أو السبعة ، قلت ، لا والله ، لقد كان شغلني وجعك ، فدعا بها ثم وضعها في كفه ، فقال ، ما ظن نبي الله ، لو لقي الله عز وجل ، وهذه عنده ؟ [1] » .

وكان لا يتأخر في وضع هذه الأموال في مواضعها ، وإيصالها الى غايتها ، ولا يرجىء ذلك الى وقت آخر ، *وقد رويَ عن عقبة بن الحارث قال : «صليت* وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر ، فسلم ، ثم قام مسرعاً ، فتخطى رقاب الناس الى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم ، فرأى انهم قد عجبوا من سرعته ، قال ذكرت شيئاً من تبر عندنا ، فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته [2] »وفي رواية : «قال كنت خلفت في البيت تبراً من الصدقة، فكرهت ان ابيته » .

حث وتحريض على إنفاق الفاضل من الحاجة :

وقد أوصى أصحابه وأمته ، بمثل هذه الاخلاق ، وبمثل هذه السيرة ، وبمثل هذه النظرة الى المال وصايا مُرَقِّقة مُرَغِّبة ، يتخيل من يقرؤها في كتب الحديث، ان ليس لأحد حقٌ في فضل ماله ، وزائد متاعه ، ويتحرج بعد ما

---

(١) رواه أحمد .
(٢) رواه البخاري .

يقرؤها، ويطّلع عليها من التنعم، بما بسط الله له في الرزق والتمتع بما وسّع الله له في الدنيا، ويضيق ذرعاً بميسور العيش، وفضول الحياة، وأطايب الطعام وأنواع الثياب، وما هو إلا حث وتحريض، وترغيب وتحريص، وأسوة الرسول التي يقول الله عنها: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله، واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً [1]». وقد صحّ عنه، أنه قال: «من كان له فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد، فليعد به على من لا زاد له [2]» وقال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام ثلاثة، فليذهب برابع [3]» وقال: «ما آمن بي من بات شبعان، وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم [4]» وقد روي أن رجلاً جاء الى النبي ﷺ، وقال له: «اكسني يا رسول الله»، فأعرض عنه، فعاد الرجل يقول: اكسني يا رسول الله، فقال له: أما لك جار له فضل ثوبين؟ قال: بلى! غير واحد، قال: «فلا يجمع الله بينك وبينه في الجنة [5]».

قيمة الانسان، وقيمة مواساته في نظر الدين الاسلامي:

ورفع قيمة الانسان، وقيمة مواساته وقضاء حاجته، الى أن بلغ ذلك مبلغاً لا يتصوّر فوقه، وأصبح من يقصّر في ذلك، كمن قصّر في جنب الله، فقد جاء في حديث قدسي: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني! فيقول ابن آدم: يا رب، كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟

---

(١) سورة الأحزاب – ٢١.
(٢) أخرجه ابو داود عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٣) رواه الترمذي، وقال حسن صحيح.
(٤) رواه الطبراني، والبزار، وإسناده حسن.
(٥) رواه الطبراني في الأوسط.

فيقول الله : أما علمت أن عبدي فلاناً ، مرض فلم تعده ؟ أما إنك لو عدته ، لوجدتني عنده ، يا ابن آدم ، استطعمتك ، فلم تطعمني ! فيقول : يا رب ، كيف أطعمك ، وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت ، أن عبدي فلاناً ، استطعمك ، فلم تطعمه ؟ أما إنك لو أطعمته ، لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم استسقيتك ، فلم تسقني ! فيقول : يا رب كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ فيقول : استسقاك عبدي فلان ، فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته ، لوجدت ذلك عندي[1] » . وقد كان غاية ذلك ، أن قال : ولا منزلة فوقه في العدل والفضل ، والمواساة والإنصاف: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[2] » .

تأثير أسوة الرسول وتعاليمه في حياة الصحابة رضي الله عنهم :

وقد أثرت أسوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، في حياة الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، في اذواقهم واتجاهاتهم ، وسيرتهم في أهلهم ، وفي أموالهم ، التأثير المطلوب المتوقع ، وسرت هذه الروح في عروقهم وعقولهم وأخلاقهم ، حتى اصبحت حياتهم صورة – بقدر الإمكان – لحياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أشبه الناس به بطبيعة الحال ، أقربهم اليه وألصقهم به ، فتجلت في حياة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة ، وقد روى التاريخ من أخبار زهدهم وبرّهم ومواساتهم ، وتورّعهم في ذات نفسهم وأهلهم ، وإيثارهم لشظف العيش ، وقلة الأسباب والتقشف ، ما لا يزال ذروة في تاريخ الأخلاق والديانات ، لا يصل اليها السابقون في الأمم .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخاري .

نماذج من سيرة الخلفاء الراشدين ، وكبار الصحابة وأهل البيت :

فمن ذلك ما رواه المؤرخون ، أن امرأة أبي بكر الصديق خليفة المسلمين ، اشتهت حلوى ، واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريها به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال ، وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل من ثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان . وليس بيت مال المسلمين لتترفّه به أسرة الحاكم ، وتتوسّع به في المطاعم .

وزهد عمر في حياته وتقشّفه مضرب المثل في التاريخ ، ويكفي ان تقرأ خبر رحلته ـ بصفته خليفة وأميراً للمؤمنين ـ الى الجابية « فكان على جمل أورق ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب ، وطاؤه كساء انبجاني ذو صوف ، هو وطاءه إذا ركب ، وفراشه اذا نزل ، حقيبته نمرة ، أو شملة محشوة ليفا ، هي حقيبته اذا ركب ، ووسادته اذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرّق جنبه [1] » .

وأما عثمان ، وهو أكثر اخوانه مالا ، وأوسعهم أسباباً ، فقد روى شرحبيل بن مسلم ان عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل في بيته ، فيأكل الخبز والزيت ، واما علي بن ابي طالب فهو من زهاد الصحابة المعدودين المعروفين ، يصفه صاحبه ضرار بن ضمرة ، فيقول:

« يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلّب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان ـ والله ـ كأحدنا ، يجيبنا إذا

---

(١) البداية والنهاية ـ ج ٧ ـ ص ٥٩ ـ ٦٠ .

سألناه ، ويبتدئنا اذا اتيناه ، ويأتينا اذا دعوناه [1] .

وكان تأثير هذه الأسوة في الصحابة بقدر اتصالهم بصاحبها ، وطول عشرتهم له : فكانت لعائشة ام المؤمنين ، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اليد الطولى في ذلك ، وقد روى المؤرخون : « انها تصدقت مرة بمائة الف درهم وليس عليها الا ثوب خلق ، وكانت صائمة ، فقالت لها خادمتها : لو أبقيت شيئاً لتفطري عليه ! فأجابتها : لو ذكّرتني لفعلت ، وتصدّقت بمائة الف وهي جائعة ، فنسيت نفسها وذكرت الناس ! [2]

المواساة والايثار في المجتمع الاسلامي الاول :

وسرت هـذه الأخلاق وهذه الروح في المجتمع الاسلامي الأول ، فكان ذلك دأب الصحابة وديدنهم ، يقول ابن عمر رضي الله عنهما : « لقد أتى علينا زمان – أو قال : حين – وما احد احقّ بديناره ودرهمه من اخيه المسلم [3] » .

وكانت نتيجة ذلك حوادث طريفة في المواساة ، تكاد تبلغ حـد المساواة ، وحسن الجوار يكاد يبلغ قمة الإيثـار ، من ذلك ما رواه ابن عمر بنفسه ، قـال : « اهـدي لرجل من اصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة ، فقـال : فلان احوج مني اليه ، فبعث به اليه ، فبعثه ذلك الانسان الى آخر ، فلم يزل يبعث به واحد الى آخر ، حتى رجع الى الأول بعد ان تداوله سبعة [4] . »

وانتقل هـذا الشعور الدقيق ، والحس المرهف ، والغرام بالمـواساة ، الى

---

(١) صفوة الصفوة « لابن الجوزي » .
(٢) رواه الحاكم في المستدرك .
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد .
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٢ - ص ١٧٤ .

الاجيال الاسلامية اللاحقة ، وكان التابعين بإحسان القدح المعلى في ذلك بطبيعة الحال ، يقول سيد التابعين الحسن البصري : « لقد عهدت المسلمين ، وان الرجل منهم يصبح ، فيقول : يا أهليّه يا أهليّه ! يتيمكم ، يتيمكم ، يا أهليّه ! يا أهليّه ! مسكينكم ، مسكينكم ، يا أهليه ! يا أهليّه ! جاركم ، جاركم[1] » وكان لبني هاشم ، وسادة أهل البيت قدَمُ صدقٍ في هذا المضمار ، وقد روى التاريخ عن جود الحسن بن علي وعبدالله بن جعفر ، ورقّة عاطفتهما الشيء الكثير ، وكان لعلي بن حسين بن علي رضي الله عنه وعن آبائه التقدم والرئاسة ، في هذه المآثر والمكرمات ، قال محمد بن اسحاق : « كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ؟ ومن يعطيهم ؟ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب الى بيوت الأرامل والمساكين[2] »

المواساة والايثار في مختلف العصور والأجيال :

وتوارثت الأجيال الإسلامية الفاضلة هذه السيرة ، وهذا الذوق الرفيع ، وهذا الحس المرهف ، وهذه الحسبة الدقيقة على نفوسهم وأموالهم ، ومثّلها الراسخون في العلم والدين ، والربّانيّون والمربّون اجمل تمثيل واروعه في كل عصر وفي كل بلد ، وزخرت بأمثالها وروائعها كتبُ التاريخ والتراجم ، وما فاتها ، وأفلت من استقصاء مؤلّفيها البارعين ، فذكر في غير مظانه اغرب وأروع مما حوته كتب التاريخ . وكان شعار الربانيين ، والشيوخ المربين ، ومبدؤهم ان لا يبيت عندهم درهم ولا دينار ، وأن يؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأن يكون ما يكرمهم الله به من أموال وهدايا وطرف ،

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد .

(٢) اكثر الامثال والحكايات ، التقطناها من كتاب « اشتراكية الاسلام » لصديقنا المرحوم مصطفى السباعي .

وخيرات تأتيهم من الملوك والأمراء والأغنياء والأثرياء ، وقفاً على فقراء البلد وذوي الحاجات، الذين لا سبيل لهم اليها ، فكان مبدؤهم وسيرتهم أن « تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ على فقرائهم »، فكانت مائدتهم من أوسع الموائد وأغناها ، لجميع طبقات الناس ، كما كان قلبهم من أوسع القلوب وأسخاها لجميع الناس ، وقد أثر عن سيدي عبد القادر الجيلاني ، الذي يعبر فيه عن جميع إخوانه، ومن كان على شاكلته ، أنه قال : « كفّي منقوبة لا تضبط شيئاً ، لو جاءني ألف دينار ، لم تبت عندي [1] » . وقوله : « أودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمتها الجائع [2] » .

وكان لأبعد ثغور الاسلام ، ولأقصى أطراف العالم الاسلامي ، من هذه السيرة ، ومن هذا الضرب من الناس ، ومن هذا الطراز الإنساني نصيب غير منقوص . وتراجم هؤلاء المخلصين الربّانيين ، والدعاة المربّين حافلة بنوادر الحكايات ، وروائع الأخبار في الزهد والإيثار ، والمواساة ، والمساواة ، والأريحية ، والنهامة ببذل الأموال . وحسبنا أن نعرض نموذجين من هذه النماذج التي تكاد تكون مطّردة في حياة هذه الطبقة ، وسيرها متشابهة ، وأخلاقها متشاكلة ، كتشابه الأوراق في الشجرة ، فكلهم من غرس تعاليم النبوة ، وفروع شجرة : « أصلها ثابت ، وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها [3] » .

منها أن الشيخ نظام الدين الدهلوي ، من رجال القرن الثامن الهجري ، يقول خادمه ، إنه كان يترك الطعام المنوّع الفاخر عنده للتسحُّر. فكان يجتزىء بلقيمات ؛ ويقول ، أجده في بعض الأيام ، لم يتناول منه شيئاً ، وكنت أراه ، لا

---

(١) قلائد الجواهر – ص ١٠ .
(٢) ايضاً – ص ١٠ .
(٣) سورة ابراهيم – ٢٠ .

يُفطر إلاّ بما يقيم الصلب . فقلت له يوماً ، نفسي فداك ، كيف يحافظ سيدي على حياته وصحته مع هـــذا القليل من الغذاء ؟! ففاضت عينه على ذلك ، وغلبه البكاء ، وقـــال ، يا فلان ! كم من فقير بائس ، وكم من مسافر بات في المساجد والطرقات على الطّوى ، لم يجدوا لقمة ، يتقوّون بها ، فكيف أسيغ هـــذا الطعام ، والنّاس يبيتون جياعاً ، ويصبحون جياعاً،[1] فلمّا دنت وفاته طلب أصحابه وقال لهم ، إذا ادّخر اقبال (خادمه) شيئــاً من الحبوب والغلات ، فاشهدوا انـّي بريء من ذلك وأنه هو المسؤول أمام ربّه ، فقال إقبال : إنـني لم اترك شيئاً ، وقد تصدّقت بكل ما وجدته الا حبوباً يأكلها المقيمون في هذه الزاوية بضعـة ايّام ، فقال : ادعوا لي النّاس ، فلمّا حضروا قال : دونـكم الحبوب ، وما تجدون في هذه الزاوية من الرزق والطعام ، فنهبوه نهباً ، وأمرهم بأن يكنس ذلك المكان ويجعلوه قاعا صفصفا .

والنموذج الثاني ما رواه مؤرخ هندي عن الشيخ السيّد محمد سعيد الأنبالوي وهو من رجال القرن الثاني عشر فيقول : « زاره مرة روشن الدولة، وكان اميراً من امراء السلطان « فرّخ سير » (ملك الهند المغولي) . وقـدّم ستّين الف روبية [2] لبناء زاويته ، فأمره الشيخ ان يترك هذا المال في مكان ويستريح ، فانصرف « روشن الدولة » فأرسل الشيخ الى الفقراء ، وارسل هـذا المال الى الايامى والمساكين ، واهل الحاجة في ضواحي البلد ، وفي المدن المجاورة حتى لم يبق منه فلس ، فلما اتى روشن الدولة .قال له : « لا يبلغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة ، والفقراء الذين احصروا في سبيل الله ».ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير ، والأمير روشن الدولة والأمير عبد الله خان ،

---

(١) سير الأولياء .
(٢) تساوي أربعة آلاف جنيه استرليني ، وإن قدرت قوتهـا الشرائية ذلك اليوم ، تصبح أضعافاً مضاعفة .

وأمر بثلاث مائة الف روبية [1]. فوزّعها كلّها في القرى المجاورة ، والأشراف الساكنين فيها » [2].

وقد يقول القارىء ان هذه سيرة طبقة زهدت في الدنيا ، ورفضت إسبابها وعاشت في عزلة عن الدنيا وعن النّاس . فهل هناك امثلة لهذه الزهادة والبرّ والمواساة والاستغناء والإيثار في طبقات أخرى من هذه الأمة ؟ ويجيبهم التاريخ الأمين فيقول نعم ! وفي كل طبقة من طبقات هـذه الأمة ، وفي كل جيل من أجيالها ، وفي كل بيئة من بيئات دنيا الإسلام من انتسي بالرسول صلى الله عليه وآله وسلّم ، واتى بغرائب في هذه الأخلاق وفي سيرته في ماله وفي عياله وجيرانه واهل بلده وابناء جنسه ، ولكن التاريـخ لم يسجّل الا مآثر من لفت نظره وفرض عليـه ذكره وتسجيل حوادث حياته وجوانب شخصيته ، من الملوك والأمراء ، والصلحاء ، والعلماء ، ونقتصر هنا على طبقتين فحسب ، وهما طبقة العلماء الأعلام ، وطبقة الملوك والحكام .

نختار من طبقة العلماء الأعلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيميّة الذي ينتقـد عليه من لا يعرفه الجفاف ، ويعتقدون أن الجانب العلمي فيه يطغى على الجانب العاطفي ، يقول عنه معاصره الحافظ ابن فضل الله العمري :

« كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيـــل المسوّمة ، والأنعام ، والحرث ، فيهب ذلك بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيئاً إلاّ ليهبه ، ولا يحفظه إلا ليُذهبه » ، وقـد بلغ من السخاء والإيثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثياب ، ويقدمها الى السائل ، إذا لم يجد شيئاً آخر ، يقـــول الحافظ ابن فضل الله : « كان يتصدّق ، حتى اذا لم

---

(1) تساوي ١٤٠٠٠ جنيها استرلينيا .
(2) نظام التعليم والتربية (في أردو) المجلد الثاني – العلامة (مناظر حسن الكيلاني) .

يجد شيئاً ، نزع بعض ثيابه ، فيصل به الفقراء »، ويقول أحد الرّواة : « وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه [1] »

ونختار من طبقة الملوك والحكام ، السلطان صلاح الدين الأيوبي ، الذي حكم أكبر دولة إسلاميّة في عهده ، وهزم أقوى جيوش في عصره، يشهد عنه صديقه ورفيقه ابن شداد ، فيقول : « إنه ملك ما ملك ، ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة الا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، ومن الذهب إلاّ جرم واحد صوري ، ما علمت وزنه » .

ولمّا مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشمالية في آسيا إلى صحراء النوبة في الجنوب، في افريقيا ، لم توجد في خزانته ما يكفنونه به، وينفقون على تجهيزه ، يقول ابن شدّاد :

« ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ، ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط ، وكان ذلك ، وجميع ما احتاج اليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه [2] .

وليست هذه قصة جيل واحد ، ولا قصة مدرسة واحدة من المدارس الفكريّة والروحيّة الكثيرة ، فلم يزل هذا شعار العلماء الربّانيين ، والشيوخ الكاملين ، ولم يزل مبدأهم « لكل يوم رزقه وقوته » فلم يكونوا يدّخرون شيئاً ولا يشحون بشيء خشية الإقتار ، وعلى ذلك أدركنا شيوخنا ، وأساتذتنا ، فكانوا يتحرجون من أن يفضل عندهم شيء يحتاج اليه عباد الله، أو يبيت عندهم درهم أو دينار ، وهم في غنى عنها ، وكان ذلك في غير رهبانيّة أو تحريم لما

---

(١) الكواكب الدرية .

(٢) النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ٢٥١ .

أحلّ الله ، وكذلك في غير تشريع لما لم يشرعه الله، ولا في تشديد فيما لم يشدّد الله فيه ، ولا في إجبار وإرهاق ، ولكنه خوف من المحاسبة ورأفة بالخلق ، وتأسٍّ بأسوة الرسول، وسيرته في الإنفاق والإيثار ، وتطوع وتبرع ، وترغيب صامت بالأمثال العملية ، والنماذج الحية ، وكان لها التأثير العميق في النفوس والقلوب ، ما يحمل التلاميذ والمحبين على التقليد ، والإتّباع[1] .

إمتياز المجتمع الاسلامي في العصر الأخير :

فكان المجتمع الإسلامي – على علاّته وعلى أدوائه الكثيرة ، التي لم يزل المصلحون يحاربونها – أفضل المجتمعات البشرية في عاطفة البر والمواساة ، التي تغلغلت بفضل التعاليم الإسلامية في احشائه ، وأكثرها تحرراً من عبادة المادة والمعدة ، يكثر فيها الأفراد الذين يثورون على سلطان المادّة ، ويخضعونها لسلطان الدين ، والمثُل الخلُقية الإسلامية ، فكان التنافس التجاري والأثرة الفردية أو الطبقة ، أضعف فيه منه في المجتمعات التي لا تؤمن بحياة ، غير هذه الحياة ، ولا تعرف غاية غير غاية الثراء والرخاء[2] ، وتسوقها المثل

(١) اقرأ نماذج هذا الايثار والصفاء في كتابنا « ربانية لا رهبانية » طبع دار الفتح في بيروت .

(٢) حدثني بعض الثقات المعمرين الذين ادركوا عهد الأشراف في الحجاز ، أن تجار مكة كانوا في ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم والنظر في مصالحهم ، والإخلاص والايثار لهم ، قال : « كان بعض التجار ، إذا أتاه زبون في آخر النهار ، وقد باع ما يكفيه لقوت يومه ، ومـا حدده من الربح والوارد اليومي ، ولم يكن جاره سعيد الحظ في ذلك اليوم ، قال له في لطف وهدوء : مونك هذا الدكان ، الذي هو بجواري ، تجد عنده ما تجده عندي ، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم ، فهو أحق بأن تشتري منه » .

الإقتصادية سوقاً عنيفاً ، لا رجعة فية ولا هوادة ، فكانت هذه سمة المجتمع الإسلامي ، رغم أنه بلغ منتهى الضعف في العصر الأخير ، وكان اكثر استعداداً وقابلية للتقدم في مضمار العدالة الإجتماعية ، وتحقيق المـُثل الإنسانيّة العليا . من كل مجتمع بشري ، لخضوعه للمبادىء الاسلامية في قليل أو كثير ، ولوجود الرباط الايماني الذي يربط أفراده ويجمع أشتاته .

مواساة طوعيّة شاملة ، أم مساواة اجبارية محدودة ؟ :

ثم جاء أقوام فقدوا الثقة بالانسان والانسانية ، ففضّلوا المساواة الاجبارية المحدودة في المال ، على المواساة الطوعية الشاملة للحياة ، ونسوا او تناسوا ، أن الأموال ، ليست هي حاجة الانسان الوحيدة ، وان المساواة فيها أو الشركة

— ويتحدث الاستاذ محمد أسد النمساوي ، عن مدينة اسلامية عربية كبيرة (هي دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلي : « وقفت على ذلك الاستقرار الروحي ، في حياة سكانها ، إن أمنهم الباطني كان يمكن ان يرى في الطريقة التي كان احدهم يتصرف بها نحو الآخر» ويذكر تلك الطرق ، ثم يقول : « وفي الطريقة التي كان اصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً ، اولئك التجار في الحوانيت الصغيرة . اولئك الذين لا ينون ينادون على المارة ، اولئك كانوا يبدون ، وكأنما ليس فيهم ايما قدر من الخوف والحسد ، حتى ان صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه ، كلما دعته حاجة الى التغيب بعض الوقت . وما اكثر ما رأيت زبوناً يقف امام دكان غاب صاحبه عنه ، يتساءل في ما بينه وبين نفسه ، ما اذا كان ينتظر عودة البائع ، او ينتقل الى الدكان المجاور ؟ فيتقدم التاجر المجاور دائماً — التاجر المزاحم — ويسأل الزبون عن حاجته ، ويبيعه ما يطلب من البضاعة — لا بضاعته هو ، بل بضاعة جاره الغائب — ويترك له الثمن على مقعده . اين في اوربا ، يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة ؟ » (الطريق الى مكة ص ١٦٧) .

لا تسد كل فراغ في نفسه ، وفي مشاعره، وأحاسيسه ، وفي حياته ، ولا تضمد كل جرح من جروحه . ان حاجته الى مواساة شاملة للحياة كلها ، أشد من حاجته الى مساواة في المال كله ، وفي المرافق كلها ، وفي الموارد بأسرها ، وقد تفعل كلمة رقيقة ، أو دمعة بريئة يثيرها الشعور بالألم ، ما لا تفعله الأموال الطائلة ، والعطايا السخية ، وهو في حاجة الى مساعدة اخوانه ، واعانتهم في بعض الأحيان ، والى مشاركتهم في آلامه ومتاعبه في أحيان أخرى ، والى رقة شعورهم ودقة احساسهم حيناً، والى لين عريكتهم ، ودماثة خلقهم وبشرهم، وحسن لقائهم حينا آخر. ولذلك كان التوجيه النبوي أشمل لأنواع البر والمواساة واصدق تعبيراً عن الأحاسيس الانسانية ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو يذكر طرق البر وانواع الصدقة : « تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، او ترفع له عليها متاعه ، صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها الى الصلاة صدقة . وتميط الأذى عن الطريق صدقة[1] » . وفي حديث آخر : « قال ، يعين ذا الحاجة الملهوف ! قال : أرأيت ان لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف او الخير . قال: ارأيت ان لم يفعل؟ قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة [2] » وفي حديث آخر : « قال : تعين صانعاً او تصنع لأخرق . قلت : يا رسول الله : ارأيت ان ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : تكف شرك عن الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك [3]» . وفي حديث آخر : « وتبسمك في وجه اخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في ارض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو اخيك لك صدقة (١) . » .

وكانت نتيجة ذلك الإختيار غير الموفق ، وإيثار المساواة ، أو الإشتراكية التي تفرضها الحكومة ، على المواساة التي تنبع من أعماق القلوب ، وتتدفق في نواحي الحياة ، وفي عروق المجتمع ، أن قام مجتمع في هذه البلاد : « الشيوعية والإشتراكية » لا يعرف أهله لذة المواساة لبني الجنس،والعطف على الإنسانية. والرقة للضعفاء والفقراء ، والإخلاص والنصيحة للشركاء والزملاء ، ويصحون كلهم تجاراً متنافسين ، وأعداءاً متباغضين ، لا يثق أحد بأحد ، ولا يتنازل أحد لأحد ، بعضهم يتجسس على بعض ، ويلفق عليه الأخبار ، ويزور عليه القضايا ، ويشمت بمصابه ، ويحزن لسعادته ، ويتحول البلد كله إلى ميدان حرب ، أو بناء محكمة .

وكانت نتيجة هذا الوضع أن فقد الناس الشعور بالمسئولية ، والنهوض بالتبعات الذي فيه سر الشرف الإنساني ، وتخلوا عن كل عهدة ومسئولية ، وأصبحوا هملا وسوائم ، لا هم لهــا ، إلا العلف والرتع ، والشبع المفرط ، وانتقلت كل مسئولية وكل تبعة إلى الحكومات ، وإلى الجهاز الإداري ، وإلى القوانين والعقوبات ، وأصبح المجتمع غلاماً قاصراً ، لا تمييز عنــده ولا عقل ، فالحكومة هي التي تأخـذ وتعطي ، وتـهيىء لكل فرد حاجته ، وتتكفل بذلك ، فلا معنى للعطف والمواساة ، ولا معنى للسخاء والإيثار ، ولا حاجة إلى شيء من ذلك ، فكل شيء مكفول مضمون ، والناس كالآلات الصماء .

لقد تجلت قواعد المواساة الطوعية ، ونتائجها الباهرة ، وما جرت على أهلها ، من الراحة والهدوء والسعادة الداخلية ، والثقــة المتبادلة ، والحب المشترك ، والسلام الشامل ، ولذة الروح، ورضا الضمير ، والإعتزاز بالإنسانية

---

(١) رواه الترمذي عن ابي ذر مرفوعاً .

والتفاؤل في الحياة ، وشعور كلّ فرد بمسؤوليّته وواجبه ، لقد تجلّى كل ذلك في المجتمع الإسلامي المثالي الأول في أروع مظاهره ، وأجمل مناظره ، وأعمق معانيه ، ويتجلى في كل مجتمع يأخذ بمبدأ المواساة الطوعيّة الشاملة ، مقابل المساواة الإجباريّة المحدودة ، أو الإشتراكيّة الضيّقة الجامدة ، فأعضاء المجتمع متحابّون ، متناصحون ، شهداء بالخير يُزكّي بعضهم بعضاً . وكل جيل يشهد للجيل الذي سبقه بالفضل والسّبق ، ويدعو له بالقبول والمغفرة ، « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان،ولا تجعل في قلوبنا غلاً للّذين آمنوا ، ربّنا إنّك رؤوف رحيم » (١) ذلك هو المجتمع الذي كان كل عضو من أعضائه مرآة لأخيه يقيه على نفسه ، فينفي عنه كل تهمة ، ويبرّئه من كل نقيصة ، فقد قال الله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ، ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفك مبين » (٢) المجتمع الذي ضرب فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلّم مثلاً بليغاً ، فقال :

« مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى » (٣). المجتمع الذي كل عضو فيه حارس كريم ، وناصح أمين لصاحبه ، فقد جاء في الحديث : « المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كلّ المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه » (٤) .

حين أصبحت الحياة في بلاد كثيرة شقاءاً وجحيماً: « كلّما دخلت أمة لعنت أختها » (٥) وكلّما جاء « دكتاتور » انتقد السابق ، ورماه بالغدر والخيانة

(١) سورة الحشر ١٠ .
(٢) سورة النور - ١٢ .
(٣) حديث متفق عليه .
(٤) رواه الترمذي عن ابي هريرة رضي الله عنه .
(٥) سورة الاعراف - ٣٨ .

وكلّ من تسلّم زمام القيادة ، انتقم من أعدائه ومنافسيه ، انتقاماً شديداً ، واضطهد وحاكم ، وسفك الدماء ، « وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحبّ الفساد »[1] .

فمن أبى إلا الطريقة الشاقّة الطّويلة ، والتجربة المرهقة العقيمة ، قيل له ، ولأمثاله :

« أتستبدلون الذي هو أدنى ، بالذي هو خير ، إهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم »[2] .

---

(١) سورة : البقرة ٢٠٥ .
(٢) سورة : البقرة ٦١ .

الصِّيَامُ

الصِّيَامُ

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب
على الذين من قبلكم لعلكم تتقون [1] » .

مخلوق وسط بين الملائكة والحيوانات :

خُلق الإنسان وسطاً بين الملائكة والحيوانات ، ورُكّبت فيه طبائع هذين الجنسين المتناقضين تركيباً لطيفاً ، حكيماً بديعاً ، فهو مزيج غريب من الخواص الملكية ، والخواص الحيوانية ، ومن الأخلاق الإلهية ، والعادات الحيوانية ، ذلك ، لأن منصبه الذي رُشّح له ، وغايته التي طُلب منه أن يبلغها ويحققها ، ووُضع فيه استعدادها وحبُّها ، لم يُرشّح له الملائكة ، ولم يُخلق له الحيوانات ، وذلك منصب الخلافة ، ومركز الأمانة ، وغاية العبادة : « وإذ قال ربك للملائكة ، إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبّح بحمدك ونُقدس لك . قال : إني أعلم ما لا تعلمون [2] » . « إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً [3] » وما

(١) سورة البقرة ١٨٣ .
(٢) سورة البقرة ٣٠ .
(٣) سورة الأحزاب ٧٢ .

خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمون [1]» .

مقتضى « الخلافة » ولوازمها :

وكان منصب الخلافة يقتضي المناسبة القوية ، بالمستخلف المنيب ، والمناسبة القوية بالمكان الذي يتولى الخلافة فيه ، والمخلوق الذي يتولى السيادة عليه ، والحكم فيه ، فأخذ من الأول أشباح أخلاقه ، وظلال صفاته كسمو ، ونزاهة ، وصمدية وغنى ، ورحمة وكرم ، ورأفة وبر ، وصبر وحلم ، وقوة وقهر ، وصفاء وتجرد ، وأمن وسلام . وقد ظل في جميع أطواره البشرية ، وأدواره التاريخية يجد اللذة ويعتقد العزة في هذه الأخلاق ومظاهرها ، ويخضع لحملتها وأصحابها ، ويدين لهم بالحبّ والإجلال ، إذا تجرد عنها وعجز عن التحلي بها ، أو تقاصرت عنها همته ، وضعفت إرادته .

وأخذ من الثاني خواصّه وطبائعه ، وشاركه في مواضع ضعفه ، ليشاركه في آلامه وآماله ، ويُحسن سياسته ، وينتفع بكنوز الأرض وخيراتها ، ويتمتّع بنعمها وطيباتها ، ويضع ما خُلق فيه مواضعه ، فوُضعت فيه شهوة الطعام والشراب ، ورُكّبت فيه الغريزة الجنسية وخُلق فيه الجوع والعطش ، وعُجنت طينته مع اللذة وحبها وطلب المزيد الجديد ، وأُلهم الصناعة والمدنية ، والتأنّق في الطعام والشراب .

تجاذب الروح والجسد ، الى مركزهما ، وخصائصهما :

ولذلك كان مجموعاً من روح وجسد ، فالروح هي التي تجذبه إلى أصلها

---

(١) سورة الذاريات ٥٦ - ٥٧ .

ومنبعها ، وتذكّره بمنصبه ومركزه ، وغايته ومهمته ، وتفتح فيه الكوّة إلى العالم الذي انتقل منه ، وإلى سعته وجماله ، ولطافته وصفائه ، وتثير فيه الأشواق والطموح ، وتبعث فيه الثورة على المادة الكثيفة الثقيلة ، وتُزيّن له الإنطلاق من القفص الضيق الخانق ، وإن كان من ذهب ، والتحليق في الأجواء الفسيحة التي لا نهاية لها ، وفك السلاسل والأغلال من عادات ومألوفات ، ولذّات وحاجات ، ولو حيناً بعد حين ، وفي شهور وسنين ، وتحبّب إليه الجوع والعطش مع وفرة الطعام وكثرة الشراب فيشعر فيهما بلذة ، لا يشعر بها في أطايب الطعام والشراب ، ويعدُّ ذلك الوقت القصير الذي يمضي في فراغ الخاطر وصفاء النفس ، وخفّة المعدة ، وإشراق الروح ، والتجرد من الشهوات ، والتحرر من النظام الرتيب الخشيب ، قيمة الحياة ولذّتها ، وسرور النفس وبهجتها ، فلا يزال يحن اليه حنين الطائر الى الوكر ، وحنين السمك إلى الماء ، وذلك كله صنع الروح التي أُودعت فيه ، وانتقلت اليه من عالم الغيب : « ويسئلونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي [1] » « ونفخت فيه من روحي [2] » .

والجسد هو الذي يجذبه إلى أصله ومركزه ، وهي الأرض — بكثافتها وتبلدها ، وثقلها وسفالتها — « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون [3] » « فاستفتهم أهم أشدُّ خلقاً أمّن خلقنا ، إنّا خلقناهم من طين لازب [4] » « خلق الإنسان من صلصال كالفخار [5] »، فإذا ضعف سلطان الروح،

---

(١) سورة بني اسرائيل ٨٥ .
(٢) سورة (ص) ٧٢ .
(٣) سورة الحجر ٢٦ .
(٤) سورة الصافات ١١ .
(٥) سورة الرحمن ١٤ .

أو زال حكمها ، وتقلّص ظلها ، وملك الجسد زمام الحكم ، استرسل الإنسان في لذاته وشهواته ، ورتع فيها رتع البهائم السائمة ، وجُنَّ بها جنوناً ، وأبدع فيها ألواناً وفنوناً ، وتخطّى حدود العقل والعرف ، والصحة والطب ، والعدل والشرع ، وانصرفت همّته وذكاؤه ، وإبداعه وعبقريته الى التفنن والتدقيق ، والإسراف والإكثار من أنواع الطعام والشراب ، والتهامها ثم انهضامها ، وما يبعث فيه الشهية ، ويُوقظ فيه الجوع ، ثم يعينه على الهضم ، ويعدّه للوجبة الثانية ، « فيصبح وهو في أوج مدنيته وحضارته ، وقمة علمه وثقافته ، كحمار الطاحون أو كثور الحرث ، يدور بين المطعم والمرحاض ، ومائدة الطعام والبالوعة[1] » لا يعرف سوى ذلك مبدءاً ومعاداً ، ولا يعرف غير الطواف بينهما شغلاً وجهاداً فتموت فيه كل رغبة إلا رغبة الطعام والشراب ، ويتبلّد فيه كل حس إلا حس اللذة والمتعة ، ويزول عنه كل همّ ، الا هم الكسب ليأكل ، والأكل ليكسب. ولا تصوير أدقُّ وأصدق من تصوير القرآن المعجز ، « والذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنّار مثوىً لهم[2] » وما ذاك إلا طبيعة الجسد الذي تحرر من سلطان الروح ، وحُرم توجيه النبوة وارشادها ، وانقاد للنفس والهوى ، ونتيجة انجذابه الى أصله ومصدره : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون[3] » .

---

(١) الفكرة مقتبسة من مقال للاستاذ عبد الباري الندوي في مجلة « البعث الاسلامي » .

(٢) سورة محمد – ١٢ .

(٣) سورة الأعراف ١٧٥ – ١٧٦ .

أثر انتصار كل من الروح والجسد، في حياة الانسان وفي تاريخ الاديان والاخلاق :

وما تاريخ الإنسان الديني والخلقي، إلا قصة صراع بين الطبيعتين، وتأرجح بين نهايتين، فأحياناً تغلبت الطبيعة الأولى، وتطرفت، فابتدعت الرهبانية، وغلت في التقشف في الحياة، ورفض الطيبات والمباحات وإرهاق الطبيعة وإجهاد النفس، فأطال الإنسان الجوع وادام السهر، والتجأ الى الغابات والمغارات، ورأى السعادة والسمو الروحاني، في تعذيب النفس وإيلام الجسم. وما قصة غلاة القرون الوسطى في اوروبا بخبر مجهول[1] : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها[2] » فلم تكن نتيجة ذلك الا ان ضعفت الأجسام والعقول، وانحلت الروابط، وتعرض المجتمع الإنساني لخطر محدق، وتخلى الانسان عن منصب الخلافة الذي أكرمه الله به. وانسحب من ميدان الكفاح والمسؤولية، واتخذ « الملك » له المثل الأعلى وصار يحسده، ويطمح اليه بعدما كان محسوداً للملائكة ومسجوداً لهم.

وتغلبت الطبيعة الثانية، الطبيعة الجسدية الأرضية، أحياناً كثيرة، فانفلت الإنسان من كل قيد من قيود العقل والشرع، ومن كل سلطة من سلطات الروح والأخلاق، وانساق لدواعي المادة والمعدة، وانجرف معها انجرافاً، فأمعن في إرضاء شهواته البدنية، وتحقيق رغباته المادية، لا يعرف لذلك حداً ولا نصاباً، فانطفأت شعلة الروح والقلب، وتضخمت المعدة على حساب العقل والضمير وتوسعت، فصار لا يكفيه قوت أسرة أو قبيلة، ونشأت في

(١) اقرأ كتاب « تاريخ الأخلاق في اوروبا » (History of European Morals) (للاستاذ « لبكي ») أو راجع كتابنا : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين »، الفصل الأول من الباب الرابع.

(٢) سورة الحديد ٢٧.

جسمه معده صناعيه خيالية ، وفي حياته جوعة وهمية أسطورية ، لا يُشبعها أعظم مقدار من الطعام والشراب ، ومن الذخائر والمستودعات ، ومن الإيراد والغلات . فنشأت مظالم وجرائم ، وأصبح الإنسان حيواناً مفترساً ضارياً ، يفترس بني نوعه ، ويزدرد أفراد أسرته ، وما قصة الحروب والغارات ، والفتوح والإنتصارات — حاشا الجهاد الديني المقدّس — إلاّ قصة الجشع الفردي ، أو الجماعي ، وقصة الغرام بالتمتّع والرّئاسة ، والعلوّ في الأرض .

تأثير التخمة والنهامة في الاخلاق والاذواق :

وإذا تغلّبت هذه الطبيعة الحيوانيّة ، وملكت زمام الحياة ، واستحوذت على مشاعر الإنسان وحواسّه ، وأصبحت « المعدة » هو القطب الذي تدور حوله الحياة ، شقّ على الإنسان كل ما يحول بينه وبين رغبته ، وما يشغله عن ارضاء نهمته ، وكل ما يذكّره بمبدئه ومصيره ، وما يصوّر له الحساب والإحتساب ، والجزاء والعقاب ، فلا يجد في أعوام طوال وقتاً صافياً ، وقلباً فارغاً ، وعقلاً يقظاً ، وضميراً حيّاً ، فتثقل عليه العبادة والذكر وما يتّصل بها ، ولا يجد لذتها بطبيعة الحال ؛ « وإنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين . الذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم وأنّهم اليه راجعون » [1] « واذا قاموا الى الصلاة ، قاموا كسالى ، يرآؤن النّاس ، ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً » [2] .

اغاثــة النبوّة للانسانيّة وتشريعها للصوم ، لتحقيق المثل العليا وغايات الحياة الانسانية الحقيقية :

وجاءت النبوة في أزمان مختلفة ، وأمكنة مختلفة ، تُغيث الإنسانيّة المهدّدة

---

(١) سورة البقرة ٤٥ - ٤٦ .

(٢) سورة النساء ١٤٢ .

بالماديّة الطاغية ، وتبديل الرّوح والأخلاق، والمشاعر اللطيفة، والقلب المخنوق المفلوج من طغيان الشهوات ، وقوة المعدات، وتقيم الموازين القسط في الحياة، وتُعدّ الانسانَ إعداداً جديداً لتحقيق الغاية التي خُلق لها ، وهي « العبادة » والوصول الى الكمال المطلوب ، الذي هُيّئ له ، وهي « الولاية » وإكمال المهمّة التي أُهبط لها في الأرض وهي « الخلافة » .

وذلك لا يتحقّق بروحانيّة ملكيّة ولا بماديّة بهيميّة . فأمرت بالصوم ليُحدّ من شِرّة هذه الماديّة المَعِديّة ، ويُعيد للنفس ما فقدته من حياة ونشاط ، ومن جدّة وقوّة ، وليشحنَها شحناً روحانياً ايمانياً ، تستطيع ان تحفظ به اعتدالها في الحياة ، وتُقاوم به مُغرياتِ الشهوة ومفاسد التّخمة ، وتتخلّق ببعض اخلاق الله ، وتنال منها نصيباً ، فتسعد به وتسمو ، وتلتحق بالملائكة والملأ الأعلى ، فترتع في رياض الروح والقلب ، وتسرح في ملكوت السموات والأرض ، وتعرف لذّةً لا عهد لها بها في الوان الطعام والشراب ، وفي الشبع المُفرِط والتّخمة المُملّة .

مقاصد الصوم وأثره في النفس والحياة :

وقد اشار الى ذلك حجة الاسلام الغزالي في اسلوبه الخاص ، فقال :

« المقصود من الصوم ، التخلّق بخُلق من اخلاق الله عزّ وجلّ ، وهو الصمديّة ، والاقتداء بالملائكة في الكفّ عن الشهوات بحسب الامكان ، فإنّهم منزّهون عن الشهوات ، والانسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه ، وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلّما انهمك في الشهوات انحطّ الى اسفل السافلين ، والتحق بغمار

البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى اعلى علّيين والتحق بأفق الملائكة » [١]

ويزيده العلاّمة ابن القيّم ايضاحاً وتفصيلاً فيقول :

« المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانيّة ، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تزكو به ممّا فيه حياتها الأبديّة ، ويكسر الجوع والظمأ من حدّتها وسورتها ويذكّرها بما للأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرّها في معاشها ومعادها ، ويسكّن كل عضو منها ، وكل قوة عن جماحه ، وتلجم بلجامه ، فهو لجام المتقين ، وجنّة المحاربين ، ورياضة الأبرار والمقرّبين » [٢] .

ويمضي ابن القيّم ببلاغته في شرح أسرار الصوم ومقاصده ، فيقول :

« وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة ، التي إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها ، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها ما استلبته منها ايدي الشهوات ، فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتّقون » [٣] وقال النبي ﷺ : « الصوم جُنّة » ، وأمر من اشتدّت عليه شهوة النكاح — ولا قدرة له عليه — بالصيام ، وجعله وُجاء هذه الشهوة .

---

(١) إحياء علوم الدين - ج ١ - ٢١٢ .
(٢) زاد المعاد - ج١- ص ١٥٢ .
(٣) سورة البقرة : ١٨٣ .

والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة ، شرعه الله لعباده رحمة لهم ، وإحساناً اليهم ، وحمية وجُنّة »[1]

ويعود إلى الموضوع ، فيقول :

« لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى، متوقفاً على جمعيته على الله ، ولمّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى ، فإن شعث القلب لا يلمّه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام وفضول المنام ، مما يزيده شعثاً ، ويشتته في كل وادٍ يقطعه عن سيره إلى الله تعالى ، أو يضعه أو يعوقه ، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده، أن شرع لهم من الصوم ، ما يذهب فضول الطعام والشراب ، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى ، وشرعه بقدر المصلحة بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه ، ولا يضرّه ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة »[2] .

الصوم في الديانات القديمة :

لذلك اشتملت جميع الأديان ، والشرائع المعروفة في التاريخ على الصوم ، وطالبت به جميع من كان يدين بها ، فمن أقدم الديانات ، التي لا يزال عدد كبير من الناس يدين بها ، الديانة الهندية البرهميّة ، ويحدّث عنها الأستاذ T. M P. Mahadevan رئيس قسم الفلسفة في جامعة مدراس الهند ، وهو يشرح الصوم ومكانته في الشريعة الهندوكيّة ، والمجتمع الهندي :

---

(١) زاد المعاد – ج ٢ – ص ١٥٢ .

(٢) زاد المعاد – ج ١ – ص ١٦٨ .

« ومن الأعياد ، والأيام المحتفل بها في السنـة ، ما خُصّصت للصوم الذي تـقصد به تزكية النفس. إنّ كل طائفة من الطوائف الهندكيّة تـُخصص لنفسها أياماً تقضيها في الدعاء والعبـادة ، ويصومها أكثر أفرادها كذلك ، فيكفـّون عن الطعام ، ويسهرون الليل كلّه ، ويبيتون ، يتلون الكتب المقدّسة ويراقبون الله . ومن أعمّ هذه الصيام ، وأكثرها انتشاراً في الطوائف المختلفة، « ويكنته إيكاوشى » الذي يُنسب إلى « وشنو » فلا يصوم ذلك اليوم أتباع وشنو فحسب بل يصومه أكثر الناس ، فيصومون نهاره ويسهرون ليله

ومن الأيام مـا يصومها النساء فقط ، ويدعون الإلهـة « مظهر صفات الله النسويّة » في مختلف مظاهرها، وتسمّى هذه الأيام لأهميّتها الخاصة بـ « بَرَت » أو العهد ، وقـد خصّصت لتزكية الروح ، وغايتها تغذية الروح بالغـذاء الروحاني »[1] .

ولا يزال البراهمة يصومون في اليوم الحادي عشر ، والثاني عشر من كل شهر هندي ، وهكذا يبلغ عدد الأيام التي تـُصام عند البراهمة ٢٤ يوما في كل سنة ، إذا حافظوا عليها ، وتقيّدوا بها، وقد فاقت الديانة الجينيّة في الهند في التشديد في شرائط الصوم وأحكامه ، فأتباعها يواصلون أربعين يوماً بالصوم .

ويظهر الصوم عند المصريين القدماء بجوار أعيادهم الدينية ، وكان صوم اليوم الثالث من شهر «تهسموفيريا» اليوناني خاصاً بالنساء عند اليونان ، ولا تخلوا الصحف المجوسيّة عن الأمر بالصوم والحثّ عليه ، ولو لطبقة خاصة ، وتدل آية وردت في بعض كتبهم المقدسة على أن صوم خمسة أعوام كان فريضة على الرؤساء الدينيين »[2] .

---

(١) Out lines of Hinduism, Chapter 4 , Section - 6 .

(٢) مقتبس من كتاب « سيرة النبي » للعلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى (ج ٥ – ص ٢٨٦ – ٢٨٧) ، وقد استفاد المؤلف في ذلك من دائرة المعارف البريطانيـة ، (ج ١٠ - ص ١٩٣)

الصوم عند اليهود :

أما اليهود فقد كان الصوم ، يعتبر رمزاً للحداد والحزن عندهم في العهد البابلي ، وكان يلجأ إليه ، اذا هدّد خطر ، أو اذا كان كاهن أو «ملهم» يعدّ نفسه لإلهام ، أو «نبوّة» ، وكان اليهود يصومون موقتاً اذا اعتقدوا ان الله ساخط عليهم ، غير راضٍ عنهم ، أو اذا حلّت بالبلاد نكبة عظيمة ، أو خطب كبير ، أو اذا أصيبت البلاد بوباءٍ فاتك ، أو بجدب عام ، وفي بعض الأحيان ، عندما يعزم الملوك على مشروع جديد .

ايام الصيام المحددة الدائمة ، قديمة ومحدودة في التقويم اليهودي ، علاوة على يوم الكفارة ، يوم الصوم المقرر الوحيد ، في الديانة الموسوية ، وكانت هنالك أيام معينة للصوم الدائم ، في ذكرى حوادث أليمة ، وقعت لليهود في أيام الأسر في «بابل» ، وهي تقع في الشهر الرابع «تموز» وفي الشهر الخامس «آب» ، وفي الشهر السابع «تشري» وفي الشهر العاشر «تبت» (Tebet) ويرى بعض ربّيي «التلمود» أن صيام هذه الأيام إجباري ، عندما يعيش الشعب الإسرائيلي تحت قسوة الحكومات الأجنبية وفي اضطهاد ، ولا تلزم عندما يتمتع الإسرائيليون بأمن ورخاء .

وزيدت الى أيام الصيام هذه أيام اخرى ، تصام تذكاراً لكوارث ومآسي ، نزلت باليهود ، وأضيفت الى الأولى على مرّ الأيام ، وهي لا تعتبر إلزامية ، ولم تنل الحظوة الكافية عند الجمهور ، ومع اختلاف يسير يبلغ عددها إلى خمسة وعشرين يوماً .

وهنالك أيام صيام شعبية محلية ، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التي يسكنها اليهود منذ زمن بعيد ، وهي تذكار كذلك لكوارث وخطوب ، أصيبت بها هذه الشعوب في أوقات مختلفة واضطهاد وقسوة تعرضوا لها في بعض الحكومات وأيام صيام تصومها بعض الطبقات دون بعض في ذكرى وقائع ومحن في تاريخ اليهود ، وفي ذكرى مآتم وأفراح في حياتهم الشخصية . وصوم أول يوم من السنة

شائع في كثير من الطبقات، وهنالك أيام صيام تُشرّع، ويأمر بها الربّيُّون، اذا تعرّض الشعب لخطر، أو تأخر المطر، أو أصيبت البلاد بمجاعة، أو صدرت مراسيم قاسية، أو قوانين غليظة.

وأيام الصيام الشخصية المختارة، التي يفضلها بعض الأفراد دون بعض، شائعة في تاريخ اليهود منذ زمن مبكر، وهي أيام صوم تذكارية لبعض الحوادث الفردية، أو ككفّارة عن بعض المعاصي والآثام، أو لجلب رحمة الله وعفوه عند خطر داهم، أو بلاء نازل، وصوم تلك الأيام لايشجعها الربّيُّون، ولا يوافقون عليها اذا كان الصائم رجلا علمياً، أو استاذاً معلّماً، حتى لا يشوّش ذلك خاطره، أو يضعف صحته، وهنالك صوم يصام على إثر رؤيا مفزعة. ولما كانت الشريعة اليهودية لا تسمح بالصوم في أيام الأعياد، « فالتلمود » يبيح هذا الصوم في هذه الأيام، بشرط أن يكفّر عنه بصوم آخر في أيام عادية . .

والصوم عند اليهود يبتدىء من الشروق، وينتهي عند ظهور أول نجوم الليل، إلا صوم يوم الكفارة [1]، واليوم التاسع من شهر « آب[2]» فإنه يستمر من المساء الى المساء، وليس هنالك أحكام وتقاليد للصيام العادية. وقد رُغّب في الصدقة وإطعام المساكين، وخصوصاً توزيع العشاء المعتاد التقليدي.

إن الأيام التسعة الأولى من شهر « آب »، وبعض أيام بين اليوم السابع عشر من شهر « تموز » وبين اليوم العاشر من شهر «آب» تعتبر أيام صوم جزئي

---

(١) وهو اليوم العاشر من الشهر السابع (تشري) (Tishri) « كما في دائرة المعارف اليهودية » وفي كتاب « اليهودية في الاسلام » :

Judaism in Islam by Abraham I. katish (New York 1954) .

(٢) وهذا الصوم شرع تذكاراً لإحراق الهيكل المرة الأولى او الثانية .

فيُحرم فيها تناول اللحوم ، وتعاطي الخمور فقط [1] .

الصوم عند المسيحيين :

أما الصوم عند المسيحيين فيطول شرحه وتفصيله ، لأن الديانة المسيحية هي من أقل الديانات تشريعاً فقهياً وأحكاماً كليّة تشمل ادوار التاريخ والمجتمعات المسيحية والطوائف الدينية كلها وأكثرها تطوراً مع الزمن والعوامل السياسية والإجتماعية والاقتصادية احياناً ، ولذلك يصعُب ان يُطلق عليها اسم شريعة إلهية ، وقد حاولنا ان نقدم صورة موجزة عن الصوم عند المسيحيين وما مرَّ به من ادوار وأطوار .

« المسيح صام اربعين يوماً قبل ان يبـــدأ رسالته ، ومن المرجّح انه كان يصوم يوم الكفارة ، الذي كان الصوم المفروض في الشريعة الموسوية ، ككل يهودي مخلص ، انه لم يشرع احكاماً للصوم ، إنه خلّف المبادىء وترك كنيسته تُقنّن قوانين لتطبيقها ، وليس لأحد ان يزعم انه اصدر قوانين عن الصوم رأساً . اننا نقرأ في المصادر المسيحية حديثاً عن صوم « بولس » والمسيحيين الأولين ان المسيحيين الذين كانوا من السلالة الإسرائيلية ظلوا يصومون يوم الكفـــارة . وينوه به الراهب ليوك Luke كيوم يُحتفل به ، ولكن المسيحيين الذين ينتمون الى أصول اخرى لم يُلحوا على ذلك .

وبانتهاء القرن المسيحي الأول ونصف قرن بعد وفاةالقديس «بولس» نواجه رغبة ملحة في تقنين القوانين للصوم ، وقد كان ذلك موكولاً ، الى تقوى الصائم ، نرى الرهبان وبعض رجال الكنيسة يقترحون صياماً ليقاوم به المسيحيون الإغراءات (المادية والجنسية) . وكان يسود في ذلك العصر شعور بالواجب ، وتحذير عن ان يظل الصوم عملاً خارجياً لا يؤثر في نفس الصائم . ويتحـدث

---

(١) مقتبس وملخص من « دائرة المعارف اليهودية » المجلد الخامس . طبعة ١٩١٦ م . الولايات الامريكية المتحدة (Jewish Encyclopeadia) .

القديس « ايرينيس » عن أنواع من الصيام ، منها ما يستغرق اليوم ، ومنها ما يستغرق يومين ، أو بضعة ايام ، ومنها ما كان يستغرق اربعين ساعة متوالية. وقد استمر هذا الوضع مدة طويلة ، وكان صوم « جمعة الآلام او الصلبوت » صوماً شعبيا عاما ، وكان صوم يوم الأربعاء ، ويوم الجمعة في كل اسبوع شائعاً في بعض الأقطار في القرن الثاني المسيحي ، وكان الذين ينتظرون الإصطباغ (التعميد) ، يصومون يوما او يومين ، وكان يشترك فيه الذين يأخذون الإصطباغ والذي يتولى ذلك .

وهنالك خلافات جزئية في مناهج الصوم وأحكامه في الطوائف المسيحية[1]، وقد نال الصوم قسطا كبيراً من التنظيم والتقنين في فترة بين القرن الثاني والقرن الـ س المسيحيين، فقد اصدرت الكنيسة قائمة احكام وتوجيهات عن الموضوع، وقد اتسم الصوم بصلابة وشدة في القرن الرابع ، فقد انتقل من طور الرقة والتوسّع والمرونة الى طور الصّلابة والغلظة والتدقيق ، وقد حُدد اليومان اللذان يسبقان « عيد الفصح » بالصوم في هذا العصر ، وكان الصوم في هذين اليومين ، ينتهي في نصف الليل ، والمرضى الذين لا يستطيعون، أن يصوموا في هذين اليومين ، كان يُسمح لهم أن يصوموا يوم « السبت »، وقد سُجّلت في تاريخ المسيحية والمسيحيين في القرن الثالث أيام الصوم ، وكان هنالك اختلاف في نهاية الصوم ، فكان بعضهم يَنهي ويُفطر عند صوت الديك ، وبعضهم إذا أرخى الليل سدوله .

أما صوم أربعين يوماً ، فلا يُوجد له أثر إلى القرن الرابع الميلادي ، وكانت هنالك عادات وأوضاع للصوم يختلف باختلاف البلاد التي يسكنها المسيحيون ، فكان في « روما » صيام تختلف عن الصيام في « لانان » و « الاسكندرية » ، وكان بعضهم يُمسك عن تناول الحيوانات ، خلافاً لغيره ، وبعضهم يجتزى

---

(١) اقرأ التفصيل في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » .

بالسمك والطيور ، وبعضهم يُضرب عن البيض والفواكه ، وبعضهم يجتزىء بالخبز اليابس ، وبعضهم يكـُفّ عن كل ذلك ، وقد شُرعت أيام أخرى للصوم في القرون المتأخرة تذكاراً لحوادث وأيام تتـّصل بحياة المسيح وبتاريخ المسيحية يطول عدّها (١)، منها ما كان يستغرق ثلاث ساعات، وأربعا، يُمسك فيها الصائم عن الأكل والشرب؛ وقد حـُدّدت أيام مختلفة في القرون الوسطى للصوم في العالم المسيحي ، تطوّرت مع تقدّم الزّمن ، وهي تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد ، التي تحكـُم عليها الكنيسة المسيحيّة .

وبعد الإصلاح حـَدّدت الكنيسة الإنجليزيّة أيام الصوم ، ولم تـُقنّن قوانين وحدوداً للصائمين ، تاركة ذلك لضمير الفرد ، وشعوره بالمسئولية ، ولكن قوانين البرلمان الإنكليزي في عهد « ايدوزد السادس » و « جيمس الأول » و « مرسوم اليزبيت » فرض الإمساك عن اللحوم في أيام الصوم ، وبرّر ذلك بقوله : « إن صيد السمك ، والتجارة البحريّة ، يجب أن تـُشجّع وتـُربح » (٢) .

لذلك لمّا شرع الله الصوم في الإسلام ، وفرضه على المسلمين ، قال : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٣)

جناية التخيير وعدم التحديد ، والحرية الزائدة في الصوم ، على مقاصده ، وفوائده :

وقد تجردت بعض الأديان والشرائع القديمة عن تعيين أيام الصوم وتحديدها

---

(١) اقرأ التفصيل في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » .

(٢) مقتبس من مقال « الصوم عند المسيحيين (Fasting , Christian) في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » (Encyclopedia of Religions and Ethics) .

(٣) سورة البقرة : ١٨٣ .

بالبداية والنهاية ، وضبطها بالأحكام ، فكان الأمر بالخيار ، وكان الناس في كثير من الأديان مخيَّرين في اختيار الأيام التي يصومونها ، وفي تحديدها ، وكانوا مخيرين بين إمساك شامل عن المأكول والمشروب ، وبين تقليل من الطعام والشراب ، وكانوا مأمورين بترك بعض المطعومات ، واختيار بعضها ، كما جرى العمل به في بعض الديانات الهندية ، فيمسك بعضهم عن أكل اللحوم ، وبعضهم عمّا طُبخ على النار ، ويجتزىء بعضهم بألوان من الطعام ، أو بالماء المزوج بالملح [1] .

وقد جنى ذلك على الصوم قديماً ، فضيّعه وأضعف قوته ، فكان للانسان أن يصوم متى شاء ، وما شاء ، وأن يجتزىء بطعام واحد أو بشراب ؛ وأن يقتصر على المقدار القليل ، والأمر موكول الى الصائم ، فتطرّق الوهن ، وتسرّبت الخيانة الى النفوس ، وتخطّى الناس الحدود ، وصعُبت المحاسبة ، فرُب مفطر إذا حوسب تعلل بأنه قد صام فيما مضى ، ومن يدري ذلك ؟ ورب متجاوز في الأكل اذا وُجّه اليه النقد اعتذر بأنه المقدار القليل الذي أمر به في الصوم ، وهكذا ضاع الصوم في الأمم القديمة ، وفقد تأثيره وفوائده الرُوحية والخُلقية .

والى هذه الحكمة الدقيقة في التحديد والتعيين ، أشار شيخ الاسلام ، احمد ابن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه « حجة الله البالغة » فقال :

« واذا وقع التصدّي لتشريع عام ، وإصلاح جماهير الناس ، وطوائف العرب والعجم ، وجب أن لا يخيّر في ذلك الشهر ، ليختار كل واحد شهراً ليسهل عليه صومه ، لأن في ذلك فتحاً لباب الإعتذار والتسلّل ، وسداً لباب الأمر

---

(١) وهكذا كان يصوم زعيم الهند الكبير « غاندي » ويقلده بعض المضربين والمحتجين من زعماء الأحزاب ، ويسمى عندهم « برت » .

بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإخلالاً لما هو من أعظم طاعات الاسلام [١] ».

ثم يقول وهو يذكر الحاجة الى تعيين المقدار :

« ثم وجب تعيين مقداره لئلا يفرط أحد، فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه ، ويفرط مفرط ، فيستعمل منه ما يوهن أركانه ويذهب نشاطه ، وينفه[٢] نفسه ، ويزيره القبور ، وإنما الصوم ترياق يستعمل لدفع السموم النفسانية مع ما فيه نكاية بعطية اللطيفة الإنسانية ومنصتها ، فلابد من أن يتقدر بقدر الضرورة [٣] » .

تقليل الغذاء وتحديده ، أم إمساك مطلق ؟ :

ويقارن بين منهجين للصوم المعروفين عند الطوائف والأمم ، الأول الإمساك عن الأكل والشرب ، وما ينافي الصوم بتاتاً في مدة محدودة معلومة ، والثاني : تقليل الغذاء ، أو الإجتزاء بشيء واحد ، وترك بعض المرغوبات والمألوفات ، فيفضل الأول على الثاني ، في ضوء التجارب والتحليل العلمي ، وعلم النفس . يقول :

« ثم إن تقليل الأكل أو الشرب ، له طريقان ، أحدهما : أن لا يتناول منها الا قدراً يسيراً ، والثاني : أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات ، زائدة على قدر المعتاد ، والمعتبر في الشرائع ، هو الثاني ، لأنه يخفف وينفه ، ويذيق بالفعل مذاق الجوع والعطش ، ويلحق البهيمية حيرة ودهشة ، ويأتي عليها إتياناً محسوساً ، والأول ، انما يضعف ضعفاً يعبر به ، ولا يجد بالاً حتى يدنفه .

وأيضاً ، فإن الأول لا يأتي تحت التشريع العام الا بجهد ، فإن الناس على

---

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ ص ٣٧ .
(٢) نفه وأنفه الناقة : أعياها ، وأكلها .
(٣) حجة الله البالغة - ج ٢ ص ٣٦ .

منازل مختلفة جداً ، يأكل الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين ، والذي يحصل به وفاء الأول هو إجحاف الثاني [1] » .

ويذكر أنه لا بد من الإعتدال في هذا التوقيت والتحديد ، فيقول :

« ثم يجب أن تكون تلك المدة المتخللة غير مجحفة ولا مستأصلة، كثلاثة أيام بلياليها ، لأن ذلك خلاف موضوع الشرع ، ولا يعمل به جمهور المكلفين [2] ».

صيام مجموعة متتابعة ، أم متشتتة موزعة ؟ :

وكانت الأيام التي تصام في كثير من الديانات القديمة ، وعند طوائف من الامم ، أياماً موزعة مبعثرة في طول السنة ، تتخلل بينها فترات طويلة تفقدها التأثير في الأخلاق والميول والعادات ، ولا تجعل النفس تنصبغ بها ، فكان من المصلحة والحكمة ، أن تتوالى هذه الأيام وأن تتكرر ، يقول شيخ الاسلام الدهلوي رحمه الله :

« يجب أن يكون الإمساك فيها متكرراً ليحصل التمرّن والانقياد ،وإلا فجوع واحد ، أيّ فائدة يفيد ، وإن قوي واشتدّ [3] ».

وقد جاء التشريع الاسلامي للصوم مستوفياً لجميع هذه الشروط والصفات، محققاً لجميع هذه الأغراض والنتائج الروحية والخلقيّة ، والنفسية والاجتماعيّة وكان ذلك صيام رمضان الذي فرضه الله على المسلمين.

وتقدم صوم رمضان ، صوم يوم عاشوراء الذي كان اليهود يصومونه وكان

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج ٢ ص ٣٧ .
(٢) ايضاً : ص ٣١ .
(٣) ايضاً : ص ٢٧ .

كثير من العرب في الحجاز يصومونه كذلك، والموضوع يحتاج الى شيء من الشرح والتفصيل .

صوم عاشوراء :

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه . قال : « قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح ! هذا يوم نجى الله بني اسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى ، قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه ، وأمر بصيامه [١] » وفي رواية مسلم : « هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى » وزاد البخاري في الهجرة في رواية أبي بشر : « ونحن نصومه تعظيماً له » وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : « قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسئلوا عن ذلك، فقالوا : هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني اسرائيل على فرعون ، فنحن نصومه تعظيماً له ، فقال النبي ﷺ : نحن أولى بموسى منكم ، فأمر بصومه [٢] » وروى الطبراني في المعجم : « أنه عليه السلام لما دخل المدينة ، وجد اليهود صاموا عاشوراء ، فسأل أي يوم هذا ؟ قالوا : عاشوراء ، خلص فيه موسى عليه السلام من فرعون ، فقال النبي ﷺ : « نحن أحق باتباع موسى عليه السلام ».

وقد استشكل ذلك العالم الرياضي الكبير أبو الريحان البيروني[٣] (م ٤٤٠ هـ)، وشك في صحة الأحاديث الواردة في ذلك اعتماداً على الحساب ، ودراسة التقويم اليهودي ، وتطبيقه بالتقويم العربي ، قال في كتابه : « « الآثار الباقية عن القرون الخالية » :

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري . كتاب الصوم « باب صيام يوم عاشوراء ».

(٢) صحيح مسلم - ج ١ - كتاب الصوم - « باب صوم يوم عاشوراء » .

(٣) هو محمد بن أحمد الخوارزمي البيروني العالم الرياضي الفلكي الفيلسوف ، قيل إنه توفي سنة ٤٤٠ هـ وقيل ٤٥٠ ، وقيل غير ذلك .

« وقد قيل إن عاشوراء هو عبراني (١) ، معرب يعني عاشور ، وهو العاشر من « تشري » اليهود الذي صومه صوم الكِبُّور ، وأنه اعتبر في شهور العرب، فجعل في اليوم العاشر من أول شهورهم ، كما هو في اليوم العاشر من أول شهور اليهود ، وقد فرض صومه في أول سنة الهجرة ، ثم نسخه صوم رمضان الآتي بعده . وروي أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ، رأى اليهود يصومون عاشوراء ، فسألهم عنه ، فأخبروه ، أنه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وآله ونجّى موسى ومن معه . فقال عليه السلام : « نحن أحق بموسى منهم » . فصام وأمر أصحابه بصومه. فلما فُرض صوم شهر رمضان، فلم يأمرهم بصوم عاشوراء ولم ينههم .

وهذه رواية غير صحيحة ، لأن الإمتحان يشهد عليها ، وذلك لأن أول المحرم كان سنة الهجرة يوم الجمعة السادس عشر من تموز سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة للإسكندر . فإذا حسبنا أول سنة اليهود في تلك السنة كان يوم الأحد الثاني عشر من ايلول ، ويوافقه اليوم التاسع والعشرون من صفر ، ويكون صوم عاشوراء يوم الثلثاء التاسع من شهر ربيع الأول ، وقد كانت هجرة النبي عليه السلام في النصف الأول من ربيع الأول ... فما ذكروه من اتفاقهما حينئذ محال على كل حال » .

وقال :

« وأما قولهم : إن الله أغرق فرعون فيه ، فقد نطقت التوراة بخلافه . وقد كان غرقه في اليوم الحادي والعشرين من « نيسن » وهو اليوم السابع من

---

(١) أقول ، قال ابن منظور في لسان العرب « ج ٦ - ص ٢٤٥ » : وعاشوراء،وعشوراء ، ممدودان ، اليوم العاشر من المحرم ، وقيل التاسع ، قال الأزهري : لم يسمع في امثلة الاسماء اسم على فاعولاء ، الا أحرف قليلة » .

أيام الفطير ، وكان أول فصح اليهود بعد قدوم النبي المدينة يوم الثلثاء الثـــاني والعشرين من « آذار » سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة الإسكندر ، ووافقه اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، فاذاً اسس لما رووه وجه البتة [1] » .

وكلام البيروني – على غزارة علمه بالرياضيات وذكائه النادر – مؤسس على عدة افتراضات .

فمنها أنه فهم أن هذه المحاورة التي ذكرها ابن عباس وغيره ، كانت في أول يوم قدم فيه النبي ﷺ المدينة ، لأن ابن عباس رضي الله عنه قال : « لمّا قدم النبي ﷺ المدينة » أو (لما دخل المدينة) لذلك قال : قد كانت هجرة النبي عليه السلام في النصف الأول من ربيع الأول ، وقد نشأ هذا الوهم لعدم ممارسته لصناعة الحديث ، وجهله لأساليب كلام الصحابة رضي الله عنهم ، وتعبيراتهم ، فهذا أسلوب شائع في أحاديثهم . فقد روى أبو داود عن أنس بن مالك ، قال : « قدم النبي ﷺ المدينة ، ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقـال : ما هذان اليومان ؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية . فقال رسول الله ﷺ : قـد أبدلكم الله بهما خيراً منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر » فهل يفهم من ذلك أن قدومه صادف يوم عيد وفرح عندهم ؟ وهل يمكن أن يصادف يومين يلعبون فيهما ؟ وقد ورد نفس هذا التعبير في تأبير النخل وغير ذلك .

وقد نبّه على ذلك العلامة ابن حجر العسقلاني . قال :

« وقد استشكل ظاهر الخبر لاقتضائه ، أنه ﷺ حين قدومه المدينـة ، وجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ، وإنما قدم المدينة في ربيع الأول ، والجواب عن ذلك ، ان المراد ، أن اول علمه بذلك ، وسؤاله عنه ، كان بعـد أن قدم المدينة ، لا أنه قبل أن يقدمهـا ، علم ذلك ، وغايتـه أن في الكلام حذفاً ،

---

(1) « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ص ٣٣١ .

تقديره قدم النبي ﷺ المدينة ، فأقام إلى يوم عاشوراء ، فوجد اليهود فيه صياماً [١] » .

إذاً فلا إشكال ولا تناقض بين ما ورد في الحديث ، وبين ما تحقق بالتقويم.

والإفتراض الثاني ، أنه فرض أن صوم عاشوراء المذكور في الحديث ، وهو العاشر من شهر تشري اليهود ، الذي صومه صوم الكيبور » يعني صوم يوم الكفارة المشهور عند اليهود . واليوم المحتفل به أكثر من كل يوم وصوم ، وهو المذكور في كتبهم وشريعتهم بنفس الصيغة (Yom kippur) ويقال في الإنجليزية Day of Atonement [٢] .

وهذا لا يصح ولا يتمشى مع لفظ الحديث ، ونصوص التوراة ، فإنه صوم كفارة عن ذنب كبير ، وجريمة قومية تاريخية [٣] ويوم حزن وحداد ، وإيلام نفس ، فقد جاء في اللاويين ، أو سفر الأحبار ، عن صوم الكفارة ، الواقع في عاشر الشهر السابع تشري :

ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر ، تذللون نفوسكم وكل عمل لا تعملون ، الوطني والغريب النازل في وسطكم ، لأنه في هذا

---

(١) فتح الباري - ج ٤ : ص ٢١٤ - ص ٢١٦ .

(٢) راجع « دائرة المعارف اليهودية » .

(٣) لا يبعد ان يكون صوم كفارة عن عبادة العجل التي تورط فيها اليهود على إثر ذهاب موسى الى ربه الذي قال عنه القرآن : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » وعوقبوا على هذه العبادة بأن يقتل منهم الأبرياء المجرمين فقد جاء في القرآن : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم»الخ. وقد خلف ذلك صوم فرض على اجيال اليهود الى الأبد،ويؤيده ما جاء في كتاب « Judaism in Islam » :« قضى موسى أربعين يوماً على الجبل ،ونزل يوم الكفارة .

اليوم يكفر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم ، أمام الرب تطهرون[1] . وجاء في موضع آخر :

« وكلّم الرب موسى قائلاً : أما العاشر من هـذا الشهر السابع ، فهو يوم الكفّارة محفلاً مقدساً يكون لكم ، تذللون نفوسكم، وتقربون وقوداً للربّ ،عملاً ما لا تعملوا في هـذا اليوم عينه ، لأنه يوم كفارة للتكفير عنكم ، أمام الربّ إلهكم[2] »

وجاء في سفر العدد :

« وفي عاشر هذا الشهر السابع ، يكون لكم محفل مقدس، وتذللّون أنفسكم عملاً ما لا تعملوا »[3] .

وبالعكس من ذلك ، فقد جاء في الأحاديث الصحيحة ما يصرّح بأنّ يوم عاشوراء « الذي شُرع صومه للمسلمين » كان يوم فرح وعيد عند اليهود ، فقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري ، قال : كان يوم عاشوراء تعدّه اليهود عيداً . قال النبي ﷺ : « فصوموه انتم »[4] ولمسلم عن قيس بن مسلم بإسناده: قال : كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء ، يتخذونه عيداً ، ويلبسون نساءهم فيه حليّهم وشارتهم :[5] فقال رسول الله ﷺ « فصوموه انتم »[6] وقد روى

(١) اللاويين ، الاصحاح السادس عشر (٢٩ - ٣٠ - ٣١) الكتاب المقدس ، أي كتب العهد القديم والعهد الجديد ، « ترجمة مرسلي الجمعية الامريكانية » « طبع نيويورك»

(٢) اللاويين ، الاصحاح الثالث والعشرون (٢٦ - ٢٧ - ٢٨) .

(٣) سفر العدد ، الاصحاح التاسع والعشرون (٧) .

(٤) كتاب الصوم « باب صيام يوم عاشوراء » جـ ٤ .

(٥) قال العسقلاني : أي هيأتهم الحسنة .

(٦) كتاب الصوم .

كريب بن سعد عن عمر بن الخطاب ، قال : « إنّ الله تبارك وتعالى لا يسألكم يوم القيامة ، إلا صيام رمضان ، وصيام يوم الزينـة » يعني يوم عاشوراء »[1] إذاً فلا يصحّ أن يقال : أنه كان يوم الكفارة ، فقد كان هذا اليوم يوم حزن وعقوبة ، وذلّ ومَهانةٍ ، وعاشوراء المذكور في الحديث يوم ترويح للنفس ، وفرح وسرور ، وزينة وتجمُّل .

وقد وقع في هذا الخطأ والوهم رجال في الشرق والغرب غير البيروني ، واتّجه إلى ذلك بعض علماء الحديث في هذا العصر ، وقد جاء في كتاب « اليهودية في الإسلام » « Judaism in Islam » في ذكر يوم الكفارة :

« وقد قرّره محمد في بداية الأمر كيوم صوم للمسلمين »[2] .

ولا بد أن نجمل ما قاله اليهود عن عاشوراء ، « أنه يوم صالح ، يوم نجّى الله بني اسرائيل من عدوهم » ميزاناً في هذا البحث ، فلا بد أن ينطبق هذا الوصف على اليوم الذي نبحث فيه ، وقد جاءت تسمية هذا اليوم الذي نجّى الله فيه بني اسرائيل من فرعون وآل فرعون « بأبيب » صراحة في عدة مواضع من التوراة وهو الذي جرت تسميته « بنيسان » فيما بعد ، جاء في دائرة المعارف للبستاني في مادة « أبيب » Abib :

« كلمة عبرانية معناها أخضر ، وهي اسم الشهر الأول من السنة العبرانية ، ووضع اسمه موسى عليه السلام ، وهو يكاد يكون موافقـاً لشهر « نيسان » (افريل) ، وبعد أن سبي الإسرائيليون إلى بابل ، غيّروا اسم هـذا الشهر ، وسمّوه نيسان ، أي شهر الزهور ، وفي منتصفه كان عيد الفطير عندهم ،

---

(١) اخرجه ابن مردويه ، راجع كنز العمال جـ ٤ ـ ص ٣٤ .
(2) Judaism in Islam by Abraham I. Katish New York (1954) .

(خروج : ١٢ : ١٨)[١] .

وقد أقرّ بذلك البيروني نفسه : فقال فيما نقلنا عنه :

« وأما قولهم إن الله أغرق فرعون فيه ، فقد نطقت التوراة بخلافه ، وقد كان غرقه في اليوم الحادي والعشرين من نيسن (نيسان) وهو اليوم السابع من أيام الفطير » وقد جاء في التوراة (خروج – ١٢ – ١٨) : في الشهر الأول في اليوم الرابع عشر من الشهر مساءً تأكلون فطيراً إلى اليوم الحادي والعشرين من الشهر مساءً) .

وبعد استعراض هذه النصوص ، ودراسة شريعة اليهود وتاريخهم وعاداتهم ، يُرجّح الباحث أن أشبه يوم بيوم عاشوراء ، الذي جاء ذكره في حديث ابن عباس وغيره ، والذي شرع صومه في الإسلام ، وكان عزيمة قبل رمضان ، هو يوم يقع في منتصف شهر (أبيب) القديم ، أو شهر نيسان – كما اعتاد اليهود أن يسمّوه به بعد جلائهم إلى بابل – وهو عيد من اعيادهم التي يحتفلون بها ، ويظهرون فيها الفرح والسرور[٢] وهو يوم وقع فيه خروج بني اسرائيل من مصر وغرق فرعون ، وقد جاء في (الإصحاح الرابع والثلاثون) :

(تحفظ عيد الفطير ، سبعة أيام تأكل فطيراً أمرتك في وقت شهر أبيب ، لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر) وجاء في الإصحاح ايضاً (لأنه بيد قوية

---

(١) يقول البستاني : أما أشهر الإسرائيليين الجاريسة ، فالشهر الأول من السنة هو شهر تشري ، وهذا يجعل شهر أبيب عندهم الشهر السابع من السنة .

(٢) وقد يستشكل بعض الناس اجتماع الصوم والعيد في يوم واحد ، وهذا ناشىء من قياس الصوم عند اليهود والنصارى على الصوم الاسلامي، وقد جاء في دائرة المعارف اليهودية عن غرة الشهر السابع « إنه يوم صوم وعيد » .

أخرجك الرّب من مصر ، فتحفظ هذه الفريضة في وقتها من سنة إلى سنة)[1] ومن المرجّح أنه صادف اليوم العاشر من المحرم الشهر العربي الأول في السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخه صوم رمضان في نفس هذا العام .

وتطبيق الحساب القمري ، والتقويم العربي بالحساب الشمسي ، والتقويم اليهودي تطبيق تخميني تقديري ، بسبب النسيء الذي جرى عليه العرب قبل الإسلام ، وبعد الاسلام حتى ابطله الله بقوله : (إنما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا) الآية ، وأعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع :(إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض) وكان ذلك بوحي من الله تعالى وإلهام . فقد كان التقويم العربي اضطرب اضطراباً لا يهتدى فيه الى الصواب ، ولا يرجع الى الاصل القديم بمجرد الحساب ، فلا يصح ان يشك في صحة الأحاديث الصحيحة المستفيضة اعتماداً على حساب تخمينيّ مع اضطراب التقاويم ، وتعددها واختلافها في الجاهلية وفي الإسلام .

ويمكن أن يكون يهود المدينة منفردين بصوم عاشوراء ، قد التزموا صومه وتمسكوا به ، وجاروا فيه العرب الذين كانوا يصومونه إجلالاً لهذا اليوم الذي حدثت فيه الوقائع العظيمة ، وقد صح عن عائشة ، أنها قالت :(كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ يصومه (الحديث[2]) وقد كانت لليهود في أنحاء الأرض ، وفي مختلف الأقاليم والعصور ، عادات في الصيام وأيام مخصوصة يصومها بعض اليهود ، ولا يصومها الآخرون ، وقد تقدم ما جاء في دائرة المعارف اليهودية في الحديث عن الصيام اليهودية :

« وهنالك صيام شعبية محلية ، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التي

---

(١) الإصحاح – ١٣ .
(٢) صحيح مسلم : كتاب الصيام « باب صوم عاشوراء » .

يسكنها اليهود منذ زمن بعيد » . ويقول كذلك : وصيام تصومها بعض الطبقات دون بعض في ذكرى وقائع ومحن في تاريخ اليهود » ، فلا يستبعد أن صوم عاشوراء ، والتزامه في اليوم العاشر من المحرم ، الشهر العربي الأول ، كان من خواص اليهود العرب ، لذلك نرى المصادر اليهودية ساكتة عنه ، وحمله أكثر الباحثين فيهم على صوم يوم الكفارة المشهور العام في الديانة اليهودية ، الذي يصومه جميع طبقات اليهود في جميع المناطق التي يسكنونها ، وسارع إلى القدح في الأحاديث ، والشك في صحتها ، من حمله على صوم يوم الكفارة ، وما هو إلا تسرّع في الحكم ، نشأ من عدم إحاطة بعادات اليهود ، ومذاهبهم في مختلف الأقاليم والعصور ، وقلة المصادر والمعلومات عن يهود الحجاز ، واليهود العرب ، الذين عاشوا في جزيرة العرب ، قروناً وأحقاباً ، كأمة ذات شأن وكيان ، وأخلاق وعادات وعقائد ، تأثرت بالبيئة والمحيط ، شأن جميع الأمم والشعوب البشرية ، والحضارات والثقافات ، واللغات ، واللهجات ، وبالله التوفيق [1] .

فرض الصوم ، وما نزل فيه من آيات :

فللحكم السامية ، والمقاصد الأخروية والدنيوية ، التي قدّمناها ، والتي لا يحيط بها علم العلماء ، وذكاء الأذكياء ، ولإعانة الروح التي تجني عليها التخمة والحياة المترفة الرتيبة ، فتصبح هزيلة عليلة ، ولتمكين المسلم من أداء رسالته الخاصة ، ــ الخلافة ــ التي لا يقوى عليها إلا بالتوسط والإعتدال ، والصبر والإحتمال ، فرض الله صوم رمضان .

ولم يفرضه إلاّ بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والمسلمون

---

(١) استندنا في هذا البحث من مقال قيم للمرحوم الاستاذ أبي الجلال الندوي (مجلة « معارف » الشهرية : عدد ٢ ــ مجلد ٦٠ (اغسطس ١٩٤٧ م) .

إلى المدينة ، وانقضت أيام العسرة والمحنة ، وتهيّأت لهم أسباب العيش ، حتى لا يقول قائل إن الصوم كان اضطرارياً ، ومن وحي البيئة والحالة الإقتصادية ، التي كان يعيش فيها المسلمون في مكة ، وأنه من شأن الفقراء والمساكين ، أو المضطهدين المعذّبين ، وأن الأغنياء والموسرين ، وأصحاب الأملاك والبساتين[1] في غنىً عن الصوم .

ولم يفرضه إلا بعد أن رسخت العقيدة في قلوب المسلمين ، وفعلت فعلها ، وألفوا الصلاة وهاموا بها ، وتلقّوا الأوامر والأحكام الشرعيّة بقبول واستعداد كأنهم كانوا منها على ميعاد ، وقد أحسن العلاّمة ابن القيّم الإشارة إلى ذلك فقال:

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها ، ـ ـر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة ، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة ، وألفت اوامر القرآن ، فنقلت إليه بالتدريج .

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة ، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات[2] .

وأنزل الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياماً معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه[3] فدية طعام مسكين ، فمن تطوّع خيراً فهو خير

---

(١) كان الأنصار في المدينة أصحاب أملاك وبساتين ، وذوي يسار ، وسعة في الأموال ، وكذلك المهاجرون ، اشتغلوا بالتجارة ، فحسن حالهم واتسعت لكثير منهم الدنيا .

(٢) زاد المعاد ـ ص ١٥٢ .

(٣) يعرف المستقرىء للغة العرب ومناهج كلامهم أن لهم تعبيرات مختلفة عن معنى القدرة على الشيء ، والاتيان بفعله ، تتصاعد وترتقي باعتبار التعسر ، أولها الاستطاعة ، وآخرها الإطاقة ، فلا تلجأ الى هذا الأخير إلا اذا كان الفعل شاقاً مجهداً يستنفذ ←

له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

← القوة ، ويستفرغ الجهد ، فلا يقول احد إني أطيق أن أرفع اللقمة الى فمي ، أو هذا القلم الى اذني او نحو ذلك مما لا عسر فيه ، بل يقول اني اطيق ان احمل هـذا الحجر الثقيل ، أو أن أسرد الصيـام ، أو أن أصلي الليلة كلها مثلاً ، وقد نوه بذلك مدونوا اللغةالعربيةوصيارفة كلام العرب ، قال العلامة ابن منظور ، في لسان العرب : « الطوق الطاقة ، اي أقصى غايته ، وهو اسم لمقدار ما يمكن ان يفعله بمشقة منه » وقال الزبيدي في تاج العروس شرح القاموس : « الطوق : الوسع والطاقة . وأنشد الليث : « كل امرىء مجاهد بطوقه — والثور يحمي أنفه بروقه ، يقول كل امرىء مكلف ما أطاق » وقال العلامة راغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن : « الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للانسان ان يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بشيء » فقوله « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » أي ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه « لا تحملنا » ما لا قدرة لنا به ، وذلك لأنه تعالى، قد يحمل الإنسان ما يصعب عليه ، كما قال: « ويضع عنهم اصرهم » « ووضعنا عنك وزرك » اي خففنا عنك العبادات الصعبة ، التي في تركها الوزر ، وعلى هذا الوجه « قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » وقد يعبر بنفي الطاقة عن نفي القدرة » فكان معنى الآية « الذين يطيقونه » مع شدة وتعب ، ومشقة عظيمة ، وهما الشيخ الكبير ، والمرأة الكبيرة ، لا يطيقان الصيام الا مع جهد وارهاق ، وتعريض النفس للهلاك ، والمرض الشديد .

وعلى ذلك فهمه ابن عباس رضي الله عنه ، كما روى عنه البخاري وأبو داود وغيرهما ، وقال : ان الآية نزلت في الشيخ الكبير الهرم « والعجوز الكبيرة الهرمة ، وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنه قرأ : « وعلى الذين يطيقونه » قال : يكلفونه ، وهو الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يطعمون كل يوم مسكيناً، ولا يقضون وله طرق كثيرة عنه ، وأخرج الدار قطني عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين واحد، فمن تطوع خيراً ، قال : زاد مسكيناً آخر ، فهو خير، قال : وليست بمنسوخة ، الا انه رخص للشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام ، وأمر ان يطعم الذي يعلم انـه لا يطيقه ، (وإسناده صحيح ثابت) وروى الطحاوي عن ابن عباس رضي الله عنه « وعلى الذين يطيقونه» قال: الذين يتجشمونه ←

هدىً للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن

← ولا يطيقونه ، يعني الا بالجهد : الحبلى ، والكبير ، والمريض ، وصاحب العطاس ، وقد نقل ذلك عن علي وأبي هريرة من كبار الصحابة رضي الله عنهم ، وعن مجاهد من كبار التابعين » وقد روي عن أنس ، أنه كان يفعل ذلك بعد ما اسنّ وكبر ، (أخرج أثره البخاري) وروى خالد الحذاء عن عكرمة، انه كان يقرأ « وعلى الذين يطيقونه» قال إنها ليست بمنسوخة ، وروى الحجاج عن ابي اسحاق عن الحارث عن علي « وعلى الذين يطيقونه » قال : الشيخ ، والشيخة ، وعن سعيد بن جبير ، أن ابن عباس رضي الله عنه ، كانت له جارية ترضع ، فجهدت ، فقال لها : افطري ، فإنك بمنزلة الذين يطيقونه .

فكان الذين توجه اليهم الخطاب في قوله : « كتب عليكم الصيام » على أقسام ثلاثة ، الأول : المقيم الصحيح ، فيتحتم عليه الصوم ، الثاني : المريض والمسافر ، فيباح لهما الافطار ، مع وجوب القضاء ، الثالث : من يشق عليه الصوم بسبب لا يرجى زواله ، كالهرم ، والمرض المزمن ، فيفطران ويطعمان لكل يوم مسكيناً ، وكذلك الحامل والمرضع ، فتفطران وتقضيان ، وهكذا تبقى الآية محكمة لا نسخ فيها ، ولا تقدير لكلمة زائدة أو حذف ، او تكلف شديد ، وقد ذهب الى ذلك بعض كبار الصحابة من الراسخين في العلم ، يخرج بذلك هذا القول عن الشذوذ والنكارة ، وتفسير القرآن بالرأي ؛ وقد انصف العلامة الآلوسي ، اذ قال في روح المعاني ، والحق أن كلا من القراءات يمكن حملها على ما يحتمل النسخ وعلى ما لا يحتمله ، ولكل ذهب بعض... (ج ١ — ص ٣٧٠) .

أما قول بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم بنسخ هذه الآية ، وقد ذهب الى ذلك اكثر المتقدمين ، وكان هو المذهب المشهور في كتب التفسير والحديث . فقد نشأ ذلك عن قياس تعبيرات الصحابة ومناهج كلامهم على المصطلحات الاصولية المحررة في الأزمان المتأخرة ، وحملها عليها حملا كلياً ، فقد كان الصحابة والمتقدمون يتوسعون في اطلاق هذه الكلمات ، وقد يريدون بها معنى من معانيها اللغوية ، وينطقون بها بأدنى مناسبة أو وجه من الوجوه ، ويحسن ان ننقل هنا كلام شيخ الإسلام الدهلوي في هذا الموضوع، قال رحمه الله : « ومن المواضع الصعبة في فن التفسير التي ساحتها واسعة جداً ، ←

كان مريضاً ، أو على سفر ، فعدَّةٌ من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدَّة ، ولتكبِّروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون»[1]

ليست هـــذه الآيات التي تضمَّنت وجوب الصوم ، تشريعاً جافاً مجرداً ، كالقوانين والمراسيم العاديـة ، التي لا تعتمـد إلاّ على الرابطة السياسية أو الإجتماعية ، التي تقوم بين الفرد والحكومة ، إن هذه الآيات تخاطب الإيمان والعقيدة ، والعقل والضمير ، والقلب والعاطفة في وقت واحد ، وتثير كل ذلك وتغذّيه ، وهكذا تهيّيء الجوّ لقبول هذا التشريع وإساغته بل للترحيب به ، واستقباله بنشاط وحماس ، إنها آية في الإعجاز ، وفي فقه الدعوة ، وعلم النفس ، والتشريع الحكيم ، «تنزيل من حكيم حميد[2]» .

← والاختلاف فيها كثير ، معرفة الناسخ والمنسوخ ، .وأقوى الوجوه الصعبـة اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

وما علم في هذا الباب من استقراء كلام الصحابـة والتابعين ، انه كا [illegible] النسخ بـإزاء المعنى اللغوي الذي هو إزالة شيء بشيء ، لا بـإزاء مصطلح الأصوليين ، فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى ، إما بانتهاء مدة العمل ، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عـام ، أو بيان الفارق بين النصوص ، ومـا قيس عليه ظاهراً ، أو إزالة عـادة الجاهليـة أو الشريعة السابقة » فاتسع باب النسخ عندهم ، وكثر جولان العقل هنالك واتسعت دائرة الإختلاف » (الفوز الكبير في أصـول التفسير ص ١٨) .

وقد آثر هذا القول ، واختاره بعض كبار العلماء في عصرنا ، والمتضلعين من علوم الدين ، كالعلامة المحقق الشيخ انور شاه الكشميري ، والعلامـة المحدث الشيخ شمس الحق الديانوي ، والأستاذ العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله ، عدا العلامة المفتي محمد عبده الذي اشتهر عنه هذا القول ، بعدما سجله تلميذه النجيب العلامة السيد رشيد رضا في « تفسير المنار » .

(١) سورة البقرة : ١٨٣ – ١٨٥ .

(٢) سورة حم السجدة : ٤٢ .

خاطب الله المكلَّفين بهذا التشريع بقوله : « يا أيها الذين آمنوا »، وهكذا هيَّأ المخاطبين لقبول كل ما يكلَّفون به ويُطلب منهم مهما كان شاقاً وعسيراً ، لأن صفة الإيمان تقتضي ذلك ، وتوجبه ، فمن آمن بالله ، كإله وربٍّ، وسيِّد ومُطاع ، وصاحب الأمر والنهي ، وخضع له بقلبه وقالبه ، واستسلم له وأحبَّه من أعماق نفسه ، كان جديراً بإجابة كل ما يصدر عنه من أمر ، وكل ما يوجّه إليه من طلب : « إنما كان قولُ المؤمنين ، إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا [1] » « ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرَة من أمرهم [2] » « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم [3] » ، والشريعة كلها – بما فيها من فرائض وعبادات وأحكام – حياة للنفوس .

ثم ذكر الله أنه كتب عليهم الصيام ، ولكنه لم يكتبه عليهم لأول مرة في تاريخ الأديان : وليس هو بدعاً في التشريع ، فقد كتبه على من سبقهم من أهل الكتاب ، وأهل الشرائع والأديان ؛ وهكذا يخفف الله وطأة هذا التشريع على النفوس ، ويهوّن خطبه عليها ، فالإنسان ، إذا عرف أنه لم يكلَّف بشيء جديد ، وإنما هو شيء سبق وتقدَّم ، وقامت به الطوائف والأمم ، هان عليه الأمر ، وتشجع عليه .

ثم ذكر أنه ليس امتحاناً فقط ، ولا مشقّة ليس من ورائها قصد ، بل هو رياضة وتربية ، وإصلاح وتزكية ، ومدرسة خلقية ، يتخرج فيها الإنسان فاضلاً كاملاً ، زمامه بيده ، يملك نفسه وشهواته ، ولا تملكه ، لقد استطاع الإضراب عن المباحات والطيّبات ، فهو أقوى على ترك الممنوعات والمحرمات، ومن يترك

---

(١) سورة النور : ٥١ .
(٢) سورة الأحزاب : ٣٦ .
(٣) سورة الأنفال : ٢٤ .

الماء الزلال الحلال ، والطعام الزكي الهنيء لأمر ربـــه ، كيف يقرب السُحت الحرام ، والرجس النجس من المطاعم والمشارب والمعايش ؟ لذلك قـــال : « لعلـكم تتقون » .

ثم قال لا تهولنـتـكم عدة الشهر ، ولا تثقلن عليكم ، فإنمـــا هي « أياماً معدودات » تصام تباعاً ، وتنقضي سراعاً ، وما نسبة هـذا الشهر — الذي لا يصام إلاّ نهاره — إلى العام الـكامل ، الذي ينقضي في لذّة مباحـــة ، ومتعة وراحة ؟

ثم إنه يستثنى من هذا التـكليف المريض والمسافر ، ومن يعجز عن الصوم ، أو يخاف عليه منه .

ثم ذكر فضل الشهر الذي شرع صومه ، إنه شهر ، نزل فيه القرآن ، الذي كان بعثاً جديداً للجيل الإنساني ، ومبدأ حياة جديدة للنوع البشري ، فخليق بالمسلم أن يستمد من هذا الشهر المبارك ، بصيامه وقيامه ، حياة جديدة وإيماناً جديداً ، وقوة جديدة .

هـذا هو الصوم الإسلامي ، أو الشحن الروحاني ، الزاخر بالحيـاة والمنافع والبركات ، بعيد عن الإرهاق والإجهاد والمشقات ، التي لا تطيقها النفوس ، « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتـكملوا العدة ، ولتـكبّروا الله على ما هداكم ، ولعلـكم تشكرون [1] » .

خصائص التشريع الاسلامي في

الصوم وفضله واحكامـــه :

وهكذا جاء التشريع الإسلامي للصوم أكمـل تشريع وأوفاه بالمقصود ،

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

وأضمنه بالفائدة ، وقد تجلّت فيه حكمة العزيز العليم الحكيم الخبير ،الذي خلق الإنسان « ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » [١] .

فخصّ شهراً كاملاً — وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن — بصيام أيام متتابعات متواليات،يصام نهارها ويفطر ليلها،وهو المُرف عند العرب فيالصوم وهو الميزان في التشريع العالمي الإسلامي ، يقول شيخ الإسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« ويضبط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس ، لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم ، والمشهور عندهم في صوم عاشوراء ، والشهر برؤية الهلال إلى رؤية الهلال ، لأنه هو شهر العرب ، وليس حسابهم على الشهور الشمسيّة » [٢].

لماذا خُص رمضان بالصوم ؟

وجعل الله الصوم في رمضان ، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر ، مرتبطاً به ، فذلك قران السعدين ، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع ، وذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلع الصبح الصادق في ليل الإنسانية الغاسق ، فحسُن أن يُقرن هذا الشهر بالصوم ، كما يقترن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم ، وكان أحقّ شهور الله — بما خصّه الله من يُمن وسعادة وبركة ورحمة ، وبما بينه وبين القلوب الإنسانية السليمة من صلة خفيّة روحيّة — بأن يصام نهاره ، ويقام ليله [٣] .

---

(١) سورة الملك : ١٤ .

(٢) حجة الله البالغة — ج ٢ — ص ٣٧ .

(٣) يقول شيخ الإسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي « إذا وجب تعيين ذلك الشهر ، فلا أحق من شهر نزل فيه القرآن ، وارتسخت فيه الملة المصطفوية ، وهو مظنة ليلة القدر » (حجة الله البالغة — ج ٢ — ص ٣٧) .

وبين الصوم والقرآن صلة متينة عميقة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من القرآن في رمضان ، يقول ابن عباس رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان اجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل ، أجود بالخير من الريح المرسلة [1] » .

يقول العارف بالله ، العالم الرّباني الشيخ أحمد بن عبدالأحد السر هندي (م ١٠٣٤هـ) في بعض رسائله :

« إن لهذا الشهر مناسبة تامّة بالقرآن ، وبهذه المناسبة ، كان نزوله فيه ، وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات ، وكل خير وبركة تصل إلى الناس في طول العام ، قطرة من هذا البحر ، وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله . وتشتّت البال فيه سبب للتشتت في بقية الأيام ، وفي طول العام ، فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك ، ورضي عنه ، وويل لمن سخط عليه ، فمنع من البركات ، وحُرم من الخيرات [2] » .

ويقول في رسالة أخرى :

« إذا وفّق الإنسان للخيرات ، والأعمال الصالحة في هذا الشهر ، حالفه التوفيق في طول السنة ، وإذا مضى هذا الشهر في توزّع بال وتشتّت حال ، مضى العام كلّه في تشتّت وتشويش [3] » .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا دخل

---

(١) حديث متفق عليه .
(٢) رسائل الإمام الرباني ، الشيخ احمد بن عبد الأحد السرهندي ، - جـ ١ - ص ٨
(٣) رسالة (٤٥) ايضاً .

رمضان فُتحت أبواب الجنّة ، وأغلقت أبواب جهنم ، وسُلسلت الشياطين » والأحاديث في الباب كثيرة .

موسم عالمي ، ومهرجان

عام ، للعبادات ، والخيرات :

وهكذا أصبح رمضان موسماً عالمياً ، للعبادة والذكر والتلاوة والورع والزهادة ، يلتقي على صعيده المسلم الشرقي مع المسلم الغربي ، والجاهل مع العالم ، والفقير مع الغني ، والمقصّر مع المجاهد ، ففي كل بلد رمضان ، وفي كل قرية وبادية رمضان ، وفي كل قصر وكوخ رمضان ، فلا افتيات في الرأي ، ولا فوضى في اختيار أيام الصوم ، فكل ذي عينين ، يستشعر جلاله وجماله ، أينما حلّ ورحل في العالم الإسلامي ، المترامي الأطراف ، تغشى سحابته النورانية المجتمع الإسلامي كله ، فيُحجم المُفطر المتهاون بالصوم عن الإنشقاق عن جماعة المسلمين ، فلا يأكل إلا متوارياً أو خجلاً ، إلا اذا كان وقحاً مستهتراً من الملاحدة ، أو الماجنين ، أو كان من المرضى والمسافرين ، الذين أذن الله لهم في الإفطار ، فهو صوم إجتماعي عالمي ، له جوّ خاص ، يسهل فيه الصوم ، وترقّ فيه القلوب ، وتخشع فيه النفوس ، وتميل فيه إلى أنواع العبادات والطاعات ، والبرّ والمواساة .

الجو العالمي ، وما له من تأثير في النفوس والمجتمع :

وقد لاحظ ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، بنظره الدقيق العميق ، فقال وهو يشرح حديث : «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة »الخ:

« الصوم إذا جعل رسماً مشهوراً ، نفع عن غوائل الرسوم ، وإذا التزمته أمة

من الأمم ، سلسلت شياطينها ، وفتحت أبواب جنانها ، وغلّقت أبواب النيران عنها [1] » .

ويقول في موضع آخر :

« وأيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد ، في زمان واحد ، يرى بعضهم بعضاً معونة لهم على الفعل ، ميسّر عليهم ومشجّع إيام » .

« وأيضاً فإن اجتماعهم هذا لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم ، وأدنى أن ينعكس أنوار كُمّلهم على من دونهم ، وتحيط دعوتهم من وراءهم [2] »

الفضائل ، وما لها من تأثير وقوة :

إن الحياة في صراع دائم بين الشهوات الحبيبة الى النفس ، والمنافع المقرّرة عند العقل ، وليست الشهوات هي التي تنتصر دائماً في هذه المعركة ، كما يعتقد بعض الناس ، فذلك سوء ظن بالطبيعة البشريّة ، وإنكار للواقع .

إن القوة التي تدير عجلة الحياة بسرعة ، وتفيض على هذا العالم الحياة والنشاط هي الإيمان بالنفع ، ذلك الإيمان هو الذي يوقظ الفلاّح في يوم شاتٍ ، شديد البرد ، فيحرم عليه الدّفء ، ويبكّر به الى الحقل ، وفي يوم صائف شديد الحر يهوّن عليه وهج الشمس ولفح السموم ، ويفصل بين التاجر وأهله ، ويتوجّه به إلى متجره ، ذلك الإيمان ، هو الذي يزين للجندي الموت في ساحة القتال ، وفراق الأحبة والعيال ، فلا يعدل به راحة ولا ثروة ولا نعيماً ، إن كل ذلك إيمان بالمنافع وحرص على الخير ، وهو القطب الذي تدور حوله الحياة .

---

(١) حجة الله البالغة – جـ ١ – ص ٥٩ .
(٢) حجة الله البالغة – جـ ٢ – ص ٣٧ .

وهنالك إيمان أعظم سلطاناً على النفوس ، وأعمق أثراً من الإيمـان الذي ضربنا له بعض الأمثال ، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل ، ونزل بها الوحي ، ونطقت بها الصحف ، وهي تنحصر في رضا الله وثوابه ، وجزائـه في الدنيا والآخرة .

لقد علم الجميـع ، أن الإمساك عن الطعام في بعض الأيام مفيـد للصحة ، وخير للمرء أن يصوم مراراً في كل عام ، وقد أسرف الناس في الأكل والشرب ، واتـّخموا بأنواع من الطعام والشراب ، فأصيبوا بأمراض جسدية وخلقيّة ، كل ذلك معروف ومشاهـد ، وآمن الناس بفوائـد الصوم الطبية ، وآمنوا بأنه ضرورة صحية ، وآمنوا كذلك بفوائد الصوم الإقتصادية .

ولكن اذا سأل سائل ما عدد الصائمين في هذه السنة لفوائد طبيّة ، ومصالح اقتصادية ؟ وما عدد الأيام التي صاموها طمعاً في الإعتدال في الصحة أو الإقتصاد في المعيشة ؟ كان الجواب المقرر ، انه عدد ضئيل جـداً ، ضئيل حتى في الشتاء مع أن الصوم فيـه سهل هيّن ، ورغم أن الصوم الطبي ، أو الإقتصادي أسهل بكثير من الصوم الشرعي .

ثم ننظر في عدد الصائمين الذين يصومون ، لأنهم يعتقدون أن الصوم فريضة دينية ، قد وعد الله عليه بثوابه ورضاه ، وتكفـّل بجزائه ، فنرى أن هذا العدد – مهما طغت المادية ، وضعف الدافع الديني – عدد ضخم لا يقل عن ملايين ، وأن هؤلاء الملايين من النفوس لا يمنعهم الحر الشديد في الأقاليم الحارة من أن يصوموا في النهار ، ويقوموا في الليل ، لأن الإيمان بالمنافع الدينية التي أخبر بها الأنبياء ، عند أهل الإيمان أقوى، من الإيمان بالمنافع الطبية التي أخبر بها الأطباء، ومن الإيمان بالمنافع الإقتصادية التي لهج بها الإقتصاديون .

ذلك لأن المؤمنين سمعوا في الصوم، ما هوّن عليهم متاعب الصوم، وشجعهم

على احتمال الحرّ والجوع والعطش ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :

«كل عمل ابن آدم يُضاعف ، الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ،قال الله تعالى : « إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ، للصائم فرحتان فرحة عند فطوره وفرحة عند لقاء ربّه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك [١] » وروى سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال : « في الجنة باب يدعى الريّان ،يدعى له الصائمون ، فمن كان من الصائمين دخله ،ومن دخله لم يظمأ أبداً [٢] »،وعن ابي هريرة رضي الله عنه رفعه : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه [٣] » .

العناية بروح الصوم ، وحقيقته ، ومقاصده ، والجمع بين « السلب » و « الايجاب » :

إن صوم رمضان لهيئته الإجتماعية وشيوعه في المجتمع الإسلامي ، عرضة لأن يتغلب عليه التقليد واتّباع العادة ، وأن لا يصومه كثير من الناس ، إلا مسايرة للمجتمع والبيئة ، وتفادياً من الطعن والملام ، وأن يُشار إليهم بالبنان ، ولا يرافقه الإيمان والقصد ، والتفكير في عظم شأنه وموقعه من الله ،وأجره وثوابه ، أو يصومه بعض الناس لغايات ماديّة ،أو مقاصد صحية واقتصادية ، فكان من حكمة النبوة الباهرة ، وفقه الرسالة العميق ، أن اشترط النبي ﷺ للصوم المقبول عند الله الإيمان والإحتساب ، فقال : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له

---

(١) رواه الستة .
(٢) للشيخين .
(٣) رواه البخاري .

ما تقدم من ذنبه [١]. وقد يتساءل الرجل الذي لم يعرف دخائل النفس الإنسانية والأنماط البشرية المختلفة ، إن رمضان لا يصومه إلا المسلمون ، ولا يدعوهم الى ذلك إلا الإيمان والإحتساب ، فلماذا قيّده لسان النبوّة بصفة الإيمان والإحتساب ، فهو من قبيل تحصيل الحاصل ؟ ولكن الذي توسعت دراسته للحياة ، وتعمّقت معرفته الدوافع النفسية ، والعوامل الخلقية والإجتماعية ، وقف خاشعاً أمام هذه الحكمة ، والعلم الدقيق العميق ، وشهد بأنه «وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلاّ وحي يوحى [٢] » .

وقد جاء تفسير الإيمان والإحتساب في حديث آخر ، بأن يكون الإنسان راجياً للثواب ، مصدّقاً لما وعد الله على هذا العمل بالمغفرة والرضا ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : « قال رسول الله ﷺ : أربعون خصلة ، أعلاها منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها ، وتصديق موعودها ، إلا أدخله الله بها الجنة [٣] » .

ثم إن التشريع الإسلامي لم يكتف بصورة الصوم ، بل اعتنى بحقيقته وروحه كذلك ، فلم يحرّم الأكل والشرب ، والصّلات الجنسية في الصوم فحسب ، بل حرّم كل ما ينافي مقاصد الصوم وغاياته ، وكل ما يضيّع حكمته وفوائده الروحية والخلقية ، فأحاط الصوم بسياج من التقوى والأدب وعفة اللسان والنفس ، فقال النبي ﷺ : « اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، وإن سابّه أحد ، أو قاتله ، فليقل إني صائم [٤] » وقال : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه [٥] » ، وذكر أن

---

(١) حديث متفق عليه .
(٢) سورة النجم : ٣ — ٤ .
(٣) رواه البخاري .
(٤) متفق عليه .
(٥) للبخاري ، وابي داود ، والترمذي .

الصوم الذي يخلو من روح التقوى والعفاف صورة مجردة من الحقيقة ، وجسم بلا روح ، فقال : « كم من صائم ليس له من صيامه الا الظمأ ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر [1] » ، وعن ابي عبيدة رفعه ، قال : « الصوم جُنّة ما لم يخرقها [2] » .

وليس الصوم الإسلامي مجموعة من أمور سلبية فقط ، فلا أكل ولا شرب ، ولا غيبة ولا نميمة ، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال ، بل هو مجموع أمور إيجابية كذلك ، فهو زمن العبادة والتلاوة والذكر والتسبيح ، والبرّ والمواساة ، وقد قال النبي ﷺ : « من تقرّب فيه بخصلة من الخير ، كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه ، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة [3] » . وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « من فطّر صائماً كان له مثل أجره ، غير أنه لا يُنقص من أجر الصائم شيء [4] » .

وألهم الله الأمة المحافظة على صلاة التراويح ، التي ثبت أصلها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وقد تركها بعد ثلاثة أيام ، لئلا تفرض على أمته فرضاً فتشقّ عليها ، فقد روى ابن شهاب ، قال : أخبرني عروة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته : « أن رسول الله ﷺ ، خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد ، وصلى رجالٌ بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع اكثر منهم نصلى فصلّوا معه فأصبح النّاس فتحدثوا ، فكثر أهل المسجد من الليلة

---

(١) رواه الدارمي في سننه ، عن ابي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه النسائي ، وزاد في الأوسط « قيل بم يخرقها ؟ قال : بكذب أو غيبة .
(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » عن سلمان الفارسي رضي الله عنه (في حديث طويل) .
(٤) رواه الترمذي .

الثالثة ، فخرج رسول الله ﷺ فصلى فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة ، عجز المسجد عن أهله ، حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على النّاس ، فتشهّد ، ثم قال : أما بعد ، فإنه لم يخف عليّ مكانكم ، ولكني خشيتُ أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها ، فتوفي رسول الله ﷺ ، والأمر على ذلك [1] » .

وقد قام بها الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وعضّت عليها الأمة بالنواجذ في أعصارها وأمصارها ، حتى أصبحت شعاراً لأهل السنّة ، والصالحين من الأمة ، وكان للتراويح فضل كبير في شيوع حفظ القرآن في الأمة [2] ، ومحافظتها عليه ، وبقائه في الصدور ، وفضل كبير في توفيق العامة والجماهير لقيام الليل والعبادة .

وبذلك كلّه أصبح شهر رمضان (مهرجاناً) للعبادة ، وموسماً للتلاوة ، وربيع الأبرار والمتقين ، وعيد العبّاد والصالحين ، تتجلّى فيه عناية هذه الأمة بإقامة أحكام دينها وغرامها بالعبادة [3] ، وإخباتها إلى الله ، ورقة القلوب ،

---

(١) رواه البخاري ، في « باب فضل من قام رمضان » .

(٢) وقد أكرم الله بعض الأقطار الإسلامية البعيدة عن مهد الاسلام « كالهند وباكستان » بالعناية الزائدة بهذه الصلاة وختم القرآن فيها، يهتم بها العامة والخاصة ، ويحرصون عليها كل الحرص ، فما من مسجد صغير خامل في كل حي من الأحياء ، الا وتقام فيه صلاة التراويح ، ويختم فيها على الأقل ختمة ، أما المساجد الكبيرة ، والأحياء الدينية ، فتختم فيها عدة ختمات ، ولا شك ان هذه السنة قد افادت انتشار حفظ القرآن في الشعب ، فكثر عدد الحفاظ كثرة تستدعي العجب ، وحملت على الاحتفاظ بحفظ القرآن ، ومدارسته طول السنة ، حتى كان حفاظ فحول ، برعوا وفاقوا في حفظه وإتقانه .

(٣) انما توارثته الأجيال الاسلامية في مختلف عصورها، هو الإكثار من العبادة، وأنواع ←

والتنافس في البرّ والمواساة في أروع مظاهره، لا تبلغه، ولا تبلغ عشر معشاره أمة من الأمم، أو طائفة من طوائف بني آدم، «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم [1]».

تفريط المسلمين في مقاصد الصوم، وجناية العادات على العبادات:

ولكن المسلمين قد جنوا في كثير من الأحيان على أنفسهم، وعلى مقاصد الصوم وفوائده بالعادات التي يبتدعونها، وبجهلهم وإسرافهم في الإفطار والطعام، الإسراف الذي يُفقد الصوم الشيء الكثير من فائدته وقوته الإصلاحية والتربويّة، وقد لاحظ ذلك بدقة حجّة الإسلام الغزالي وتحدّث عنها ببلاغة، يقول رحمه الله:

«الأدب الخامس»، أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار، بحيث يمتلىء جوفه، فما من وعاء، أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال، وكيف يستفاد من الصوم، قهر عدو الله، وكسر الشهوة، إذا تدارك الصائم

← البر، والتقرب الى الله في رمضان، والإكثار من التلاوة، وتدارس القرآن وختمه، والتنافس فيه والجهاد، الى حد لا يكاد يصدقه من لم يعرف قوة إرادة أهل الإيمان والصدق، وما تصنع الروحانية القوية من عجائب وخوارق، وعلى ذلك، أدركنا العلماء الربانيين، والدعاة المخلصين في بلادنا، وشاهدنا حالهم، فإن بعضهم يختم كل يوم ختمة، ولا تكتحل عينه بنوم في الليل، هذا مع تقليل زائد من الطعام، فيغتنمون كل لحظة من اللحظات في هذا الشهر المبارك، وكل نفس من الأنفاس، فلا ينفقونه إلا فيما يقربهم الى الله، ويزيد في قيمة رمضان، ووزنه في الميزان، وإذا رآهم الإنسان، عرف قيمة رمضان وكرامته، وعرف قيمة الحياة، وصدق ما روي في كتب التاريخ والتراجم عن عبادة السلف، والمتقدمين، وعلو همتهم وقوة إرادتهم.

(١) سورة الجمعة: ٤.

عند فطره ، ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتى استمرت العادات ، بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان ، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر ، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء ، وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، واذا دفعت المعدة من ضحوة نهار الى العشاء ، حتى هاجت شهوتها ، وقويت رغبتها ، ثم أطعمت من اللذات ، وأشبعت ، زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة ، لو تركت على عادتها ، فروح الصوم وسرّه ، تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود الى الشرور ، ولن يحصل ذلك الا بالتقليل ، وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، فأمّا اذا جمع ما كان يأكل ضحوة الى ما كان يأكل ليلاً فلم ينتفع بصومه .

بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار ، حتى يحس بالجوع والعطش ، ويستشعر ضعف القوى ، فيصفو عند ذلك قلبه ، وليستديم كل ليلة قدراً من الضعف ، حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر الى ملكوت السماء [1] ».

الصيانة من التحريف والغلو :

كان رمضان مظنة للغلوّ ، والتعمق في الدين ، فقد يفهم كثير من النـّاس أن موضوعه وغايته قهر النفس، وترويضها على ترك الشهوات والرغبات ، وإجهادها الى أقصى حد ممكن، فكلما أمعن الإنسان في إجهادها وقهرها، وكلما طالت الفترة في الأكل والشرب والتمتـّع ، وطالت مدة الجوع والظمأ ، وكلـّما أظهر الصبر والإحتمال، كان أقرب الى الله وأحب اليه ، وأبعد عن المترفهين المترفين والمتنعّمين المتمتـّعين ، وأدخل في غمار المتقين الصابرين .

---

(١) احياء العلوم – ص ٢١١ .

وهذا الفهم الخاطىء السطحي، هو الذي زيّن لكثير من المتديّنين والمتقشفين في الأمم السابقة، والديانات القديمة، الغلوّ في العبادات عامة، وفي الصوم خاصة، فأطالوا مدة الإمساك عن الطعام والشراب، وأخّروا الفطور، وعجّلوا السُّحور، أو تحرّجوا عن التسحُّر مطلقاً، ورأوه عجزاً في الدين، وضعفاً في الصائمين، أو وصلوا الصوم بالصوم، والليل بالنهار، وقلّدهم في ذلك غلاة المسلمين، والطوائف المبتدعة المتشددة، فكان كل ذلك تحريفاً في الدين، وجهاداً في غير جهاد، ورهبانية ابتدعوها، وباباً واسعاً لفساد شامل، وتحدياً لقول الله تعالى: « يُريدُ الله بكم اليسر ولا يُريدُ بكم العسر [1] »، وقوله: « وما جعل عليكم في الدّين من حرج [2] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: « إن الدين يسر، ولن يشادَّ هذا الدين أحد الاّ غلبه فسدّدوا وقاربوا [3] ».

لذلك كله سدّت الشريعة الإلهية الأخيرة الخالدة هذا الباب، فحثّت على السحور أولاً، ورغّب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، واستحبه وجعله سنّة للمسلمين، فقد روى أنس بن مالك عنه صلى الله عليه وآله وسلم: « تسحّروا فإن في السحور بركة [4] » وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه، ان رسول الله ﷺ، قال: « فصل ما بين صيامنا وصيام اهل الكتاب أكلة السّحر [5] » وحذّر عن تأخير الفطر، وجعل التأخير فيه آية للفساد، والوقوع في الفتن، وشعاراً لغلاة أهل الكتاب، فعن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يزال الناس بخير ما عجّلوا الفطر [6] » وعن أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.
(٢) سورة الحج: ٨٧.
(٣) رواه البخاري « في كتاب الإيمان » عن ابي هريرة رضي الله عنه.
(٤) للشيخين والترمذي والنسائي.
(٥) رواه مسلم.
(٦) للشيخين، والموطأ، والترمذي.

رفعه ، قال : « لا يزال الدين ظاهراً ما عجّل الناس الفطر ، لأن اليهود والنصارى يؤخرون [1] » ، وكذلك كان من سنّته وسنّة أصحابه تأخير السحور . فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، قال : « تسحّرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قمنا إلى الصلاة ، قيل : كم كان بينهما ؟ قال ! خمسون آية [2] » وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : كان لرسول الله ﷺ مؤذنان : بلال ، وابن أم مكتوم ، فقال رسول الله ﷺ : « إن بلالاً يؤذّن بليل فكلوا واشربوا ، حتى يؤذن ابن أم مكتوم ، قال : ولم يكن بينهما ، الا أن ينزل هذا ، ويرقى هذا [3] » .

وقد بسط شيخ الاسلام احمد بن عبد الرحيم الدهلوي الكلام في هذا الموضوع فذكر عناية الشريعة الإسلامية ، والسنة النبوية ، بهذا الجانب الإصلاحي في علم جم ، وفقه دقيق ، فقال :

« إن من المقاصد المهمة في باب الصوم سد ذرائع التعمّق ، وردّ ما أحدثه فيه المتعمقون ، فإن هذه الطاعة كانت شائعة في اليهود والنصارى ومتحنّثي العرب ، ولما رأوا أنّ أصل الصوم هو قهر النفس تعمّقوا ، وابتدعوا أشياء فيها زيادة القهر ، وفي ذلك تحريف دين الله .

وهو إما بزيادة الكمّ أو الكيف ، فمن الكمّ ، قوله ﷺ : « لا يتقدّمنّ أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين ، إلا أن يكون رجل كان يصوم يوماً ، فليصم ذلك اليوم ، ونهيه عن صوم يوم الفطر ويوم الشكّ ، وذلك لأنه ليس بين هذه وبين رمضان فصل ، فلعله إن أخذ ذلك المتعمّقون سنّة ، فيدركه منهم الطبقة الأخرى ، وهلمّ جرّاً ، يكون تحريفاً ، وأصل التعمّق أن يؤخذ موضع الإحتياط لازماً ، ومنه يوم الشك .

---

(١) لأبي داود .

(٢) متفق عليه .

(٣) حديث متفق عليه .

ومن الكيف : النهي عن الوصال ، والترغيب في السحور ، والأمر بتأخيره وتقديم الفطر ، فكل ذلك تشدّد وتعمّق من صنع الجاهلية [١] » .

والصوم كله خضوع للأمر الإلهي ، فلا أكل ولا شرب ، ولا متعة بما حظر على الصائم بعد تبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر الى غروب الشمس ، مهما جمحت النفس ، وطغت شهوة الطعام والشراب ، ولا إمساك عن الطعام والشراب وما حُظر في النهار ، بعد غروب الشمس ، مهما جمحت طبيعة الزهد والنسك ، فليس الحكم للنفس والشهوة والعادة ، إنما الحكم لله ، ولا تجلد مع الله ، ولا مصارعة مع الدين ، وكلّما كان الصائم متجرّداً عن هواه ، منقاداً للحكم ، مستسلماً لقضاء الله تعالى وشريعته ، كان أصدق في العبوديّة ، وأبعد عن الأنانيّة ، وقد أحسن العارف الكبير ، والمصلح العظيم ، الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، في الإشارة إلى هذه النكتة ، إذ قال في إحدى رسائله :

« يتجلّى في تأخير التسحُّر ، وتعجيل الإفطار ، عجزُ الصائم وحاجته ، وهو ملائم للعبودية محقّق لغرضها [٢] » .

الاعتكاف :

والإعتكاف في رمضان متمّم لفوائده ومقاصده ، متدارك لما فات الصائم ، من جمعية القلب ، وهدوء النفس ، واجتماع الهمّ ، والإنقطاع الى الله تعالى بالقلب والقالب ، وحقيقته الفرار الى الله ، والإطراح على عتبة عبوديته ، والإرتماء في أحضان رحمته ، يقول العلامّة ابن القيم رحمه الله :

« شرع لهم الإعتكاف الذي مقصوده وروحه ، عكوف القلب على الله

---

(١) حجة الله البالغة – ج ٢ – ص ٣٩ .
(٢) الرسالة الخامسة والأربعون « مجموع الرسائل » .

تعالى ، وجمعيته عليه ، والخلوة به ، والإنقطاع عن الإشتغال بالخلق ، والإشتغال به وحده سبحانه ، بحيث يصير ذكره وحبه ، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته ، فيستولي عليه بدلها ، ويصير الهمّ به كله والخطرات كلها بذكره ، والفكرة في تحصيل مراضيه ، وما يقرب منه ، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق ، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور ، حين لا أنيس له ، ولا ما يفرح به سواه ، فهذا مقصود الإعتكاف في أفضل أيام الصوم ، وهو العشر الأخير من رمضان [1] » .

ويقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمة الله عليه :

« ولما كان الإعتكاف في المسجد سبباً لجمع الخاطر ، وصفاء القلب ، والتفرّغ للطاعة ، والتشبّه بالملائكة ، والتعرض لوجدان ليلة القدر ، اختاره النبي ﷺ في العشر الأواخر ، وسنّه للمحسنين من أمته [2] » .

لذلك داوم عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وحافظ عليه المسلمون في كل جيل ، وفي كل عصر ومصر [3] وأصبح من السنن المأثورة ومن شعائر رمضان ، فمن عائشة رضي الله تعالى عنها : « أن النبي ﷺ ، كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى ، ثم اعتكف أزواجه ، من بعده [4] » . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً [5] » .

---

(١) زاد المعاد - ص ١٦٨ .
(٢) حجة الله البالغة - ج٢ - ص ٤٢ .
(٣) الإعتكاف في أكثر المذاهب سنة ، وليس بواجب إجماعاً . وعند الحنفية سنة مؤكدة في العشر الأخير من رمضان ، سنة كفاية كما في البرهان وغيره .
(٤) حديث متفق عليه .
(٥) رواه البخاري .

ليلة القدر :

ونوّه القرآن والسنّة – في قوة وتكرار – بفضل ليلة القدر ، فقال الله تعالى : « إنّا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزّل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام ، هي حتى مطلع الفجر [1] » وقال النبي ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غُفر له ما تقدم من ذنبه [2] » .

وكان من حكمة الله تعالى ، ورحمته بعباده ، أن جعلها غامضة مُبهمة في العشر الأواخر من رمضان ، ليتحرّاها المسلمون، وتعلو همّتهم ، ويشتدّ طلبهم ، ويُحيوا الليالي الأخيرة كلّها بقيام وعبادة ودعاء ، كما كان شأن النبي ﷺ ، فقد روت عنه عائشة رضي الله عنها ، قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان، أحيا الليل كله وأيقظ أهله، وجدّ وشدّ المئزر [3] » وعنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره ، وفي العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيره [4] » .

وقد تضافرت الأحاديث والأخبار ، على أنها في العشر الأواخر ، والسبع الأواخر من رمضان ، وأنها في الوتر من الليالي ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما « أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحرّيها فليتحرّها في السبع الأواخر [5] ». وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت :

---

(١) سورة القدر .
(٢) حديث متفق عليه .
(٣) حديث متفق عليه .
(٤) رواه مسلم .
(٥) حديث متفق عليه .

« كان رسول الله ﷺ ، يجاور في العشر الأواخر من رمضان ، ويقولُ : تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر في رمضان [١] » وعنها رضي الله عنها : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان [٢] ».

وقد بحث في ليلة القدر شيخ الاسلام الدهلوي في كتابه « حجة الله البالغة » بحثاً ممزوجاً بعلمٍ بالكتاب والسنة ، وبوجدان وتجربة ، فقال :

« واعلم أن ليلة القدر ليلتان ، إحداهما ، ليلة فيها يُفرق كل أمر حكيم ، وفيها نزل القرآن جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك نجماً نجماً ، وهي ليلة في السّنة ، ولا يجب أن تكون في رمضان ، نعم ، رمضان مظنّة غالبة لها ، واتفق أنها كانت في رمضان عند نزول القرآن .

والثانية ، يكون فيها نوع من انتشار الروحانية ، ومجيء الملائكة إلى الأرض ، فيتفق المسلمون فيها على الطاعات ، فتتعاكس أنوارهم فيما بينهم ، ويتقرّب منهم الملائكة ، ويتباعد منهم الشياطين ، ويستجاب منهم أدعيتهم وطاعاتهم ، وهي ليلة في كل رمضان في أوتار العشر الأواخر تتقدم وتتأخر فيها ، ولا تخرج منها ، فمن قصد الأولى ، قال ، هي في كل السّنة ، ومن قصد الثانية ، قال هي في العشر الأواخر من رمضان . وقال رسول الله ﷺ : أرى رؤيا كم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحرّيها فليتحرّها في السبع الأواخر . وقال : أريت هذه الليلة ، ثم أنسيتها ، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين ، فكان ذلك في ليلة إحدى وعشرين ، واختلاف الصحابة (رضوان الله

---

(٦) حديث متفق عليه .

(٧) رواه البخاري .

عليهم) فيها مبني على اختلافهم في وجدانها [1] » .

دور الاسلام الاصلاحي

في تشريع الصوم :

قام الإسلام بنفس الدور الإصلاحي ، الذي قام بـه في جميع العبـادات والفرائض، والمناسك، وكان إصلاحاً جذرياً، في مفهوم الصوم وآدابه وأحكامه، ووضعه ، جعله أعظم يسراً وسهولة، وقرباً الى الفطرة السليمة ، وأضمن بالفوائد الروحية والإجتماعية ، وأعمق تأثيراً في النفس والمجتمع .

فمن إصلاحاته الكثيرة المتنوعة ، هو التحويل في مفهوم الصوم ، فقد كان رمزاً للحداد والحزن ، وتذكاراً للكوارث والمآسي ، في الديانة اليهودية ، كما أسلفنا ، فحوّله الإسلام من هذا المفهوم القاتم ، الذي يغلب عليه التشاؤم ، الى مفهوم منشّط مُشرِق تغلب عليه روح التفاؤل ، وجعله عبادة عامة ،يتمتع فيها الصائم بالنشاط والفرح ، ويستبشر بما وعده الله تعالى ، وثوابه الجزيل ، ورضاه ، ووردت الآيات والأحاديث المبشّرة بالثواب، المتضمنة بالفرح الطبعي، تثير في الصائم هذا الشعور وهـذه الثقة ، فقد جاء في حديث قدسي : « إلاّ الصوم فإنه لي وأنا أجزي به [2] » وورد في هذا الحديث : « للصائم فرحتان : فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه [3] » . وقد أحاط الصائم بجوّ من السُمُوّ ، والحظوة ، والمكانة عند الله تعالى ، فقال : « لخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك [4] » وذلك جوّ يخالف جوّ الحداد والمآتم والحزن والتشاؤم .

---

(١) حجة الله البالغة - ج ٢ - ص ٤١ - ٤٢ .
(٢) رواه الستة .
(٣) رواه الستة عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .
(٤) ايضاً .

وقد كان الصوم عند اليهود مرادفاً لتذليل النفس والعقوبة ، وقد شاع هذا التعبير في أسفارهم وصحفهم ، فقد جاء في اللاويين أو سفر الأحبار :

« ويكون لكم فريضة دهريّة أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر ، تذلّلون نفوسكم وكل عمل لا تعملون ، الوطنيُّ والغريب النازل في وسطكم ، لأنه في هذا اليوم يكفّر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم ، أمام الربّ تطهرون[1]. وجاء في موضع آخر :

« وكلّم الربُّ موسى قائلاً ، أمـــا العاشر من هذا الشهر السابع ، فهو يوم الكفارة ، محفلاً مقدساً ، يكون لكم ، تذللون نفوسكم وتقرّبون وقوداً للرب ، عملاً ما لا تعملوا في هذا اليوم عينه . لأنه يوم كفّارة للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم [2] » .

وجاء في سفر العدد :

« وفي عاشر هذا الشهر السابع ، يكون لكم محفل مقدّس ، وتذلّلون أنفسكم ، عملا ما لا تعملوا [3] .

أمّا الشريعة الإسلامية ، فلم تعتبر الصوم إيلاماً للنفس ، ولا عقوبة من الله ، ولم ترد في القرآن ولا في السنّة كلمة تدل على ذلك ، بل اعتبرته عبادة ، يتقرب بها العبد الى الله ، ولم تشرّع من الأحكام الغليظة المجحفة ، ومن القيود القاسية العنيفة ، ما تجعله مرادفاً لتعذيب النفس وإرهاقها ، وحملها على ما لا طاقة لها به ، بل سنّت التسحّر ، واستحبّت تأخيره : *الى أن يتبيّن الخيط الأبيض*

---

(١) اللاويين ـ الاصحاح السادس عشر (٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١) الكتاب المقدس ، اي كتب العهد القديم ، والعهد الجديد « ترجمة مرسلي الجمعية الامريكانية » « طبع نيويورك » .
(٢) اللاويين ـ الاصحاح الثالث والعشرون (٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨) .
(٣) سفر العدد ـ الاصحاح التاسع والعشرون (٧) .

من الخيط الأسود من الفجر ، وسنّت تعجيل الفطور ، وأباحت النوم والراحة في الليل والنهار ، والإشتغال بالصناعة والتجارة ، والأعمال المفيدة المباحة ، خلافاً لليهودية ، التي فرضت الإضراب عن العمل ، والإنقطاع الى العبادة .

وكان الصوم في كثير من الديانات نقديمة – ولا يزال – مختصاً بطبقة دون طبقة ، فكان في الديانة البرهمية ، فريضة على البراهمة في أكثر الأحيان ، وعند المجوس على العلماء والكهنوت (دستور) ، وعند اليونان بالإناث دون الذكور .

أما الاسلام، فقد عمّم وأطلق. فنزل : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه [١]» ويجانب هذا التخصيص ، الذي عُرفت به الديانات القديمة ، لم تستثن المعذورين ، أما الاسلام فقد استثنى اصحاب العذر ، وقال الله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدةٌ من أيام أُخر [٢]» وقال : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين [٣] » .

وقد كان في بعض الديانات جوع أربعين يوماً ، لا يتناول فيها الصائم غذاءاً ، وبالعكس من ذلك توسّعت بعض الديانات توسعاً زائداً ، فاقتصرت على تحريم تناول اللحوم ، وأباحت الفواكه والمشروبات ، أما الاسلام ، فقد جاء تشريعه وسطاً بين الشدة والرقة ، وبين الإرهاق والاطلاق ، فجاء صومه صوماً متزناً عادلاً ، ليس فيه تعذيب أبدان ، ولا إزهاق ارواح ، وليس فيه كذلك إرخاء عنان ، ولا تسريح في روح وريحان .

وكان اليهود يقتصرون على ما يأكلونه عند الفطر ، ثم لا يعودون الى أكل

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٤ .
(٣) سورة البقرة : ١٨٤ .

او تمتع . اما العرب فكانوا لا يأكلون ولا يتمتعون بالمباحات ، اذا ناموا . أما الاسلام فقد الغى هذه القيود كلها، ونزل القرآن : «وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر [1] » وكذلك عُفي عن الخطأ والنسيان [2]، وكذلك لا يُفسد الصوم افعال اضطرارية : كالقيء والرّعاف ، والإحتلام [3] خلافاً لبعض الديانات .

وكان الصوم في اكثر الديانات القديمة مضبوطا بالشهور الشمسية ، وكان ذلك يحتاج الى العلوم الرياضية والفلكية ، والى وضع التقاويم ، ثم كانت تلك الأيام مستقرة دائمة في فصول خاصة ، لا تدور ولا تنتقل .

أما الصوم الاسلامي فهو مضبوط بالشهور القمرية ، ومربوط بالهلال [4] فقد جاء في القرآن : « يسئلونك عن الأهلّة: قل هي مواقيت للناس والحج [5]»وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تصوموا قبل رمضان ، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فان حالت دونه غيابة ، فأكملوا ثلاثين يوما [6] » . وجاء في حديث آخر : « لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه ، فإن غمّ

---

(١) سورة البقرة : ١٨٧ .
(٢) عن ابي هريرة رضي الله عنه قال :«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .من أكل وشرب ناسياً فلا يفطر،فانما هو رزق رزقه الله» (رواه الترمذي) ورواه الشيخان ولفظهما : « من نسي وهو صائم فأكل وشرب فليتم صومه فانما اطعمه الله وسقاه ».
(٣) عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لا يفطرن الصائم الحجامة ، والقيء ، والإحتلام (رواه الترمذي) .
(٤) والمعتبر في الشريعة الاسلامية ، شهود الهلال ، لا وجوده . فلا يحتاج الى تكلفات رياضية وصناعية يهتدى بها الى وجوده . كما يلجأ الى ذلك بعض البلاد والحكومات الاسلامية . وعلى ذلك يدل الحديث الصحيح « صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته . وفي المسئلة بحث علمي طويل .
(٥) سورة البقرة : ١٨٩ .
(٦) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه .

عليكم فاقدروا له [1] » فاستطاع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي البوادي وقلل الجبال وفي الدور الممعن في البداوة والأمية ، وفي أمكنة منقطعة موغلة في الغابات والآجام ، أن يبدأوا الصوم ويختموه من غير مشقة ، وتكلف ، وبحث علمي عميق ، وكانت فائدته كذلك ، أن رمضان يدور في فصول مختلفة ، من شتاء وصيف ، فلا يكلف المسلمون بالصوم في حر لافح ، وفي قيظ شديد ، ولا في برد قارس وشتاء كالح ، دائماً وفي كل سنة ، فيتمتعون بتغيُّر الفصول واختلاف الطقوس ، ويتعوّدون كل ذلك ، وهم في كل ذلك صابرون محتسبون ، أو شاكرون حامدون [2] » .

ومن عرف أوضاع الصوم ، ومناهجه ، في الأمم القديمة ، والديانات المعاصرة ، ودرس تاريخها وفلسفتها ، وشاهد أحوال الصائمين فيها — على قلتهم وتشتّت أحوالهم — وقارن ذلك بالصوم الاسلامي ، ووضعه ومنهجه ، وفقهه وآدابه ، وأكرمه الله بالدخول في هذه الأمة المسلمة ، والعمل بالشريعة الاسلامية السمحة ، نطق لسانه بالحمد والثناء ، والشكر على نعمة الاسلام ، وكان حقيقاً بأن يقول وهو صائم :

« الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق [3] » .

---

(١) رواه الستة الا الترمذي .

(٢) استندنا في هذا الفصل من كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، للاستاذ العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله (المجلد الخامس) .

(٣) سورة الأعراف : ٤٣ .

الحج

الحج

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق [1] ».

الاسلام دين توحيد وتجريد ، لا وساطة فيه ، ولا تمثيل :

الاسلام دين توحيد خالص ، دين لا يؤمن بالوساطة بين العبد وربه [2] ، ولا بمشهود محسوس يركز عليه الإنسان تفكيره ، ويصرف اليه همته ، ليتخيل به الإله الذي لا تدركه الأبصار ، ويرتبط به في خياله ، ويتمسك بأذياله ، فلا وسائط ولا مظاهر ، ولا صور ولا أصنام ، ولا هياكل ولا طبقة كهّان ولا سدنة ، « وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون [3] » « فاعبد الله مخلصاً له

---

(١) سورة الحج : آية : (٢٧ - ٢٨ - ٢٩) .
(٢) الا الرسل والأنبياء ، بمعنى انهم واسطة بين الخالق والخلق في تبليغ الرسالة ، والتعريف بالله وصفاته ، وما يليق به ، وما لا يليق ، والارشاد الى الطريق المستقيم .
(٣) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

الدين ، ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى [١]» .

إذاً فالإسلام دين يطلب تجرّداً في الخيال ، وسمواً في الفكر ، ونقاءاً في الإرادة والنية ، وإخلاصاً في العمل والتطبيق ، وانقطاعاً عن الغير ، لا يتصور فوقه وأكثر منه ، ومستوى في الفكر والعقيدة ، لم تبلغ الإنسانية ولا الأديان والفلسفات ،والنظم الدينية أو العقلية الى مثله او قريب منه ، وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه في الدقّة والسمّو ، فقال : « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير [٢] ».

حاجة الإنسان الى « مشاهد » يوجه اليه أشواقه ، ويحقق رغبته من التعظيم والدنو :

ولكن الفطرة البشرية ، هي الفطرة البشرية ، فالإنسان ما زال – ولا يزال – باحثاً عن شيء يراه بعينه ، فيوجّه إليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحّة ، في التعظيم والدنو .

شعائر الله وحكمتها :

وقد اختار الله أموراً ظاهرة محسوسة ، اختصّت به ، ونسبت اليه ، وتجلت عليها رحمته ، وحفتّها عنايته بحيث إذا رؤيت ذكر الله ، وارتبط بها وقائع وحوادث ، وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه ، ودينه وتوحيده ، وحسن بلاء أنبيائه ، وسمّاها « شعائر الله » [٣] التي جعل تعظيمها تعظيمه ، والتفريط في

(١) سورة الزمر آية : ٢ – ٣ .
(٢) سورة الشورى آية : ١١ .
(٣) اقرأ البحث اللطيف في ذلك ، في حجة الله البالغة ، لحكيم الاسلام احمد بن عبدالرحيم الدهلوي (ج ١ – ص ٥٥) .

بجنبها تفريطاً في جنبه ، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة ، بل حثّ على ذلك ، ودعا اليه فقال : « ذلك ، ومن يعظّم شعائر الله ، فإنها من تقوى القلوب [1] » وقال : « ذلك ومن يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربّه [2] » .

عنصر الهيام والحنان ، في طبيعة الانسان ، أثرهما في الحياة ، ومنزلتهما من الدين :

ثم إن الإنسان ، ليس عقلاً مجرداً ، ولا كائناً جامداً يخضع لقانون ، أو إرادة قاسرة ، ولا جهازاً حديدياً يتحرك ويسير تحت قانون معلوم ، أو على خط مرسوم ، إن الإنسان عقل وقلب ، وإيمان وعاطفة ، وطاعة وخضوع ، وهيام وولع ، وحب وحنان ، وفي ذلك سر عظمته وشرفه وكرامته ، وفي ذلك سر قوّته وعبقريته وإبداعه ، وسر تفانيه وتضحيته ، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة ، وأن يصنع العجائب والخوارق ، واستحقّ أن يحمل أمانة الله التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ، ووصل الى ما لم يصل اليه ملك مقرب ، ولا حيوان ولا نبات ولا جماد .

إن صلة هـذا الإنسان بربّه ، ليست صلة قانونية ، عقلية فحسب ، يقوم بواجباته ويدفع ضرائبه ، ويخضع أمامه ، ويطيع أوامره وأحكامه ، إنما هي صلة حبّ وعاطفة كذلك ، صلة لا بد ان يرافقها ، ويقترن بها ، ويتحكّم فيها حنان وشوق ، وهيام ولوعة ، وتفان وتهالك ، والدين لا يمنع من ذلك ، بل يدعو اليه ، ويغذيه ويقويه ، فتارة يقول القرآن : « والذين آمنوا أشدّ حبّاً

---

(١) سورة الحج : ٣٢ .

(٢) سورة الحج : ٣٠ .

لله[1] » وتارة يقول : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين[2] » ويذكر أنبياءه رسله ، وينوّه بحبهم وحنانهم ، ويحدث عن أشواقهم وتفانيهم في هذا الحبّ ، فيقول عن يحيى (عليه السلام) : « وآتيناه الحكم صبياً ، وحناناً من لدنّا وزكاة ، وكان تقيّاً[3] » ويحكي قصة خليله ابراهيم كيف آثر حبّ الله وطاعته على حب ولده، وفلذة كبده ، وكيف وضع السكين على حلقومه ، وحاول ذبحه حتى شهد ربّه بصدقه وحسن بلائه ، وقال : « يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا ، إنّا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين[4] » ولذلك قال في وصف ابراهيم : « إن ابراهيم لحليم أوّاه منيب[5] » .

« الصفات » هي التي تثير الحب ، وتبعث الحنان،
لذلك أطال وأكثر من ذكرها القرآن :

وذلك سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله وأفعاله ، وآلائه ونعمائه ، وإشادته بها ، والعودة اليها مرة بعد مرة ، فإن الصفات ، هي التي تثير الحب وتبعث الحنان ، وتوجد الأشواق ، وذلك سر تفصيل القرآن الذي يعبّر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام ، « بالنفي المجمل والإثبات المفصّل[6] فإن الإثبات هو الذي ينبع منه الحب ، ويفيض منه الحنان ، وتنبعث به الأشواق،

---

(١) سورة البقرة : ١٦٥ .
(٢) سورة التوبة : ٢٤ ،
(٣) سورة مريم : ١٢ - ١٣ .
(٤) سورة الصافات : ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ .
(٥) سورة هود : ٧٥ .
(٦) التعبير لشيخ الاسلام ابن تيمية

وتتغذى به العاطفة ، فإذا كان النفي رائد العقل ، كان الإثبات رائد القلب ، ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى ، التي نطق بها القرآن ، ووردت بها السنة ، وهام بها الهائمون ، وتغنى بها العارفون ، وسبّح بها المسبّحون ، وسبح في بحارها ، ونزل في أعماقها الغوّاصون؛ لكان هذا الدين خشبياً جامداً، لا يملك على أتباعه قلباً ، ولا يثير فيهم عاطفة ،ولا يبعث فيهم حماسة ، ولا يحدث في القلب رقة ، ولا في الصلاة خشوعاً ، ولا في العين دموعاً ، ولا في الدعاء ابتهالاً ، ولا في الجهاد تفانياً ، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح ، ولا مرونة ولا سعة ، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة خشبية ، لا عاطفة فيها ولا أشواق ، ولا حنان فيها ولا هيام ، وإذاً : أي فرق بين الحياة والموت ، وبين الإنسان والجماد ؟!

ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض ؟:

لقد كان المسلم في حاجة الى غذاء للقلب ، والى زاد للعاطفة ، والى ان يقضي شوقه ، ويروي غلته مرة بعد مرة ، وعلى فترة بعد فترة ، وكان في حاجة الى ان تطفح كأسه ، فما قيمة كأس تمتلىء ولا تطفح ؟. وكان في حاجة الى ان تفيض هذا الكأس ، فما قيمة كأس تطفح ولا تفيض ؟.

تسلية البيت والحج لحنان المسلم وهيامه :

وقد تفطّن حجة الإسلام الغزالي بذكائه النادر ، وفقهه الدقيق لأسرار التشريع لهذه النكتة ، وعرف ان الشوق غريزة في الإنسان الحي السليم ، وحاجة من حاجاته ، فيبحث له عما يقضي به حاجته ، ويروي غلته ، وكان البيت العتيق وما حوله من شعائر الله ، والحج وما فيه من مناسك ، خير ما يحقق رغبته ، ويسلي حنانه وعاطفته ، وقد قال الله تعالى : « وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً ، وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركّع

السجود . وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوّفوا بالبيت العتيق [١] ».

يقول الغزالي :

« فالشوق الى لقاء الله عز وجل يشوقه الى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع ان المُحبّ مشتاق الى كل ما له الى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف الى الله عز وجل ، فبالحرى ان يشتاق اليه لمجرد هذه الإضافة ، فضلاً عن الطلب لنيل ما وُعد عليه من الثواب الجزيل [٢] » .

ويردفه شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، فيشير الى نفس النكتة ، ويجعلها حكمة الحج الأساسية ، فيقول :

« وربما يشتاق الإنسان الى ربه أشد شوق ، فيحتاج الى شيء يقضي به شوقه فلا يجده إلا الحج [٣] » .

لقد كان للمسلم ان يقضي هذا الشوق ، وان يبرز هذا الحنان ، وان تفيض كأسه في الصلوات التي يصليها كل يوم ، فيسلي بها قلبه ، ويطفيء بها غلته ، ويهديء بها ثائرته ، ويخفف بها حرارة شوقه ، ووهج نفسه ، ولكنها قطرات محدودة تتكون خشوعاً ، او تسقط دموعاً ، إنها قطرات قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنان وولوع ، وهي قطرات قليلة في بعض الأحيان لا تسمن ولا تغني من جوع .

---

(١) الحج – آية – ٢٦ – ٢٧ – ٢٨ – ٢٩ .
(٢) إحياء علوم الدين – ج١ – ص ٢٤ .
(٣) حجة الله البالغة – ج١ – ص ٥٩ .

طفرة ، أو قفزة واسعة من سجن ضيق الى عالم فسيح :

وكان للمسلم ان يروي ظمأ روحه ، ويقضي حاجة حنانه ، ويكسر سورة نفسه ، ويثور على « وثنية » عاداته ومألوفه ، وأن يغذي روحه بتخلية معدته في شهر رمضان ، ولكنها ساعات محدودات كذلك ، محفوفة بما يخفف أثرها ، ويضعف سلطانها ، من أكلة متخمة وريّ مسرف ، وراحة منعمة ومجتمع ثائر ، ومدنية قد أحاطت بالصائم ، كما تحيط البحار المتلاطمة بجزيرة صغيرة ، فكان المسلم – بكل ذلك – في حاجة الى طفرة ، او قفزة واسعة يفك بها أغلاله وسلاسله ، وينسلخ بها من سجنه الضيق القديم ، العتيق الخانق ، وينتقل من عالم ، كله قديم مألوف ، ومقيد محدود ، ومخطوط مرسوم ، ومصنوع معمول ، الى عالم ، كله جديد وطريف ، وحر منطلق ، وثائر مارد ، كله حب وغرام ، وشوق وهيام ، قد تحرر من كل رق ، وثار على كل وثن ، وكفر باختلاف الجنس واللون والوطن ، وآمن بوحدة الإلهية ، وبوحدة المنعم والوهاب ، وبوحدة الإنسانية ، وبوحدة العقيدة ، وبوحدة المطلوب ، وهتف الناس جميعاً بصوت واحد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

لقد كان المسلم في حاجة – بعد هذه الصلوات ، التي يصليها كل يوم ، وبعد شهر رمضان ، الذي يصومه كل عام ، وبعد الزكاة ، التي يقوم بها اذا تم النصاب وحال الحول – الى أن يشهد موسماً هو ربيع الحب والحنان ، وملتقى المحبين والمخلصين ، ومشهد العشاق والهائمين .

تحد لعبّاد العقل والمادة ، ودعوة الى الايمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد :

وكان المسلم في حاجة الى ان يثور على عقله ، الرزين الوقور ، المقلد المطبق ،

وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد ؟ . وكان في حاجة الى ان يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات ، وقوانين وضعية ، وحضارة مصطنعة ومجتمع قاس ، ويفك قيوده وأغلاله ، وينتزع الزمام من يـد عقله ، الذي استبد بـه زماناً طويلاً ، ويعطيه لقلبه وعاطفته ، فيتحكمان فيه ما شاءا ، ويهيم عـلى وجهه كما هام الهائمون ، ويذهب في الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيمون ، فلا حرية لمن ملكه المجتمع ، وسيطرت عليه الحضارة ، وتسلطت عليه آلهة التقاليد ، ولا توحيد لمن أسرته العادات ، والمألوفات والشهوات ، ولا يعتبر مطيعاً منقاداً ، مسلماً مستسلماً ، من اعتمد دائماً على عقله ، لا ينشط لعمل ، ولا يسرع لامتثال أمر ، حتى يزنـه في ميزان عقله المخلوق ، ويعرف فوائده المادية المحسوسة . والحج بوضعه الدقيق الغامض ، المنافي للمألوف المعروف ، لعبّاد العقل والمادة ، وأسارى النظم والترتيبات ، ودعوة الى الإيمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد ، وعزل العقل عن وظيفته لمدة محدودة ، وفي مكان محدود ، وصرفه عن طلب الدليل والحكمة ، والمنطق والفلسفة في كل حين وأوان ، وفي كل زمان ومكان .

وقد أبدع حجة الإسلام الغزالي كل الإبداع في بيان روح الحج وحقيقته ، – وهي الإيمان بالغيب ، والإمتثال المطلق – وصوّر بقلمه البليغ ، وريشته البارعة ، صورة الحج الرائعة ، وبلغ الى لب الدين وجوهره ، وروح الإسلام وحقيقته في شرح هذا الركن العظيم ، وقد غفل عن ذلك أكثر العلماء والكتّاب في القديم والحديث ، يقول رحمه الله :

« ووضعه (أي البيت) على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق شعثاً غبراً ، متواضعين لرب البيت ، ومستكينين له ، خضوعاً لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت ، أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلـغ في رقهم وعبوديتهم ، وأتمّ في إذعانهم وانقيادهم .

ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي الى معانيها العقول ، كرمي الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فإن الزكاة إرفاق ، ووجهه مفهوم ، وللعقل إليه ميل ، والصوم كسر للشهوة ، التي هي آلة عدو الله ، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عزّ وجل بأفعال ، هي هيأة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل ، فأما ترددات السعي ورمي الجمار ، وأمثال هذه الأعمال ، فلا حظ للنفوس ، ولا أنس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل الى معانيها ، فلا يكون في الاقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد ، وقصد الإمتثال للأمر من حيث أنه أمر واجب الاتباع فقط .

وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه ، فإنْ كل ما أدرك العقل معناه ، مال الطبع اليه ميلاً ما ، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل ، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً ، تعبداً ورقاً» ، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها .

واذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ، ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على سنن الانقياد ، وعلى مقتضى الاستعباد ، كان ما لا يهتدى الى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس ، وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق الى مقتضى الاسترقاق ، واذا تفطنت لهذا ، فهمت ان تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة ، مصدره الذهول عن أسرار التعبدات ، وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى [1] » .

ويقول في الرمي ، ويذكر أن العمدة فيه الانقياد والأمر المجرد :

---

(١) إحياء علوم الدين – المجلد الأول – ص ٢٤٠ .

« فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضاً لمجرد الامتثال ، من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له ابليس لعنه الله تعالى ، في ذلك الموضع ، ليدخل على حجته شبهة ، او يفتنه بمعصية . فأمر الله عز وجل ، ان يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله ، فإن خطر لك ان الشيطان عرض له وشاهده ، فلذلك رماه ، وأما أنا ، فليس يعرض لي الشيطان ، فاعلم ان هذا الخاطر من الشيطان ، وانه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي فيه برغم أنف الشيطان .

واعلم انك في الظاهر ترمي الحصى الى العقبة ، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه [1] » .

ويقول في الذبح :

« فاعلم أنه تقرب الى الله تعالى بحكم الامتثال ، فأكمل الهدي ، وارجُ ان يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار ، فهكذا ورد الوعد ، فكلما كان الهدي أكبر ، وأجزاؤه أوفر ، كان فداؤك من النار أعمّ [2] » .

« الحاج » طوع إشارة ، ورهين أمر :

والحج بمناسكه وأركانه وأعماله ، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة ، وامتثال للأمر المجرد ، وسعي وراء الأمر ، وتلبية وإجابة للطلب ، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى ، وعرفات والمزدلفة ، ثم منى ومكة : يقيم ويرحل ، ويمكث وينتقل ، ويخيم ويقلع ، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر ، ليست له

---

(١) احياء علوم الدين جـ ١ — ص ٢٤٣ .
(٢) احياء علوم الدين جـ ١ — ص ٢٤٣ .

إرادة ولا حكم ، وليس له اختيار ولا حرية ، ينزل بمنى فلا يلبث ان يؤمر بالانتقال الى عرفات ، من غير أن يقف بالمزدلفة ، ويقف بعرفات ، ويظل سخابة النهار مشتغلا بالدعاء والعبادة ، وتحدثه نفسه بالمكث بعد الغروب ، ليستجم ويستريح ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالإنتقال إلى المزدلفة ، ويقضي حياته محافظاً على الصلوات في وقتها ، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأنه عبد لربه ، ليس عبداً لصلاته وعاداته ، فلا يصليها إلا بالمزدلفة جمعاً مع العشاء ، وتطيب له الاقامة في المزدلفة ، فيريد أن يطيلها ، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال الى منى .

وهكذا كانت حياة ابراهيم وحياة الأنبياء ، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيّمين ، نزول وارتحال ، ومكث وانتقال ، وعقد وحل ، ونقض وإبرام ، ووصل وهجر ، ولا خضوع لعادة ، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى .

فضل المكان والزمان وموسم الحب والحنان :

وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكان ، قد قام فيه أكبر المحبين وإمام المخلصين ، وأشد الناس حباً لله ، وأحبهم الى الله في عصره ، وأسرته الصغيرة ، الطيبة المباركة ، بأكبر دور في الحب والولاء ، والاخلاص والوفاء ، والايثار والفداء، وقاموا بأروع رواية وأجملها ، في تاريخ الحب السامي والولاء الطاهر ، والاخلاص المعجز ، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون ، والموحدون المخلصون، والمحبون المتفانون في كل عصر، فنسكوا مناسكهم وشهدوا مشاهدهم ،واحتذوا حذوهم ، وترسموا خطاهم ، وحكوا هذه الرواية وأعادوها ، فطافوا حول البيت ، وسعوا بين الصفا والمروة ، ووقفوا بعرفات ، وباتوا في المزدلفة ، ورموا الجمرات ، ونسكوا في منى .

وكان في المكان والزمان ، وفصول الرواية التي يعيدونها ، والأعمال التي يقلدونها ، ونسائم الحب التي ينشقونها ، والجو الفائض بالايمان والحنان الذي يعيشون فيه ، وطبقات الأمة ، التي يتصلون بها ويعاشرونها ، وفي هذا الالتقاء الديني الروحي ، الذي لا نظير له على وجه الأرض ، وفي هذا الضجيج من الدعاء ، والذكر والتلبية والاستغفار ، ما يعيد الحياة الى القلوب الميتة ، ويحرك الهمم الفاترة ، وينبه النفوس الخامدة ، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت ، او كادت تنطفيء ، ويجلب رحمة الله .

وقد أشار العلماء العارفون الى ما في اجتماع المسلمين العظيم ، واجتماع هممهم ودعواتهم وقلوبهم الصادقة من تحريك لرحمة الله تعالى ، ومن تحريك للقلوب القاسية ، وإثارة للأشواق .

يقول حجة الاسلام الغزالي :

« فإذا اجتمعت هممهم ، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ، وارتفعت الى الله سبحانه أيديهم ، وامتدت اليه أعناقهم ، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة ، فلا تظن انه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ، ويدخر عنهم رحمة تغمرهم [1] » .

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« إعلم ان حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان ، يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصدّيقين ، والشهداء والصالحين ، ومكان فيه آيات بينات ، قد قصده جماعات من أئمة الدين ، معظّمين لشعائر الله ، متضرعين راغبين وراجين من الله الخير ، وتكفير الخطايا ، فإن الهمم اذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة ، وهو قوله ﷺ : « ما رؤي

---

(١) إحياء علوم الدين – ج١ – ص ٢٤٣ .

الشيطان يوماً ، هو فيه أصغر ولا أدحر ، ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة (الحديث) [١] » .

وقال :

« ومن باب الطهارة النفسانية ، الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه ويحلون فيه ، ويعمرونه بذكر الله ، فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة السفلية ، ويعطف عليه دعوة الملأ الأعلى الكلية لأهل الخير ، فإذا حلّ به غلب ألوانهم على نفسه [٢] » .

تجديد الصلة بامام الملة الحنيفية « ابراهيم » من أعظم مقاصد الحج :

ومن مقاصد الحج الرئيسية تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية ومؤسسها ابراهيم الخليل ، والتشبع بروحه ، والمحافظة على إرثه ، والمقارنة بين حياتنا وحياته وعرضها عليها ، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون في العالم ، وتصحيح ما وقع في حياتهم من أخطاء او فساد ، او تحريف ، وإعادة ذلك كله الى أصله ومنبعه ، فالحج عرضة سنوية للملة تضبط أعمال المسلمين وحياتهم ، ويتخلصون بها من نفوذ الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها .

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

« (ومن مقاصد الحج) موافقة ما توارث الناس عن سيدنا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، فإنهما إماما الملة الحنيفية ، ومشرعاها للعرب ، والنبي ﷺ بعث لتظهر به الملة الحنيفية ، وتعلو به كلمتها ، وهو قوله تعالى : « ملة أبيكم

---

(١) حجة الله البالغة — ج١ — ص ٥٩ .

(٢) حجة الله البالغة — ج١ — ص ٥٩ .

ابراهيم[1] » .

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامها كخصال الفطرة[2]، ومناسك الحج، وهو قوله ﷺ : « قفوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم[3] » .

إعادة قصة ابراهيم، وتمثيلها في الحج :

فمن أوضح ملامح الحج، والروح المسيطرة على جميع أعماله ومناسكه، هو الحب والهيام والتفاني، وإعطاء زمام الجسم والفكر للقلب والعاطفة، وتقليد العشاق والمحبين، وإمامهم وزعيمهم ابراهيم الخليل، فحيناً طواف الحب والهيام حول البيت الحرام، وحيناً تقبيل الحجر الأسود والإستلام، وحيناً سعي بين غايتين، وتقليد ومحاكاة للأم الحنون، حتى في تؤدتها ووقارها، وفي جريها وهرولتها، ثم قصد (لمنى) في يوم معين هو يوم التروية، ثم قصد الى (عرفات) ووقوف بساحتها وعرصاتها، ودعاء وابتهال، ثم بيتوتة في المزدلفة، وعودة الى (منى) وحلق ونحر، اقتداء لسنة ابراهيم ومحمد عليهما السلام .

وأوضح ملامح هذا الحب والتقليد رمي الجمرات، الذي ليس إلا تمثيلاً لما صدر عن الخليل، وفي تقليد أعمال المحبين تأثير غريب في انتقال عدوى الحب، واتصال بالمركز الكهربائي، الذي يجري منه التيار، ووسيلة الى جلب رحمة الله وشمول عنايته، وليس لمن ذاق حلاوة الحب منظر، الذ من هذا المنظر، الذي يجتمع فيه المحبون الطائعون لتمثيل هذه القصة التي حدثت قبل آلاف من السنين، ولكن الله أفاض عليها الخلود، وطلب من جميع المحبين المخلصين اعادتها

---

(١) سورة الحج : آية : ٧٨ .

(٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عشر من الفطرة، قص الشارب، وإعفاء اللحية والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء — يعني الاستنجاء، .قال الراوي ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة » . (رواه أبو داؤد والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ورواه أحمد في المسند . عن عائشة رضي الله عنها) .

(٣) حجة الله البالغة : ج ٢ ص ٤٢ .

وتمثيلها ، إخزاءً للشيطان ، وتقوية للإيمان ، واقتداءً بخليل الرحمن .

قصة ابراهيم في القرآن ،

وصلتها بالبلد الأمين :

ولد ابراهيم في بيت سادن من أعظم سدنة البلد ، ينحت الأصنام ويبيعها ، ويقوم على الهيكل الكبير ، ويتصل به عن طريق العقيدة ، وعن طريق الحرفة ، وما أعظم المشكلة ، وما أعقد العقدة ، اذا التقت العقيدة بالحرفة ، واجتمعت العاطفة الدينية مع المصلحة المالية ، ولا شيء في هذا الجو القاتم يثير الإيمان والحنان ، ويبعث على الثورة على هذه الخرافة الوثنية ، ولكنه قلب سليم مُهيّىء للنبوة ، وأعد لتكوين العالم الجديد ، « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين [١] » إنه يبدأ ثورته بمرحلة ربما لا تصل اليها ، ولا تتناولها أعظم ثورة ، إنها مرحلة الحياة المنزلية ، ومرحلة البيت الذي ولد فيه الإنسان ، وفرض عليه ان يعيش فيه ، ويقع كل ما يحكيه القرآن في أسلوبه المعجز المبين من تحطيم ابراهيم للأصنام ، وغضب عبادها وحيرتهم وعيّهم ، وانتقامهم من الفتى الثائر ، واشتعال النار وتحولها برداً وسلاماً على ابراهيم ، ومناظرته البليغة ، أمام الملك الجبار [٢] » .

وتنتهي هذه الثورة الى ان يضيق عليه البلد ، ويغضب عليه المجتمع ، وتطارده الحكومة ، فلا يحفل بكل ذلك ولا يحسب له حساباً ، كأنه شيء كان منه على ميعاد ، وكأنه نتيجة طبيعية قد توقعها ، فيخرج من بلده قرير العين ، رضي النفس ، إذ نجا برأس ماله ، وهو الإيمان، فيهيم في أرض الله ، وهو فريد لا يعرف له ثانياً ، والبلاد كلها نسخة واحدة من الوثنية والخرافة ، وعبادة الأوثان والشهوات ، حتى يهبط مصر ، فيكون هدف الامتحان والامتهان ، وينجو بصاحبته ، التي يطمع فيها الملك ، فيفلتان من يده ،

---

(١) سورة الأنبياء : آية : ٥١ .

(٢) إقرأ الآيات – ٥١ الى ٧٠ – من سورة الأنبياء .

ويأوي الى أرض الشام ، فيغرس فيها الغرس الكريم ، ويلقي فيها عصا التسيار ، ويقوم فيها بدعوته الى رفض الأوثان ، والى عبادة الله وحده .

وتطيب له الاقامة في الشام حيث يتوفر الخصب ويتسع الرزق ، ويتجلى جمال الطبيعة ، فلا يلبث ، ان يؤمر بالتوجه الى أرض تقابل الشام في الخصب والماء ، وابراهيم لا يعرف لنفسه حقاً ، ولا يرتبط بأرض او وطن ، إنما هو ضوع إشارة ورهن أمر ، يعتبر العالم بلده والسلالة البشرية أسرته ، يؤمر بأن ينتقل مع زوجته (هاجر) ومولودها الصغير الرضيع .

وهنا في واد ضيق ، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانب ، وقسا فيه الجو ، وفقد الماء ، وغاب الأنيس ، وأوحش المكان ، يؤمر بترك زوجته المرأة الضعيفة العاجزة ، والمولود الصغير ، توكلاً على الله وامتثالاً لأمره ، واستسلاماً لقضائه ، فلا جزع ولا فزع ، ولا إشفاق ولا حذر ، ولا سآمة ولا ضجر ، ولا خور في العزيمة ولا ريبة في الوعد ، تمرد على التجارب ، ومعاكسة للطبيعة ، وانقطاع عن الأسباب ، وإيمان بالغيب ، وثقة بالله ، حين تسوء الظنون وتزل الأقدام .

ويعرض المحذور والأمر الواقع ، فيغلب على الطفل العطش ، ويشتد بالأم الظمأ ، ولا مطمع هناك في ثماد[1] تروي غلتها ، وهنا تجيش في المرأة عاطفة الأمومة والحنان ، والاشفاق على المولود الصغير ، فتخرج باحثة عن الماء ، او عن سيارة تحمل الماء ، وتعدو مضطربة والهة بين جبلين ، يغلب عليها الحنين والإشفاق على الولد ، فترجع لتطمئن الى وجوده وحياته ، ويغلب عليها الخوف على الحياة ، فتعدو مسرعة تبحث عن ماء ، او عن أثر إنسان ، وهي بين اضطراب توحيه الطبيعة ، وسكينة يوحيها الإيمان والثقة ، وتعرف — وهي زوج نبيّ وأم نبيٍ — ان البحث عن الأسباب لا ينافي الإيمان والثقة بالله ، فهي

---

(١) الثمد : الماء القليل يتجمع في الشتاء ، وينضب في الصيف ، او الحفرة يجتمع فيها ماء المطر ، جمعه ، ثماد .

مضطربة في غير يأس ، ومؤمنة في غير تعطل وتواكل ، منظر لم تشهد السماء مثله ، وجاشت الرحمة الإلهية ، وتفجّر الماء بطريق معجز ، فكان ماء خالداً مباركاً لا ينضب ولا يغيض ، قد وسع الخلق ، ووسع الأجيال ، وكان ماء لكل عصر ، ولكل أمة ، فيه غذاء وشفاء ، وفيه بركة وأجر .

وخلد الله هذه الحركة الاضطرارية ، التي ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصة ، فجعلها حركة اختيارية ، يكلف بها أعظم العقلاء ، وأعظم الفلاسفة والنبغاء ، وأعظم الملوك والعظماء ، في كل عصر ، وفي كل جيل ، فلا يتم نسكهم إلا بالسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب ، وغاية كل مطيع ، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا العالم ، فهو يجمع بين العقل والعاطفة ، وبين الحس والعقيدة ، إنه يستعين بالعقل ، ويستخدمه في مصالح حياته ، ولكنه ينقاد أحياناً للعاطفة ، التي هي أعمق من العقل ، انه يعيش في عالم قد حفّ بالشهوات ، ومليء بالزخارف والمظاهر ، لكنه يمر بينها ، كالساعي بين الصفا والمروة ، لا يُعرّج على شيء ، ولا يتقيد بشيء ، إنما غايته وهمه ما يستقبله ، يعتبر حياته أشواطاً محدودة ، يقطعها إطاعة لربه ، وامتثالاً لأمره ، لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعي ، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به ، حركة قيمتها وروحها ورسالتها « الحب » و « الانقياد » .

ويكبر الولد ، ويبلغ السن التي تقوى فيها عاطفة الأبوة ، فيرافق والده ويسعى معه ، ويشعر الوالد العظيم الذي قويت فيه العاطفة الإنسانية ، وطبع على الحب والحنان بميل شديد الى ولده وفلذة كبده ، وهنا المشكلة ، فإن قلبه هو القلب السليم الذي خص بالمحبة الإلهية ، إنه ليس كقلب كل انسان ، انه قلب « خليل الرحمن » ، والمحبة لا تعرف شريكا ، ولا تحتمل عديلا ، فكيف وهي المحبة الإلهية ، وهنا يتلقى ابراهيم اشارة بذبح الولد الحبيب ، ورؤيا الأنبياء وحي ، وتتكرر الاشارة ، فعرف انه أمر يراد ، وانه جد ، فيختبر ولده ، لأنه شيء لا يتم الا بموافقته وجلادته ، فيجد عنده غاية البر ، وغاية

النجابة ، وغاية التضحية والتسليم للأمر الإلهي ، وهو نبي ابن نبي ، وجد نبي ، « قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين [1] » .

وهنا يقع ما لا يصدقه العقل ، فيخرج الوالد مع ولده النجيب الحبيب ، ذلك ليذبح ولده ، وهـذا يطيع ربـه ووالده ، وكلاهما مطيع للرب مستسلم لأمره ، وعرض لهما الشيطان – ذلك الذي تكفل بالضلال ، ومنع الإنسان من السعادة – فحاول صرفهما عن التنفيذ ، وزين لهما العصيان ، ورغّبهما في الحياة ، فاستعصيا عليه ، وأبيا إلا ان ينفذا أمر الله ، وهنا يقـع مـا تضطرب له الملائكـة ، ويفزع له الإنس والجن ، فينتصب الولد للذبـح ، ويضـع الوالد السكين على حلقومه يحاول جهده الذبح ، ووقع مـا أراده الله . فلم يكن المقصود ذبح اسماعيل ، إنما كان المقصود ذبح الحب الذي ينـازع الحب الإلهي ويقاسمه ، وقد ذُبح بوضع السكين على الحلقوم ،إنما ولد اسماعيل ليعيش ويزدهر ويَنسِل ، ويولد في ذرّيته آخر الأنبيـاء وسيّدهم ،فكيف يُذبح و كيف يموت، قبل أن يتحقق ما أراده الله ؟ ، وفدى الله اسماعيل بكبش من الجنّة يُذبـح مكانه ، وجعلها سنّة باقية في عقبه وأتباعه ، يذبحون أيّام النحر ويجـدّدون ذكرى هذ الذبح العظيم ، ويضحُّون في سبيل الله ما يشترونه بحرّ أموالهم :

« فلمّا أسلما وتلّه للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدّقت الرؤيا ، إنّا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على ابراهيم [2] »

وخلد الله تمثيل قصة الشيطان مع ابراهيم ، وجعل رجمه بالحصى في الأمكنة

---

(١) سورة الصافات ، آية : ١٠٢ .
(٢) الصافات ، آية : من ١٠٤ إلى ١٠٩ .

التي اعترض فيها لإبراهيم ينهاه ويصرفه ، عملاً يتكرّر كل عام ، وقصة تمثّل في أفضل الأيام ، إثارة لبغض الشيطان ، وإظهاراً للتمرّد عليه والعصيان ، وهي حركة يشعر فيها المؤمن بلذة وحياة وعاطفة ، إذا صحّ فيه الإيمان ، واستقام فيه الفهم ، وكمل الإنقياد للأوامر ، ويعرف انه في صراع دائم مع قوى الشر ، ومعركة مع إبليس وجنوده ، وأنّه ليس له نصيب منه إلاّ الرّجم والهوان .

ويدور الزمان دورته ، واسماعيل الصغير شاب قوي ، أكرمه الله بالنبوة والسيادة ، وقد أثمرت دعوة إبراهيم وتوسّعت وانتشرت ، وكان لابد لها من مركز تأوي إليه ، وتعتمد عليه ، وكثرت القصور للملوك ، والمعابد للطاغوت يطاع فيها الهوى ، ويعبد فيها الشيطان ، وليس لله على أرضه مسجد يخاص لعبادته ، ويطهر لقاصديه وعابديه ، فيؤمر ابراهيم بعد ما قام الدين على قدمه وساقه ، وظهرت نواة الأمة المسلمة الحنيفة ، لبناء بيت الله تعالى ، يكون مثابة للناس وأمناً ، ومعبداً لله وحده ، فيتعاون الوالد والولد في بناء هذا البيت البسيط المتواضع في مظهره ، العميق الرفيع في عظمته ، فينقلان الحجارة ، ويرفعان البناء ، « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربّنا تقبّل منا ، إنّك أنت السميع العليم ، ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك ، وأرِنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنّك أنت التوّاب الرحيم[1] »

وقام البيت على أساس من إيمان وإخلاص ، ليس لهما نظير في الدنيا ، وتقبّله الله بقبول حسن ، وقضى ببقائه ، وكساه الجمال والجلال ، وعطف إليه القلوب والنفوس ، وجعله مهوى الأفئدة ومغناطيس القلوب ، يودّ الناس لو يسعون إليه على رؤوسهم ، ويصلون إليه ببذل مهجهم ونفوسهم ، مع تجرّده عن كل ما يستهوي القلوب ، ويستلفت الأنظار ، ووقوعه في بلد بعيد عن جمال الطبيعة وبهرج المدنية . ولما كان ذلك نودي ابراهيم : « وأذّن في الناس بالحجّ

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٧ - ١٣٨ .

يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات،على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق (١) »

كان العالم في عصر ابراهيم عليه السلام خاضعاً للأسباب ، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً ،حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها ،وحتى أصبحت أرباباً من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والإعتماد عليها وثنيّة أخرى غير الوثنيّة التي أغرقوا فيها وغلَوا ، من عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة ابراهيم ثورة على الوثنيين ، ودعوة الى التوحيد النقي الخالص ، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء ، وأنّه يخلق الأشياء من عدم ، وأنّه يخلق الأسباب ويملكها ، ويفصل الأسباب عن المسببات ، وينتزع عن الأشياء خواصها ، وطبيعتها ، ويستخرج منها أضدادها ، ويسخّرها لما يشاء ومتى يشاء ، أشعل الناس له النيران ، وقالوا ، « حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين (٢) » ، وكان ابراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى ، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة ، لا تنفك عنها ،إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزّمام ، وحوّلها إلى برد وسلام ، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان ؛ « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين (٣) »

واعتقد الناس أنه لاحياة إلاّ بالخصب والميرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه ،

---

(١) سورة الحج - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ .
(٢) سورة الأنبياء - ٦٨ .
(٣) سورة الأنبياء - ٦٩ - ٧٠ .

ويتوفّر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعة ،وقد ثار ابراهيم على هذه العادة المتبعة والعُرف الشائع ، والإعتماد على الأسباب ، فاختار لأسرته الصغيرة – المكونة من أم وابن – وادياً غير ذي زرع،لا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ، ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ويعطف إليهم القلوب ، ويجبي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف ، فقال : «ربّنا إنيّ أسكنت من ذريّتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ، ربّنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون [1] »

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم الرزق والأمن ، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات : « أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء ، رزقاً من لدنّا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون [2] » فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف [3] » . تركهم في أرض لا أثر فيها لماء يروي الغلّة ، ويبل الحلقوم ، فإذا بماء يفور من الرمال ، ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس في سخاء ، ويحملونه الى بلدهم . ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه ، فإذا به يُصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب ، ويأتون إليه من كل فجٍ عميق .

وهكذا كانت حياة ابراهيم تحدّياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره ، وعبادة الأسباب واتّخاذها ارباباً من دون الله ، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة ، وأن إرادته فوق كل شيء ، وهكذا كانت سنة الله معه ، يُخضع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب .

الحج ، تخليد لخصائص ابراهيم ومآثره ، وتجديد لدعوته وتعاليمه :

والحج ومناسكه وما يحيط به من ذكريات ، وحوادث ، وما يتلبس به

(١) سورة ابراهيم - ٣٧ .
(٢) سورة القصص - ٥٧ .
(٣) سورة قريش - ٣ - ٤ .

الحاجّ من التجرّد عن المظاهر ، وما يأتي به من عمل ونسك – من إحرام ووقوف ، وإفاضة ، ورجم وسعي وطواف – تخليد لما اختص به ابراهيم عليه السلام من التوحيد ونفي الأسباب ، والتوكل على الله والتفاني في سبيله ، وايثار طاعته ومرضاته ، وتمرّد على العادات والأعراف ، والمعايير الزائفة والمثل المصطنعة ، وتجديد لذلك الإيمان القوي ، والحب العميق والتضحية الفائقة والإيثار الرفيع ، والحج ضامن لبقاء هذه المعاني السامية كلّها ، وهذه القيم الربانية كلّها ، وبقاء الجامعة الإسلامية الإنسانية التي هي فوق القوميات والعنصريات والوطنيات المحدودة المصطنعة ، ودعوة للناس إلى أن يسيروا على نهج ابراهيم ويتشبّعوا بروحه ، ويقوموا بدعوته في كل عصر وفي كل مكان ، « ملة أبيكم ابراهيم ، هو سمّاكم المسلمين من قبل ، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير [1] »

عنوان جديد ، وخط فاصل في كتاب الانسانية :

إن ابراهيم ودعوته وجهاده عنوان جديد ، نيّر مشرق في كتاب الإنسانية وامتدادها ، ينفصل به التاريخ عن التاريخ ، وتتوزّع بة الإنسانية بين المعسكرين يخلدان مع الزمن ، ويبتدىء به عهد وينتهي به عهد ، وقد جعل الله لإبراهيم الإمامة الخالدة والكلمة الباقية ، وجعل في ذريته النبوة والولاية ، والوصاية الدينيّة على العالم للأبد ، وكتب لأسرته ومن دخل داره ، الجهاد للحق والوقوف في وجه الباطل إلى آخر الأبد ، والدعوة إلى الله ، وتجديف سفينة البشريّة في عواصف هوجاء ، وأمواج عاتية ، والمحافظة على هذا السراج من أن ينطفىء ، وهو العامل البنّاء الوحيد الذي استعمله الله في إسعاد البشرية

---

(٢) سورة الحج : ٧٨ .

وعَصمها من تخريب العالم وتدمير الإنسانية ، وسوقها إلى الجحيم .

عماد الانسانية ، وقيام للناس :

والحج وشهود الموسم ، والتقاء أبناء ملّة ابراهيم في مكة كل عام ، هو كاف لبقاء هذه الصلة ، بين ابراهيم وأتباعه ، وأبنائه الروحيين ، وتجديد هذه المعاني والعقائد والأهداف التي فيها بقاء لهذه الملة والإنسانية كلها ، لذلك قال الله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم [1] »

مركز دائم للهداية والارشاد ، والاصلاح والجهاد :

وجاء عهد الإسلام ودور الرسالة المحمدية الخالدة ، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد ، والإشعاع الروحي ، والغذاء العاطفي ،تقام حوله المناسك ، وتغتذى به العاطفة ، وتشعل به مجامر القلوب ، وتشحن به « بطاريتها » الفارغة ، ويتلقى منه الرسالة الدينية ، ويجتمع حوله العالم الإسلامي كل عام ، يؤدي خراجه من الطاعة ، وضريبته من الحب والإنقياد ، ويثبت تمسكه بهذا الحبل المتين ، يلجئون إلى هذا الركن الركين ، ويطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء ، والزعماء والعظماء ، والملوك والأمراء ، والأغنياء والفقراء ، في وله وهيام ، وفقه وحكمة ، يثبتون أنهم مجتمعون على تفرق ، متوحدون على تعدد ، متركزون على انتشار ، أغنياء على فقر ، أقوياء على الضعف، ينتشرون في العالم ويسعون في أرزاقهم ومصالحهم وينتسبون إلى أمم وسلالات ، ويختلفون في الحضارات والثقافات ، ويلتقون على نقطة واحدة وحول نقطة

---

(١) سورة المائدة : ٩٧ .

واحدة ، وحياتهم كلّها طواف وسعي ، ونسك وعبادة ، وإيمان وعقيدة ، ومقاماتهم كلّها منى وعرفات ، وأسفار ووقفات ، وإنما هم في رحلة دائمة ، وتقدم مستمرّ ، وتعارف متكرّر ، حتى يقضوا نحبهم ويلقوا ربّهم .

إلى مدينة الرسول ﷺ ، ومسجده العظيم :

وكان من الطبيعي بعد ذلك كله ، أن يحنّ المسلم ، لاسيما الوافد من مكان بعيد ، إذا قضى حجّه ، وأدّى مناسكه الى مهجر خاتم المرسلين ومثواه الأخير ، ومأرز الإسلام ، الى المسجد الذي انبثق منه النور ، وانطلقت منه موجة الهداية والعلم ، وقوة الإسلام في العالم ، الى المدينة ، التي آوى إليها الإسلام ، وتمثّلت فيها فصول التاريخ الإسلامي الأول ، وابتلّ ترابها بدموع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ودمائهم ، فيصلي في المسجد الذي تعادل ركعة فيه ألف ركعة في غيره [1] ، ويقف في مواقف ، وقف فيها الشهداء والصدّيقون ، والسابقون الأولون ، فيستمد منها الصدق والإيمان ، والحب والحنان ، والبطولة والشهادة في سبيل الإسلام ، ويصلّي ويسلّم على هذا النبي الذي خرج بدعوته وجهاده من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، وذاق لأول مرة حلاوة الإيمان ، وعرف قيمة الإنسان .

عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها ، وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل :

والحج عرضة سنوية للملّة ، يرجع إليها الفضل في نقائها وأصالتها ، وفي بقاء هذا الدين ، بعيداً عن التحريف والغموض والإلتباس ، وفي بقاء هذه الأمة ، بعيدة عن الإنقطاع عن الأصل ، والمصدر والأساس ، محفوظة من المؤامرات والمغالطات التي وقعت أمم كثيرة فريستها في الزمن الماضي ، وعن طريق هذه المؤسسة العظيمة الحكيمة ، تبقى هذه الأمة العظيمة الخالدة محتفظة بطبيعتها

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام » (متفق عليه) .

الإبراهيمية الولوع الحنون ، العطوف الرؤوف ، الثائرة القويّة الحنفيّة السمحة ، وتتوارثها جيلاً بعد جيل ، فكأنها القلب الحي القوي الفيـاض الذي يوّزع الدم الى عروق الجسم وشرايينه ، وبها تستعرض هذه الأمة بمجموعها في صعيد واحد ، فينفي بذلـك علماؤها وزعماؤها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويـل الجاهلين ، وخرافة المخرفين ، ويردونها الى الأصل الإبراهيمي الحنيفي ، وإلى الشرعة المحمدية (الصّافية) والى الدين الخالص ، وبها تستطيع هذه الأمة أن تحافظ على وحدتها الدينـّية والعقلية والثقافية ، وتعتصم عن أن تؤثـّر فيهـا الاقليمية والمحلية تأثيراً يُفقدهـا الوحدة الحنيفية الإبراهيمية ، والصبغـة الإسلامية المحمديـة ، كما كان شأن الديانات السابقـة الكثيرة ، والأمـم الدينية العديدة .

لقد قدّر الله لهذه الأمة الخالدة أن تعيش في بيئات مختلفة ، وفي أقاليم عديدة ، وتجتاز أدواراً كثيرة جداً ، مختلفة جداً ، من حرارة وقوة وجمود وخمود ، وعنف وقسوة ، ومصارعة ومقاومة ، وإغراءات ماديـة وسياسية ، وتقدم في الحضارة والمدنيـة ، وتوسُّع في المال والمادة ، وضيق وضنك ، وبذخ وترف ، وعسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وتسلـُّط عدو قاهر وملك جـائر ، وكانت الأمة في حاجة دائمة إلى إشعال جذوة الإيمان ، وإثارة عاطفـة الحـّب والحنان ، وإعادة الوفاء والولاء في سائر الأجزاء والأعضاء ، فجعل الحج ربيعاً تورق فيه أغصان هذه الشجرة الخالدة كل عام ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها ، وتكتسى فيه هذه الشجرة العالميّة لباساً جديداً قشيباً ، غضاً طرياً .

وقد سبق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، بما أكرمه الله من فقه دقيق ، وفهم عميق لأسرار التشريـع ومقاصد الإسلام ، فأشار الى هذه النكتة في كتابه « حجه الله البالغة » فقال :

« وكما أن الدولة تحتاج الى عرضة بعد كل مدة ليتميّز الناصح من الغاش ،

والمنقاد من المتمرّد ، ليرتفع الصّيت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملّة تحتاج الى حج ، ليتميّز الموفق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والتراني[1] »

وقـــال :

« وإذا جعل الحج رسماً مشهوداً نفع عن غوائل الرسوم ، ولا شيء مثله في تذكـّر الحالة التي كان فيها أئمة الملّة والتحضيض على الأخذ بها[2] »

وقـــال :

« ومنهـا تحقيق معنى العرضة ، فإن لكل دولة أو ملة اجتماعـاً يتوارده الأقاصي والأداني ، ليعرف فيـه بعضهم بعضاً ، ويستفيدوا أحـكام الملّة ، ويعظموا شعائرها .

والحج عرضة المسلمين وظهور شوكتهم واجتماع جنودهم وتنويه ملّتهم ، وهو قوله تعالى :

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً[3] »

مركز الاشعاع العالمي الخالد :

وقضى الله أن لا يخـلو « الحـج » في أشد أيام هذه الأمة وأحلكهـا ، من

---

(١) حجة الله البالغة - ج١ ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) ايضاً - ج١ - ص ٥٩ - ٦٠ .

(٣) ايضاً ج٢ - ص ٤٢

الربانيين المخلصين ، ومن الصالحين المقبولين ، ومن الدعاة المرشدين ، ومن الداعين المبتهلين ، ومن الخاشعين المنيبين ، ومن العلماء الراسخين الذين يملأون الجو روحانية وخشوعاً ، فترق القلوب القاسية ، وتخشع النفوس العاصية ، وتفيض العيون الجامدة ، وتلتهب المجامر الخامدة ، وتنزل رحمة الله وتغشى السكينة ، ويخزى الشيطان ، لذلك جاء في الحديث ، أن رسول الله ﷺ قال : « ماروئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا بما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام [1] » ويتكهرب الجو فيشحن المسلمون الذين جاءوا من كل صوب بعيد وفج عميق ، (بطارية) قلوبهم الفارغة ، ويأخذون زاداً من إيمان وحب وحماسة ، وعلم وفقه ، يعيشون عليه في حياتهم الباقية ، ويقاومون به كل ما يواجهونه من إغراء وتسويل ، وتخويف وتزيين ، ويشركون في هذا الزاد إخوانهم المسلمين الذين قعد بهم الفقر أو الضعف ، أو المرض أو العدو ، وهكذا يجري هذا التيار الكهربائي الإيماني في جسم هذه الأمة المنتشرة في الآفاق ، فيتعلم الجاهل ، ويقوى الضعيف ويتحمس الخامد ، وتكتسب الأمة بذلك قوة جديدة على تأدية رسالتها ، وتستأنف كفاحها من جديد .

مظهر الجامعة الانسانية الاسلامية :

والحج انتصار للقومية الإسلامية على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية التي قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرة ، وهو إظهار لشعار هذه القومية ، فتتجرّد جميع الشعوب الإسلامية عن جميع ملابسها وأزيائها الإقليمية التي تميّز بعضها عن بعض ويتعصّب لها أقوام ؛ وتظهر كلها في مظهر واحد يسمى (الإحرام) في لغة الدين والفقه وفي مصطلح الحج والعمرة ،

---

(١) رواه مالك مرسلاً .

حاسرة رؤوسها ما بين رئيس ومرؤوس ، وصغير وكبير ، وغني وفقير ، وتهتف كلها في لغة واحدة ، ونغمة واحدة ، « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، وهكذا تتجلى القومية الإسلامية في اللباس والهتاف ، وهما من أوضح ما تجلت فيه قومية ، وفي وحدة المناسك والغايات التي يقوم بها جميع الأفراد والشعوب ، ويسعى إليها العرب والعجم ، ويلتقي عليها القاصي والداني ، فكلهم يطوفون حول بيت واحد ، ويسعون بين غايتين مشتركتين (الصفا والمروة) ، وكلهم يقصدون (منى) ، وكلهم يؤمون (عرفات) ويَقِفُون في موقف واحد ، وكلهم يبيتون في مبيت واحد ، « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين [1] » ، ويفيضون إفاضة واحدة ، « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم [2] » ، وكلهم يقفون أياماً في (منى) تجمع بينهم أشغال واحدة من نحر وحلق ورمي .

وما دام الحج — والحج فريضة باقية الى يوم القيامة ، ومؤسسة خالدة خلود هذه الأمة — فالمسلمون لا تبتلعهم القوميات ، كما ابتلعت أمماً كثيرة ، ولا يصبحون ضحيتها ، ولا تكون بلادهم التي يحبونها بسائق الفطرة والعاطفة والعصبية ، قبلة يتوجهون إليها ، وكعبة يحجون إليها ، إنما هي قبلة واحدة يتوجه إليها الشرقي والغربي ، والعجمي والعربي ، وإنما هي كعبة واحدة يحج إليها الهندي والأفغاني ، والمسلم الأوروبي والأمريكي ، « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى [3] » ، ويحن إليها المسلم في أقصى الأرض ، وينذر لهذه الرحلة النذور ويسعى إليها على الرأس والعين ، ويعتبر ذلك غاية الأوطار وأقصى

(١) سورة البقرة : ١٩٨ .
(٢) سورة البقرة : ١٩٩ .
(٣) سورة البقرة : ١٢٥ .

الأماني وأعظم السعادات .

ليشهدوا منافع لهم :

وشرع الحج لجميع هذه الفوائد والمنافع التي نعلم منها الكثير ، ونجهل منها الكثير ، وربما كان ما نجهله ونتمتع به أكثر مما نعرفه ، ومما نوه به حكماء الإسلام ، وأشادوا به في مؤلفاتهم ، فقد قال الله تعالى : (ليشهدوا منافع لهم [1]) ، فأطلق المنافع ، ونكرّها وأبهمها ، ودلّ هذا التعبير البليغ على كثرتها وتنوّعها وتجدّدها ، في كل زمان وإنها أكثر من أن يأتي عليها الإحصاء والإستقصاء [2] .

---

(١) سورة الحج : ٢٨ .

(٢) إن الحج لا شك موسم ، يشهده المسلمون من آفاق الأرض ونواحي العالم الاسلامي ، ليشهدوا منافع لهم ، فيستطيعون أن يتبادلوا الرأي السديد والفكر الحصيف ، ويتعرف بعضهم ببعض ، ويجتمعوا على كلمة واحدة ومصلحة راجحة راشدة .
ولكن ليست هذه حكمة الحج الوحيدة ، كما اعتاد الكتاب المصريون أن ينوهوا بها ، وليس الحج مؤتمراً سياسياً فحسب ، كما يصوره كثير من حملة الأقلام ، ورجال السياسة والاجتماع في هذا العصر ، فلو كانت هذه هي الحكمة التي شرع لها الحج ، لكان في الحج استقرار وساده جو من الهدوء يساعد على ذلك ، ولكنه اضطراب وانتقال من مكان إلى مكان ومن نسك إلى نسك ، ولكانت دعوة مقصورة على العلماء والزعماء ، والأذكياء والنبهاء ، وعلى الخاصة من المسلمين ، إنهما لا شك ثمرة من ثمرات الحج ، ولكن ليست هي الغاية التي شرعت لها هذه الفريضة العظيمة ، وقد فرضت على المسلمين ، فقال تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً » ، ولكان له وضع غير هذا الوضع ، ومكان غير هذا المكان القاحل الناتي .

يجب أن يمثّل البلد الأمين الحياة الإسلامية ، والمجتمع الاسلامي المثالي ، في كل زمان :

ولما كان الحج عرضة سنوية للملة ، يلتقي فيها المسلمون على صعيد واحد من العقيدة والعاطفة والغاية ، في جو ديني ربّاني ، وفي محيط روحي إيماني ، يستمدون منه قوة جديدة وروحاً جديدة ، ويصحّحون ما وقع في عقيدتهم من انحراف ، وفي عاداتهم وشعاراتهم من فساد ، وما اعتراهم من زيغ أو وهن بتأثير الحضارات والفلسفات العجمية الأجنبيّة ، وتقليد الشعوب والأمم التي تجاورهم ، أو يعيشون فيها ، ويستطيعون أن يردّوا كل شيء الى أصله ، وأن يستقوا الدين من منابعه الصافية الأصيلة ، وجب بحكم العقل والمنطق ، وبحكم روح الاسلام وحكمة الحج ، أن يظلّ البلد الأمين الذي يقع فيه الحج ، ويدور حوله ، أميناً للحياة الإسلامية ، الصافية الأصيلة (يصور الحياة الإسلامية) بجميع جوانبها ومزاياها ومظاهرها ، حتى يلمسها ويتذوقها كل وارد إليه مهما قصرت إقامته وقلّت معرفته ، لأن الله قد قضى أن يكون هذا البلد مركز الحج الى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين من جميع أنحاء العالم في كل سنة ، يَفِدون إليه ، وهم مؤمنون بحق بأنهم يقصدون بلداً هو معدن الطهر ، ومولد الدين وعاصمة الاسلام الروحيّة ، وكل ما يشاهد ويسمع في جوانبه هو حجة للمسلم الغريب الذي يعيش بعيداً عن مهد الاسلام ، وليس بعد عمل أهل مكة والمدينة حجة عند عامة المسلمين « وما وراء عبّادان قرية » .

وهذه الطبيعة البشرية التي لا نستطيع أن نتغلّب عليها بمنطق أو دليل ، أو خطابة أو بلاغة ، وهو الاحتجاج بعمل أهل المركز زعيم لدين أو حضارة ، وهو العرف الذي جرى في مجال اللغة والآداب ، والحضارة والفقه ، فكانت لغة قريش ، ثم لغة البادية العربية ، هي الحجة في اللغة العربية ، ومناهج كلامها ولهجاتها ، وكان عمل أهل المدينة حجة في مذهب كبير من المذاهب الفقهية

الاسلامية [1] ، وظلّ عمل أهل قرطبة حجة عند كثير من فقهاء المغرب عندما كانت في أوجها العلمي الثقافي ، وكانت مجمع العلماء والقضاة ، واحتجّ الناس قديماً وحديثاً بعادات عاصمة البلاد ومركزها الحضاري ، وتنافس الناس في تقليدها ، ورأوا فيها المثل الكامل ، والقدوة في الحضارة والأناقة والظرف ، ودعاة الاسلام وزعماء الاصلاح يلقون صعوبة ومحنة ، اذا احتجّ الحجّاج بما قد يشاهدونه ويسمعونه في مركز الاسلام ومهبط الوحي مما لا يتفق مع أحكام الشريعة الاسلامية ، أو آدابها ويصعب ازالتهم عن ذلك [2] »

يجب أن يبقى « البلد الأمين » محتفظاً بطراز خاص ، والحج بروح الجهاد والتقشف :

وجانب أدق من هذا ، وهو أن يبقى هذا البلد الأمين — على مرّ العصور والأجيال ، ورغم تطورات المدنية ومرافق الحياة في العالم — محافظاً على شيء من البساطة والطبيعة ، وعلى شيء من التقشف ، ويتذكر فيه الوافدون من أنحاء العالم ، الجوّ الذي كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم ، أو قريب من شعورهم ، ويشعرون بانتقال من عالم إلى عالم ، ومن جوّ إلى جوّ ، ومن حياة إلى حياة ، فإنّ هذا الشعور يُحدث في النفوس تخلياً عن الماضي ، واستعداداً لتلقّي شيءٍ جديدٍ ، وفرحة روحية لا يشعرون بها في مكانهم ، أما إذا بقي البيت وحده ، والحرم وحده على قِدَمها ، وتغيّر كل شيء حولها ، وأصبح البلد الأمين وما جاوره من البقاع قطعة من أوروبا أو أمريكا ، وحلّت المدنيّة الغربيّة بخيراتها وشرورها ، وبأصولها وفضولها ، وأصبح الحاج الذي وصفه لسان الشرع « بالشعث التفل » يتقلّب في أعطاف

---

(١) كالمذهب المالكي .

(٢) مقتبس من حديث ألقاه المؤلف في المؤتمر الاسلامي الذي عقدته رابطة العالم الاسلامي في مكة ، سنة ١٣٨٤ هـ .

المدنية والنعومة ، وينتقل من راحة الى راحة ، ومن تنعم الى تنعم ، ومن حديث الى أحدث ، فإنه لا يشعر بشيء جديد قوي يُحدث في مشاعره انقلاباً ، ويشحنه شحناً روحياً .

ولذلك اعتبر الحج صنو الجهاد ، وقد روى البخاري عن عائشة مرفوعاً : « أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور » وعنها ، قالت ، « قلت يارسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ فقال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور » ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول : « شدّوا الرحال في الحج ، فإنّه أحد الجهادين » . وإذا تطورت مكة تطوراً جذرياً ، واقتبست من الحضارة الغربية جميع مرافقها ووسائلها ، وتوفّرت للحج جميع أسباب الراحة والتنعم التي لا توجد إلاّ في العواصم الغربية الكبرى ، شعر الحجاج بشيء من الفراغ الروحي ، وبشيء من الجفاف ، وبانحطاط ملموس في فوائد الحج ، وآثاره في النفس والحياة .

التشريعات الحكيمة لزيادة فائدة الحج ، وتقويـة أثره في النفس والحياة :

وقد هيّأ الوحي الإلهي والتشريع السماوي للحج جواً ، يثير الجدّ والقصد ، وينبّه النفس والفكر ، ويحوطه بسياج من العبادة والروحانيّة والقدسيّة ، فإنّه كان في أكثر الأحيان رحلة طويلة ، وانتقالاً من بلد الى بلد يمرّ فيه الحاج ببقاع مختلفة ، وأجواء متنوعة ، ومَلاّذ ومَلاهٍ ، وشواغل وصوارف قد تقصر فيها المدة وقد تطول ، ويدخل في بلد جديد ، ويختلط بأقوام وطبقات كثيرة ، ويخرج النساء مع الرّجال ، وفيهم الشيوخ والشباب ، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحياناً ، ويكون الرجل مع زوجه وأهل بيته ، وكل ذلك خليق بأن يُفقد الحج روعته ومهابته وقدسه ، وروح العبادة والجهاد فيه ، وتصبح هذه

الرحلة كأي رحلة عادية طبعيّة ، أو الإقامة في مكة ، والتنقل في مواضع المناسك كأيّ إقامة في أيّ بلد .

لذلك أضفى التشريع على الحج لوناً لا يزول ، لوناً من الجدّية والقدس ، وحاطه بأسوار وخنادق عديدة ، جعلته بعيداً عن الغفلة والذهول ، والعبث والفضول ، وله في ذلك تشريعات دقيقة حكيمة ، كانت كفيلة بأن يبقى الحجّ عبادة عميقة الأثر ، في النفس والحياة ، وركناً من أركان الإصلاح والتربيّة ، ووسيلة قوية للتقرّب الى الله .

منها ، أنه جعل ركناً من أركان الإسلام الأربعة ، وفريضة على من استوفى شروطها ، لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، فقال تعالى : « ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين [1] » ، وقد روى الترمذي عن علي رضي الله تعالى عنه رفعه : « من ملك راحلةً وزاداً يبلغه الى بيت الله الحرام ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهوديّاً أو نصرانيّاً » ، وذلك أنّ الله تعالى يقول : « ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً » ، وقال النبي ﷺ : « بُني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمد رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، من استطاع إليه سبيلاً [2] » .

وقد نوّه لسان النبوّة بفضل الحج ومكانته عند الله ، وأكثر من بيان فضائله ، لأنّها هي التي تُثير في النفس الشوق والرغبة ، وتبعث الإيمان والإحتساب ، فلا قيمة لعمل أو عبادة حتى تقترن بها ويكونان هما الباعثين على إتيانها ، فقد روى الستّة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً : « الحج

---

(١) سورة آل عمران : ٩٧ .
(٢) متفق عليه .

المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة » « وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : قال ، قال رسول الله ﷺ : « من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه [١] » وروى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال ، « قال رسول الله ﷺ : تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب إلاّ الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلاّ غابت الشمس بذنوبه »[٢] ، وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النّار من يوم عرفة [٣] » وسُئل النبي ﷺ ، « أيُّ العمل أفضل ؟ قال إيمان بالله ورسوله ، قيل ، ثم ماذا ؟ قال الجهاد في سبيل الله ، قيل ، ثم ماذا ؟ قال حج مبرور [٤] » .

ومن هذه التشريعات الدقيقة الحكيمة ، « المواقيت » التي تُنبّه في الحاج شعوراً جديداً ، ويقظة فكرية روحية ، فيعرف أنّه دنا من الحضرة الملوكية ، ودخل في حدودها المحمية المقدسة ، فلولا المواقيت لاقتحم الحجّاج الحضرة المقدسة ، وهجموا عليها كما يهجم الجهال الأجلاف على حضرة الملوك وعتبة السلاطين ، فيقابلون باستنكار وجفاء ، وطرد وإهانة ، وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بيان حكمة المواقيت ، وسرّ تشريعها وتعيينها للقاصدين من جهات مختلفة ، قال :

« الأصل في المواقيت ، أنه لما كان الإتيان الى مكة شعثاً تفلاً ، تاركاً لغلواء نفسه مطلوباً ، وكان في تكليف الإنسان ، ان يحرم من بلده حرج ظاهر ، فإن منهم من يكون قطره على مسيرة شهر وشهرين وأكثر ، وجب ان يُخصّ أمكنة معلومة حول مكة يحرمون منها ، ولا يؤخرون الإحرام بعدها ، ولا

---

(١) للستة ، إلا أبا داود .

(٢) للنسائي ، والترمذي بلفظه .

(٣) رواه مسلم .

(٤) متفق عليه .

بد أن تكون تلك المواضع ظاهرة مشهورة ؛ ولا تخفى على أحد ، وعليها مرور أهل الآفاق ، فأستقرأ ذلك ، وحكم بهذه المواضع ، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت ، لأنها مهبط الوحي ومأرز الإيمان ودار الهجرة ، وأول قرية آمنت بالله ورسوله ، فأهلها أحق بأن يبالغوا في إعلاء كلمة الله ، وان يخصوا بزيادة طاعة الله ، وأيضاً فهي أقرب الأقطار التي آمنت في زمان رسول الله ﷺ ، وأخلصت إيمانها بخلاف جؤاثى والطائف واليمامة وغيرها ، فلا حرج عليها [1] ».

ومنها « الإحرام » الذي ينبه في الحاج الشعور والانتباه ، ويكون حارساً له عن الغفلة والذهول ، وينبهه الى أنه مقبل على أمر عظيم ، وأنه قاصد للحضرة الملوكية ، والى أنه تجرد مما كان فيه من مظاهر جوفاء وشعارات زائفة ، وأبهة مصطنعة ، فيصير هذا الإحرام كالتحريمة للصلاة تنقلو من جو الى جو ، ومن حرية وانطلاق الى تقيد وارتباط ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمة الله عليه :

« إعلم أن الإحرام في الحج والعمرة بمنزلة التكبير في الصلاة ، فيه تصوير الاخلاص والتعظيم وضبط عزيمة الحج بفعل ظاهر ، وفيه جعل النفس متذللة خاشعة لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل ، وفيه تحقيق معاناة التعب والتشعث والتغبر لله [2] » .

وكذلك شرع للخروج من الإحرام والتحرر من قيوده وأحكامه طريقة ظاهرة تنبه في النفس الشعور ، ولا يصعب إتيانها ، فلا يخرج الحاج من إحرامه فلتة او مفاجأة ، ويتمتع بالمباحات ، إلا بعمل ظاهر ، وقصد وإرادة ، كما لا يخرج من صلاته إلا بالتسليم ، وهو الحلق ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي » :

---

(١) حجة الله البالغة – ج٢ – ص ٤٤ .
(٢) حجة الله البالغة – ج٢ – ص ٤٤ .

« السر في الحلق أنه تعيّن طريق للخروج من الإحرام بفعل لا ينافي الوقار ، فلو تركهم وأنفسهم ، لذهب كل مذهباً ، وأيضاً ففيه تحقيق انقضاء التشعث والتغبر بالوجه الأتم ، ومثله كمثل السلام من الصلاة [1] » .

ومنها « التلبية » التي حث الشرع على الإكثار منها ، واستحسن النبي ﷺ رفع الصوت بها وتكثيرها ، وقد سئل أي الحج أفضل ، قال : « العجُّ والثجُّ [2] » ، وفي التلبية تأثير غريب في تنبيه النفس وإيقاظها لمقاصد الحج ، وشحنها بالإيمان والحنان ، والاطراح على عتبة الرحمن ، وبها يسري التيار الإيماني الروحي في جسم الحاج ومشاعره وأعصابه ، كما يسري التيار الكهربائي في الأسلاك ، ويُعدّ الحاج للإستفادة من هذا الركن العظيم ، الذي قد يكون قد هجم عليه من غير استعداد ، أو من غير تفقه ووعي ، فإذا قال : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، تمثل له الحج ومقاصده العظيمة وروحه ، وثارت فيه الأشواق ، وفاضت كأس الحب والحنان ، والتهبت شعلة التوحيد في عروقه ودمه ، واتصل بإبراهيم الخليل ، الموحد الحنيف ، واتصل بمحمد ﷺ ، والداعين بدعوته اتصالاً فكرياً روحياً ، واندمج في حزبهم .

وقد جمع الله للحج حرمتين ، حرمة الزمان والمكان ، ليقوى الشعور بحرمة هذا الركن العظيم ، وجلاله وروعته ، والشعور بالمسؤولية ، وليكون الحاج في جميع تنقلاته وحركاته وسكناته ، مرهف الحس حاضر الفكر ، لا يذهل لحظة عن الجو الروحاني الذي يحيط به .

فقال تعالى : « إن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهراً في كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن

---

(١) حجة الله البالغة - ج٢ - ص ٤٥ .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه ، عن ابن عمر رضي الله عنه .

أنفسكم [1] » . وقال : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير [2] » ، وقد روى مسلم عن النبي ﷺ : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم – ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ».
وأما حرمة المكان ، فقد جاء في القرآن : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين [3] » ، « وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم الفتح (فتح مكة) : لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذ استنفرتم فانفروا ، وقال يوم الفتح – فتح مكة – : إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، وإنه لم يحل فيه القتال لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها ، وقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر » .

وقد كانت المعصية في الحرم أغلظ وأشد ، وقد استدل بعض العلماء على ان إرادة المعصية فيه معصية ، بخلاف غيره من البقاع ، بقوله تعالى : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم [4] ». قال ابن كثير ، وهذا من خصوصية الحرم ، أنه يعاقب البادي فيه الشر اذا كان عازماً عليه ، وإن لم يوقعه .

وقد ضم الى ذلك كله حرمة الإحرام ، وشرع له أحكاماً وآداباً خاصة :

---

(١) سورة التوبة : آية : ٣٦ .
(٢) سورة البقرة : آية : ٢١٧ .
(٣) سورة النمل : آية : ٩١ .
(٤) سورة الحج : آية : ٢٥ .

منها: حرمة الصيد في حالة الإحرام ، فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم [١] » وقال . « أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيّارة ، وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون [٢] » .

يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمة الله عليه :

« وإنما شرع ان يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقاً للتذلل وترك الزينة والتشعث ، وتنويهاً لاستشعار خوف الله وتعظيمه ، ومؤاخذة نفسه ، ان لا تسترسل في هواها ، وإنما الصيد تلهّ وتوسع [٣] » .

ولما كان الحج سفراً طويلاً في غالب الأحيان ، وقد قال الله تعالى : « وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق [٤] » ، وانتقال من حال الى حال ، ويكثر فيه الاختلاط ، وتطول الزمالة ، وتتنوع المعاملات ، كان ذلك مثاراً لكثير من المحظورات والمغريات والمناقشات ، وكثيراً ما تثور النفس ويضيق الصدر ، وينفد الصبر ، فيلجأ الحاج الى ما يتحاشى عنه في الوطن والإقامة ، والأحوال العادية ، ويتورط في بعض المعاصي والأخلاق القبيحة ، وما ينافي روح الحج ومقاصده ، فجاء النهي عن ذلك بصفة خاصة في الحج ، لأن الحج مظنة قوية له ، فقال تعالى: « الحج أشهر معلومات[٥]

---

(١) سورة المائدة : آية : ٩٥ .
(٢) سورة المائدة : آية : ٩٦ — إقرأ تفسير الآيتين والأحكام الفقهية المتفرعة منها ، وما في ذلك من خلاف ، وتفصيل في كتب التفسير وأحكام القرآن .
(٣) حجة الله البالغة — ج٢ — ص ٤٤ .
(٤) سورة الحج : آية : ٢٧ .
(٥) هي شوال ، وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، علقه البخاري بصيغة الجزم ، ورواه ابن جرير موصولاً ، وهو مروي عن أكثر الصحابة وفضلاء التابعين ، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، (راجع تفسير ابن كثير) .

فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق، ولا جدال في الحج [1] وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب[2] ».

وقد أسبغت هذه التشريعات، وهذه الأحكام التي تتصل بالقلب والجوارح، والقصد والعمل، والزمان والمكان، على الحج لباساً من القدس، والطهر، والتورع والتقشف، والمراقبة لله تعالى، والحسبة للنفس والجهاد، لا يشاركه فيه ما يماثله، او يدخل في موضوعه في الديانات الأخرى وطوائف الأمم، وكانت لها آثار عميقة في النفس والأخلاق والحياة، يتحقق معها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه [3] ».

حجة الوداع وقيمتها التربويّة والبلاغية :

حج رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة، وكانت حجة الإسلام، وشهد معه هذا الحجّ أكثر من مئة ألف إنسان، وهي حجة الوداع[4].

وقد دلت كل القرائن على أن هذه الحجّة كانت مقصودة من الله بهذا التفصيل، ولم تكن فلتة من الفلتات، بل جاءت في وقتها المناسب، « وكل شيء عنده بمقدار » وكان في تأخيرها إلى هذا الوقت حكمة بالغة، ومصلحة راجحة، فقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب، وكثر المسلمون، وقوي الإيمان، وشبّ الحبّ، واستعدت النفوس للتعلم والاستفادة، وهفت القلوب، ورنت العيون إلى المشاهدة والمراقبة، ودنت ساعة الفراق، فألجأت الضرورة إلى وداع الأمة، فخرج رسول الله ﷺ من المدينة المنورة ليحجّ البيت، ويلقى المسلمين،

---

(١) إقرأ تفسير الكلمات وأمثالها في كتب التفسير والأحكام.
(٢) سورة البقرة : آية : ١٩٧ .
(٣) رواه الستة عن أبي هريرة، إلا أبا داود.
(٤) وتسمى « حجة الاسلام » و« حجة البلاغ » و« حجة التمام ».
(البداية والنهاية والخميس)

ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ، ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد الميثاق ، ويمحو آثار الجاهليـة ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه .

فكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة ، وألف درس ، وكانت مدرسة متنقلة ، ومسجداً سيّاراً ، وثكنة جوّالة ، يتعلم فيها الجاهل وينتبه الغافل ، وينشط فيها الكسلان ، ويقوى فيها الضعيف ، وكانت سحابة واحـدة تغشاهم في الحل والترحال هي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبه وعطفه ، وتربيته وإشرافه.

وقد كان من آثار نضج المسلمين العقلي ، وقوة حبهم ، وشدة تعلقهم بكل ما يصدر عن هذه الشخصية الحبيبة المفداة ، أن سجلوا كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة ، وكل حادث من حوادثها الصغيرة ، لا يحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء ، والملوك والأمراء ، والعلماء والنبغاء ، وذلك شأن المحب الوامق ، والعاشق الصادق ، الذي يرى كل شيء لمحبوبه حسنا ، فليتلذذ بذكره ، ويسترسل في حديثه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها ولا دقيقـة نادرة إلا يستقصيها .

يتطيب رسول الله عند إحرامه فيذكرون من باشر هـذا التطييب ، ويذكرون نوع هذا الطيب ، فيقولون : « ثم طيبته عائشة بيدهـا بذريرة[1] وطيب فيه مسك ، حتى يرى وبيض المسك في مفارقه ولحيتـه ﷺ ويشعر رسول الله ﷺ هديه ، فيذكرون تفصيله وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، وكيف سالت عنها الدم ، ويذكرون احتجامه ، والاحتجام فعل طبي طبعي لا صلة له بمناسك الحج ، فيحددون مكانـه من الجسم ، وموضعه من

---

(١) وقد أفاض الشراح في وصف الذريرة وأنواعها ، راجع هذا الكتاب .

الطريق ، فيقولون : « واحتجم بملل » (وملل موضع بين مكة والمدينة على سبعة عشر ميلاً من المدينة) ويقولون : « واحتجم على رأسه بلحى جمل (وهو موضع في طريق مكة) وتهدى له قطعة لحم ، وهي حادثـــة عادية تتكرر ولا تسترعى الاهتمام في عامة الأحوال ، فيذكرونها بالتحديد والتفصيل ، فيقول الراوي « حتى إذا كانوا بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشى » ويحددون المنازل بين .... المدينة ومكة ، ويعدون أيامـه في السفر ، وذلك في زمان لم يعرف الناس فيه كتابـــة اليوميات ، وتدوين المذكرات ، ولكن الحبّ يلهم ويخترع ، فيقول الراوي ثم نهض إلى أن نزل بذي طوى ، فبـات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة ، وصلى بهـا الصبح ، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة ، ولم تفتهم شاردة ولا نادرة في هذه الرحـلة التي كثرت فيها الشواغل ، وتعددت فيها المنازل ، واشتد فيها الزحـام ، فلم يفتهم ان يقيدوا خروج حية في هذا المشهد الحافل ، وإفلاتها من القتل ، فيقول الراوي وهو يذكر ليلة منى : « وخرجت حية وأرادو قتلها ، فدخلت في جحرها » ويذكرون كل من كان رديف[1] رسول الله ﷺ في هذه الرحـلة ، ويذكرون اسم الحـلاق وكيف قسم شعره ومن خصهم بالشق الأيمن ، ومن خصهم بالشق الأيسر ، وهذه كلها تفاصيل ودقائق لم يكن مصدرها إلا الحب العميق .

ومن العبث وإضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها في رحلات القـــادة ، وتاريخ المشاهير ، وقد أخلت أمم كثيرة بحياة انبيائها وسيرهم وأخبـــارهم ، ومراحل حياتهم ، وضيعوا منها الشيء الكثير ، الذي لا تكمل حياتهم ولا يتم تاريخهم إلا به ، ولم يحافظوا إلا على النزر اليسير من أخبارهم وأحوالهم ، فجل

---

(١) وقد استوعب صاحب « نسيم الرياض » أسماء كل من أردفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، فذكر نحو ثمانية وثلاثين رديفا، وزاد ابن مندة على هذا العدد، راجع هذا الكتاب.

ما نعرف من حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، هو أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرته وأخباره[1] ، وهنالك أصحاب رسالات وديانات في بلاد متمدنة عريقة في العالم لم تبق إلا أسماؤهم ونتف من أخبارهم لا تشفي العليل ، ولا تروي الغليل ، ولا تقود الأجيال ولا تنير السبيل[2] » .

« الحج والزيارة » في الديانات القديمة ، سماتها وفوارقها :

لم تُعرف أمة ولا ديانة من أمم البشر ودياناتهم ، إلا وعندها أمكنة مقدسة تشدُّ اليها الرحال ، وتحثُّ فيها المطيّ ، ولها طرق وعادات وتقاليد ، وآداب لهذا السفر الديني ، « والزيارة المقدسة » وذلك لأن هذا العمل إجابة لحاكم الطبيعة ، وتلبية لنداء الضمير ، فالإنسان كما قلنا لم يزل باحثاً عن شيء يراه بعينه ، ويوجه اليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والدنو ، ولم يزل باحثاً كذلك عن عمل طويل شاق يكفّر به عن ذنوبه الجسام ، وسقطاته الفاضحة ، ليتغلب به على وخز الضمير وتأنيب الحس الديني ولائمة المجتمع ، ولم يزل في حاجة الى مشهد ديني عظيم ، يلتقي فيه على الأخوة الدينية والعاطفة الروحية ، لذلك لم تخل أمة من الأمم ، ولا دور من أدوار المدنية من أسفار دينية ، ومناسك مشهورة ومشاهد مقدسة يجتمع فيها الناس ، ويذبحون الذبائح ، ويقرّبون القرابين لله تعالى ، او لآلهتهم ومعبوداتهم ، وقد قال الله تعالى : « ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم

---

(١) وقد توصل الباحثون والمؤرخون أخيراً الى أن هذه المدة كانت أقل مما ذكر بكثير ، فهي لا تزيد على شهرين أو ثلاثة أشهر اقرأ المقالة الواردة في دائرة المعارف البريطانية .

(٢) مقتبس من تقديم لكتاب « حجة الوداع وعمرات النبي صلى الله عليه وسلم » للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي » بقلم ابي الحسن علي الندوي .

من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشر المخبتين [١] » وقال .
« لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع الى ربك
انك لعلى هدىً مستقيم [٢] » ، وقد اكتشفت الآثار وعملية الحفر عن هذه
المناسك والمشاهد في المدنيات البائدة ، والمدن المطمورة ، وتحدث التاريخ عن
وجودها ، وعن بعض أخبارها ، ولكن الاهتداء الى حقيقتها وتاريخها ،
والأحكام والآداب التي تتعلق بها صعب جداً ، فقد لا يرجع الباحث في ذلك ،
الا بقياسات وأخبار متقطعة مبتورة ، لا يستطيع أن يكوّن بها فكرة
كاملة ، او صورة واضحة :

والديانة اليهودية ، ثم المسيحية من أقرب الديانات الينا ، وقد عاشتا زمناً
طويلاً في عصر التاريخ والعلم ، وعُني بهما المؤرخون والمؤلفون ، ولا تزال
ديانتي أمتين كبيرتين نشيطتين في الثقافة والتأليف والسياسة ، والبيت المقدس
وما حوله من آثار ومشاهد ملتقى هاتين الديانتين، ومركزهما الروحي الأصيل،
والحج اليه قديم وأصيل عندهما ، ولكن لا يزال هذا الركن الديني الكبير
يكتنفه الشيء الكثير من الغموض والاضطراب ، وقلة المعلومات ، (إذا قارنا
ذلك بالحج الإسلامي ، الذي تشغل مناسكه وأحكامه وتفاصيله مكتبة واسعة
هائلة ، وهو مدوّن تدويناً لا يجد فيه الباحث عناء) . وهنا خلاصة ما جاء في
« دائرة المعارف اليهودية » المجلد العاشر [٣] :

« إن الحج الى بيت المقدس الذي كان يدعى بالزيارة (RE YIAH) يؤدى في

---

(١) سورة الحج : آية : ٣٤ .
(٢) سورة الحج : آية : ٦٧ .
(٣) جيويش انسائكلوبيديا (Jewish Encyclopaedia - Vol - See Pilgrimage).

زمن ثلاثة أعياد (وهي عيد الحصاد[١] وعيدالفصح(اليهودي) وعيد المظال ، وكان الحج فريضة علـى جميع اليهود ، بإستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم ، والإناث ، والعميان ، والعرج ، والضعفاء والمصابين بأمراض بدنية او عقلية ، وكانت الشريعة الموسويّة توجب على كل « حاج او زائر » ان يأخذ معه « تقدمة » للرب » ، ولكنها لم تعين المقدار ، وكان رغم إعفاء الإناث والصغار عن الزيارة ، كان يؤمه عدد كبير منهم مع الأزواج والآباء كما هو الشأن في الأسواق العامة ، ولا تخلو الروايات التي وردت عن عدد الزائرين في أزمنة مختلفة من المبالغة [٢] ، وكانت الخرفان تذبح في عدد كبير ، وكانت جلود الذبائح تقـدّم الى حراس الخانات الذين كانوا يقومون بخدمة الزوار وإيوائهم من غير مقابل .

ولم تنقطع عبادة الحج بعد تدمير « المعبد » أيضاً ، ولما فتح المسلمون بيت المقدس بقيادة صلاح الدين عام ١١٨٧ م ، تسنّى لليهود القاطنين في المنطقة الشرقية ان يزوروا بيت المقدس ، وما عداه من الأمكنة المقدسة (بين دمشق ، وبابل ، ومصر) وقد اعتاد اليهود في الشرق ولا سيا في بابل وكردستان من القرن الرابع عشر الميلادي ، ان يؤدوا فريضة الحج مرة في السنة ، على أقل تقدير ، وكان عدد منهم يقوم بهذا الحج مشياً على الأقدام ، وقد كانت الحروب الصليبية مشجعة لليهود في أوروبا على الحج والزيارة ، وفي عام ١٤٩٢ م عندما

---

(١) جاء في دائرة المعارف اليهودية تحت عنوان عيد الحصاد ، وهو من أعياد الحج الثلاثة التي كان جميع الذكور مكلفين فيه بالحضور في بيت المقدس ، إقرأ عنوان : (Pentecos) .

(٢) منها ، ما قيل أنه بلغ عدد الخرفان المذبوحة ، في عام بين ٦٣ – ٦٦ م الى ٢٥٦,٥٠٠ ، فإذا فرض أن خروفاً كان يساهم فيه عشرة رجال من الحجاج يبلغ عددهم الى أكثر من مليونين ونصف ، حاج او زائر ، ويذكر مصدر يهودي أنه بلغ عدد الخراف الى ١٢٠٠٠٠ خروفاً ، وقد اعترف كاتب المقال في « دائرة المعارف » بأنه لا يخلو من المبالغة .

أجلي اليهود من اسبانيا ، وهاجر عدد كبير منهم الى مناطق المسلمين ، تضاعف عدد اليهود الزوار، وربما كانوا يجتمعون على قبر النبي صموئيل في قرية الرامة[1]، حيث كانت تقوم أسواق عيدهم السنوي ، وتقام التقاليد الدينية .

يعاتب اليهود إخوانهم القاطنين في بلدان أخرى ، الذين ضعفت فيهم رغبة الحج والزيارة ، وزهدوا فيها ، بينما ينتهز المسيحيون الفرص لزيارة الأرض المقدسة .

وللحج أيام معينة يسميها اليهود في الشرق وشمالي افريقيا أيام الزيارة ، وقد شاع فيهم ان يزوروا فيها قبور عظمائهم ، ومنهم من اشتهر كملك ، او كنبي ، او كصالح وولي ، وهم يحتفلون بهذه الأيام بالإكثار من الأدعية وإظهار الفرح والسرور ، شأنهم في الأعياد العامة ، ويجتمعون بين مساء اليوم السابع عشر من تموز الى اليوم التاسع من « آب » ثلاثة وعشرين يوماً متوالية ، مقابل الجدار الغربي لهيكل « سليمان » ، وتبتدىء هذه العبادة في اليوم التاسع من آب ، من نصف الليل .

وهنالك مشاهد وضرائح وأمكنة محلية ، يشد اليها الرحال في كل قطر وبلد[2] » .

أما الحج والزيارة عند المسيحيين ، فهنا خلاصة لما جاء في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » :

---

(١) قرية في فلسطين (الجليل) .

(٢) راجع دائرة المعارف اليهودية . عنوان « Pilgrimage » .

« الحج اسم للرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة ، مثل مشاهد الحياه الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين ، او مراكز زعماء الدين المقدسة في « روما » ، او الأمكنة المقدسة التي تنسب الى المقبولين من الزهاد والشهداء .

إن الجيل المسيحي الأول لم يشعر بضرورة زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها ، بالنسبة الى المتأخرين الذين عنوا بذلك أكثر ، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحي ، وقد شغف عدد كبير من المسيحيين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره ، وزيارتها ، وعنوا بذلك أكثر مما عنوا بتتبع تعاليمه ووصاياه .

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدسة ، وان لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بتاتاً ، وكانت « روما » المدينة التي تلي بيت المقدس في الأهمية ، يؤمها الناس للزيارة في عدد كبير وجم غفير .

إن الأسباب التي بلغت بها البابوية قمتها ، جعلت روما مركزاً للزيارة ، ولا سيما ، فإن ضريحي القديس بطرس ، والقديس بولس قد أضفتا عليها من العظمة والجلال ما جعلها مثابة للمسيحيين الكاثوليك في العالم كله ، وازدحموا فيها ازدحاماً كبيراً ، وقد كان اقبال الزوار عظيماً على سراديب الأموات (Cata combs)[1] التي تقدس لأجل عظام الشهداء ، إن الزوار لم يتوقفوا عن زيارة « روما » في أي فترة من فترات التاريخ ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة محط أنظار الناس في كل زمان .

---

(١) تقع أشهر هذه السراديب في الفاتيكان .

والقارىء يتخم بكثرة أسماء القبور والضرائح والمشاهد، العامة في أرض فلسطين، والمحلية المنتشرة في كل قطر او ولاية، او بلد يقطنه اليهود والمسيحيون من زمن بعيد، وصاحب مقال «الحج والزيارة» في «دائرة المعارف اليهودية» وفي «دائرة الديانات والأخلاق» يسرد أسماء ضرائح ومشاهد للصالحين والمقبولين في أقطار أوروبية وآسوية مختلفة، ويذكر الأيام والشهور التي تزار فيها، وما لهذه الزيارات من آداب وتقاليد، واذا تأمل القارىء في مدى اهتمام اليهود والمسيحيين بهذه المشاهد، وتقديسهم لها، وتجشم الأسفار والمتاعب في سبيلها، وكيف شغلتهم واستحوذت على مشاعرهم في كل زمان ومكان، وكيف أثارت فيهم الغلو في التقديس والتعظيم، حتى وصلوا الى حد الشرك، وعبادة غير الله، عرف سر شدة إنكار النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هذه العادة، وإشفاقه من ان يتسرب ذلك الى المسلمين - حملة لواء التوحيد الى الأبد، والأمة الأخيرة - وحرصه الشديد على ان يبقى ضريحه ومثواه الأخير بعيداً عن كل شرك وعبادة وغلوّ، وكان ذلك هو الشغل الشاغل له في مرضه الأخير، فقد روى البخاري عن عائشة وعبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، قالا: «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه، فقال، وهو كذلك، لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذّر ما صنعوا». وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه «ان رسول الله ﷺ قال: قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وعن عائشة رضي الله عنها «ان أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله ﷺ: أولئك قوم اذا مات فيهم العبد الصالح او الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله [1]»، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «اللهم لاتجعل قبري وثناً

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الصلاة - «باب الصلاة في البيعة».

يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد [١] » .

وقد ضيّق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم السبيل في وجه تجشّم السفر الطويل ، وشدّ الرّحل إلى المشاهد والضرائح ، والأمكنة المتبركة بقوله المأثور المشهور : « لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ، والمسجد الأقصى [٢] » ، فوقى بذلك أمته من الوقوع في فتنة المشاهد والآثار ، كما وقع فيها اليهود والنصارى ، والأمم الجاهلية ، وكانت فريسة الشرك والوثنية السافرة أحياناً كثيرة .

ولكن طوائف من المسلمين في القديم والحديث لم تعمل بوصيته التي لم ينسها في آخر عهده بالدنيا ، ولم تُلقِ لها بالاً ، وافتتنت بالمشاهد والآثار ، وشدّ الرحل إليها من بلدان نائية ، والعكوف عليها تبرّكاً وتعبّداً ، افتتاناً عظيماً ، فكان ذلك تصديقاً لقوله ، وتحقيقاً لإخباره : لَتَتَّبِعُنّ سنن من قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع [٣] ، واغتصبت هذه المشاهد والضرائح ، ـ ومنها ما هو مكذوب ومزوّر ـ حظ المساجد ، وحظ المسجد الحرام في بعض الأحيان ، وقد جعلها الجهّال في كثير من الأقطار « كعبة » يشدّون إليها الرّحال ، ويقصدونها من نواحٍ بعيدةٍ ، وقد اتخذوها عيداً يعودون إليه في كل سنةٍ ويجتمعون في عدد كبير ، ويقيمون الأسواق .

وقد أجاد شيخ الإسلام تقي الدين بن تيميّة في وصف هذه الطوائف

---

(١) رواه مالك في الموطأ .

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً .

(٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قيل يارسول الله ، اليهود والنصارى ، قال ، فمن » (متفق عليه).

بجملته التاريخية البليغة ، « مشاهدهم معمورة ، ومساجدهم مهجورة [1] » والسائح في الأقطار الإسلامية يواجه هذه المشاهد والضرائح ، ومساحاتها الواسعة ، وأبنيتها الضخمة ، وقبابها الرفيعة في كل بلد يمرّ به ، ويرى هنالك من أعمال شركيّة كالسجود ، والنّذور والذبائح ، وأدعية وسؤال من صاحب الضريح ، ما يندى له جبين الإسلام .

أما الديانات الهنديّة – بما فيها من البوذيّة والجينية والبرهميّة – فقد كثرُت فيها المشاهد والمعابد ، والأمكنة « المقدّسة » المقصودة من النواحي والأطراف كثرة فاحشة بطبيعة الحال ، وهي الأمكنة التي يرون لها شرفاً عظيماً ، وقُدساً خاصاً ، ويعتقدون فيها بركة لما حدث فيها من الوقائع العظيمة ، وأكرم فيها بعض عظمائهم بالقُرب أو الكلام ، أو الوصول والمعرفة ، أو تجلّت فيها بعض آلهتهم – كما يزعمون – تجلّياً خاصاً ، وكثرت فيها الأعياد الدينيّة ، والمواسم والأسواق ، التي انصبغت بصبغة الدين .

وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدّسة على ساحل نهر « الكنج » (GANGES) المقدّس ، يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل ، للإغتسال في النهر المقدّس ، ومنها ما يجتمعون فيها سنوياً ، أو عدة مرات في السنة ، ومنها ما يجتمعون فيها بعد سنين ، كمقل KUMBH الذي يجتمعون له بعد اثني عشر عاماً ، عند ملتقى نهري « الكنج وجمنا » في برياك (PARAYAG [2]) ومن أشهرها مدينة « بنارس » في الولاية الشمالية ، على نهر « الكنج » ويُعدّون الإغتسال فيه كفّارةً للذّنوب ، ومن أعظم الحسنات والقربات ، ويؤثرون الموت في هذه المدينة ، وتُنقل إليها جُثث الموتى من النواحي البعيدة ، لتُحرق

---

(١) راجع ما قاله شيخ الإسلام في هذا الموضوع في الجزء الأول من منهاج السنة – ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٢) من ضواحي « إله أباد » المدينة المشهورة .

هناك ، أو تترك في النهر على اختلاف العقائد والعادات والطوائف الهندية ، ومنها بلدة «اجودهيا » التي كانت مركزاً « لراما » (RAM CHANDER) و «متهرا» التي لها اتصال بتاريخ « كرشنا » (KRISHNA) ،ومنها «هردوار [1]» وكلها في الولاية الشمالية الغربية ، وهنالك مشاهد وشواطىء ، ومعابد هامة تعد بالعشرات في شبه القارة الهندية ، تختلف فيها العادات والتقاليد باختلاف الأقاليم والمناطق ، وباختلاف الطوائف التي تدين بها .

ومن أعظم المراكز المحجوج إليها عند البوذيين مدينة « كيا » (GAYA) في ولاية « بِهار » التي قضى فيها مؤسس هذه الديانة المؤلّه « كوتم بده » GOTAM BUDDHA مدة طويلة ، وتشرف بالشهود أو المعرفة ، التي يسمونها « نيروان » NIR VAN .

والأعياد والأسواق التي تقام في هذه الأمكنة المقدسة ، وعلى الشواطىء ، مسرح الفوضى والجنايات ، ويتجلى فيها عدم النظام ، وعدم النظافة لكثرة الزوار والقاصدين الذين قد يبلغ عددهم – خصوصاً في الأعياد والأسواق التي تقام بعد مجموعة من السنين – الى ملايين من النفوس ، رغم حرص الحكومه على إقامة النظام وقوانين الصحة ، والوقاية من الأمراض ، وتقترن بتقاليد جاهلية ، وأعمال شركية ، وأساطير الآلهة والإلهات القديمة ، ومن إعجاز القرآن ، أنه لما ذكر حج البيت الذي بناه ابراهيم وحث عليه ، نعى على الشرك والوثنية والزور الذي تلوثت به المناسك ،وأعمال الحج والزيارة في الديانات والأمم الأخرى، فقال : « ذلك ، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور ،حنفاء لله غير مشركين به [2] »

---

(١) معناه باب المعبود ، أو باب الاله .

(٢) سورة الحج : ٣٠ – ٣١ .

هذه صورة مجملة لأساليب الحج والزيارة ، والرحلة الدينية في ديانات العالم الرئيسية ، التي لا يزال لها أتباع ومؤمنون يُعدّون بالملايين ، وملايين الملايين ، وقد كان شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمة الله عليه ، عميق النظر ، واسع الإطلاع ، غير مجانب للصواب والإنصاف ، إذ قال في كتابه « حجة الله البالغة » وهو يتكلّم في موضوع الحج :

وأصل الحج موجود في كل أمّة ، لابدّ لهم من موضع يتبركّون به ، لما رأوا من ظهور آيات الله فيه ، ومن قرابين وهيآت مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها ، لأنها تذكر المقرّبين وما كانوا فيه .

وأحقّ ما يحج إليه بيت الله ، فيه آيات بيّنات ، بناه ابراهيم صلوات عليه ، المشهود له بالخير على ألسنة اكثر الأمم ، بأمر الله ووحيه بعد أن كانت الأرض قفراً وعراً ، إذ ليس غيره محجوج ، إلاّ وفيه إشراك أو اختراعُ ما لا أصل له [1] »

ويستطيع القارىء في سهولة أن يُقارن بينها وبين الحج الإسلامي ، ويَعرف مفارقات بينها وبين هذا الركن الرابع ، ويقرأ قوله تعالى ، ويحدّث بنعمة ربّه : « لكل أمةٍ جعلنا منسكاً هم ناسكوه ، فلا ينازعنّك في الأمر وادع إلى ربّك إنك لعلى هدىً مستقيم [2] »

دور الاسلام الاصلاحي في تشريع الحج :

وقام الإسلام – شأنه في الأركان الثلاثة الأخرى – بدوره الإصلاحي التجديدي في الحج ، وقد كان أهل الجاهلية قد أدخلوا في الحج عادات جاهليّة ،

---

(١) حجة الله البالغة ج١ - ص ٥٩ .

(٢) سورة الحج - ٦٧ .

وأموراً ابتدعوهـــا ، ما أنزل الله بها من سلطان ، واصطلحوا على أشياء ، وتواضعوا عليها من الزمن القديم ، فكان تحريفاً في الحج الذي شرعـه الله على لسان ابراهيم ، وتوارثته قبائل العرب جيلاً بعد جيل جنى على كثير من مقاصده وفوائده، وكانت الحميّة الجاهليّة ، والنخوة القبليّة ، وما كانت عليه قريش من التفاخر والكبرياء ، وحرصهم على التميّز ، هو الباعث الأكبر على هذه الزيادات والتحريفات ، فجاء القرآن والتشريع الإسلامي بإزالة هذه البدعة والتحريفات، وإبطالهـا ، وقد تصدى القرآن الحكيم لكل بدعة من هذه البدع ، ولكل موقف من مواقف الجاهلية الدخيلة ، فاجتثّه واستأصل شأفته ، وأبدله بخير منه .

فمن ذلك أن قريشاً لم يكونوا يدخلون عرفات مع الحجيج ، بل يقفون في الحرم، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقُطّان بيته، ويقولون نحن الحُمس[1]، وما ذلك إلاّ ليتميّزوا عن سائر الناس ، ويحافظوا على مركزهم الجاهلي ، وعلى ما كانوا يتخيّلونه من سموّ وامتياز ، فأبطل الله هذا الامتياز الجاهلي ، وأمرهم بأن يعملوا كما يعمل الناس ، ويقفوا بعرفات ، وقـال : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس[2] » ، روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها : « كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمّون الحُمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلمّا جاء الاسلام ، أمر الله نبيّه ﷺ ، أن يأتي عرفـات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله «من حيث أفاض الناس » قال ابن كثير ، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسّدي ، وغيرهم رضوان الله عليهم واختـاره ابن جرير ، وحكى عليه الإجماع .

ومنها أن أهل الجاهلية ، كانوا قد اتخذوا الموسم سوقاً للتفاخر والمساجـلة

---

(١) قال العلامة محمد طاهر الفتني في « مجمع بحار الأنوار » حمس هو جمع أحمس : وهم قريش ومن ولدته وكنانة وجديلة قيس ، لأنهم تحمسوا في دينهم ، أي تشددوا .

(٢) سورة البقرة : ١٩٩ .

كما كان شأنهم في « عكاظ » و « مجنة » و « ذي المجاز » ، وكانوا ينتهزون كل فرصة للإجتماع وتلاقي القبائل للتطاول بالأنساب ، ومآثر الآباء وعدّ المفاخر ، وكان الاجتماع في « منى » خير مكان لإرضاء العاطفة الجاهلية ، فنهى الله عن ذلك ، وأبدلهم بما هو خير منه ، وهو ذكر الله،فقال : « فإذا قضيتم مناسككم، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً [1] » قال ابن عباس رضي الله عنه : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم ، فيقول رجل منهم ، كان أبي يُطعم ويحمل الحمالات ، ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمد ﷺ : « فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً [2] »

ومنها أنّ الحج قد فقدعلى مرّ الأيام شيئاً كثيراً من قدسه وطهره ونزاهته ، وأصبح عيداً من أعياد الجاهلية ، ومكاناً للتهو والخصام ، فذمّ الله ذلك في القرآن ، وقال : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج [3]) قال ابن كثير ، قال عبدالله بن وهب ، قال مالك ، قال الله تعالى : (ولا جدال في الحج) فالجدال في الحج ،والله أعلم ، أنّ قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء : نحن أصوب ، ويقول هؤلاء : نحن أصوب ، هذا فيما نرى ، والله أعلم ، وعن محمد كعب قال : كانت قريش إذا اجتمعت بمنى ،قال هؤلاء : حجنا أتمُّ من حج ، وقال هؤلاء : حجنا أتمُّ من حجكم.

ومنها أنّ العرب كانوا في جاهلي إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ، نضحوا عليها من دمائها ، فقال تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها [4] " ابن كثير ، قال ابن ابي حاتم ،حدّثنا

(١) سورة البقرة : ٢٠٠ .
(٢) سورة البقرة : ٢٠٠ .
(٣) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٤) سورة الحج : ٣٧ .

علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن ابي حماد ، حدثنا ابراهيم بن المختار عن ابن جريج ، قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فنحن أحقّ أن ننضح ، فأنزل الله تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم [1]) .

ومنها أنّ العرب كانوا إذا نووا الحج تحرّجوا من دخول البيوت من الابواب، وكانوا يرون ذلك إثماً وتفريطاً في جنب الله وفي جانب الحج ، وكانوا يتسوّرون البيوت من ظهورها ما داموا محرمين ، فأبطل الله ذلك ، ونفى أن يكون من أنواع البرّ ، وقال : (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البرّ من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها [2]) قال البخاري حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي اسحق عن البراء ، قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله : (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى .وأتوا البيوت من أبوابها [3]) وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي اسحاق عن البراء ، قال : كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم ، لم يدخل الرجل من قِبَل بابه ، فنزلت هذه الآية .

ومنها أنّ أناساً من العرب كانوا يستحيون ويتأثمون من أن يخرجوا للحجّ مع زاد يبلّغهم إلى البيت ويتجلّدون، ويتظاهرون بالتوكل ، ويقولون : نحن ضيوف الله، ولا نتزوّد ولا نتبلّغ، وكانوا لا يتحرّجون من التسوّل والشّحاذة، والاستجداء ، ويعدّون ذلك في سبيل الله ، فنهاهم الله عن ذلك ، وقال : (وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى [4]) قال ابن كثير ، قال العوفي عن ابن

---

(١) سورة الحج : ٣٧ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٩ .
(٣) سورة البقرة : ١٨٩ .
(٤) سورة البقرة : ١٩٧ .

عباس : كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة ؛ يقولون : نحج بيت الله ولا يُطعمنا ؟ ، فقال الله تعالى : (تزوّدوا) ما يكفّ وجوهكم عن الناس ، وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزوّدون ، ويقولون : نحن المتوكلّون ، فأنزل الله : (وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى) .

وكذلك كانوا يتأثّمون من التجارة في الموسم ، وذلك تحريم ما أحلّ الله ، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : : كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهليّة ، فتأثموا أن يتّجروا في الموسم ، فنزلت : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم [1]) في مواسم الحج ، وعن مجاهد رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج ، يقولون أيّام ذكر ، فأنزل الله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم) .

ومنها أنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، ويقولون : لا نطوف في ملابس عصينافيها ،فكان ذلك باباً لفساد عظيم ، وتشريعاً جاهليّاً ، فأنزل الله تعالى : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد [2]) رواه مسلم والنسائي ، وابن جرير ، واللفظ له : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كلّه
وما بدا منه فلا أحلّه

---

(١) سورة البقرة : ١٩٨ .
(٢) سورة الأعراف : ٣١ .

فقال الله تعالى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد [1] » وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : « خذوا زينتكم عندكل مسجد » الآية ، قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو ما يواري السوأة ، وما سوى ذلك من جيّد البزّ والمتاع ، فأُمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وقال ابن كثير ، هكذا قال مجاهد وعطاء ، وابراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، وقتادة والسّدّي ، والضحّاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها ، أنها نزلت في طوائف المشركين بالبيت عراة .

وقد قُرن ذلك بأمر وتنفيذ من رسول الله ﷺ ، فأرسل أبا بكر رضي الله عنه في العام التاسع ، وأمره بأن يُعلن : لا يطوف بالبيت عريان ، وقد روى البخاري بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أنّ أبا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمّره النبي ﷺ عليها قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذّن في الناس لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوفنّ بالبيت عريان [2] »

ومنها أنّ الطوائف من أهل العرب كانت تتحرّج أن تطوف بالصفا والمروة ، وكانوا يرون ذلك من أمر الجاهليّة ، فأنزل الله : « إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما [3] » قال عروة عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قلت أرأيت قول الله تعالى « إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما) قلت فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوّف بهما ، فقالت عائشة رضي الله عنها : بئس ما قلت يا ابن اختي ، إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه ، كانت

---

(١) سورة الأعراف : ٣١ .

(٢) الجامع الصحيح للبخاري ـ كتاب المغازي « باب حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس »

(٣) سورة البقرة : ١٥٨ .

فلا جناح عليه أن يطّوف بها ، ولكنها إنما أنزلت ، ان الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل ، وكان من أهلّ لها يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله إنّا كنا نتحرّج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : (إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما)[1] قالت عائشة رضي الله عنها : ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما ، (أخرجاه في الصحيحين) ، وقال البخاري رضي الله عنه : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان ، قال سألت أنساً عن الصفا والمروة ، قال كنّا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (إنّ الصفا والمروة من شعائر الله) .

وبهذه الإصلاحات البعيدة الأثر ردّ التشريع الإسلامي هذا الركن العظيم ، إلى أصله الابراهيمي ، ووضعه الأصيل النقي ، البعيد عن تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين[2] .

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي ، إذ قال :

« إعلم إنه ﷺ بعث بالملة الحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى : « ملة أبيكم إبراهيم » ولما كان الأمر على ذلك ، وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وسننها مقررة ، إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغيرها وتبديلها ، بل الواجب تقريرها ، لأنه أطوع لنفوسهم ، وأثبت عند الاحتجاج عليهم »[3]

---

(١) سورة البقرة : ١٥٨ .

(٢) استفدنا في هذا البحث من توجيهات استاذنا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله « في سيرة النبي » المجلد الخامس .

(٣) حجة الله البالغة ج٢ ص ٥٦

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة
سورة الفاتحة ، جمالها وجامعيتها وتأثيرها في الحياة . . .	٣٨
تلاوة ما تيسر من القرآن	٤١
الخضوع الطبيعي المتدرج	٤١
السجدة الخاشعة الحنون ، التي يضطرب لها الكون . .	٤٢
الصلاة على النبي ، محلها في الصلاة وحكمتها . .	٤٣
ثقة المسلم بنفسه وتحديد جماعته وحزبه	٤٥
نهاية الصلاة ، وحسن خاتمتها	٤٦
تناقض الصلاة « الحقيقية » مع عبادة غير الله ،وعبودية الإنسان والحياة الجاهلية	٤٧
تأثير الصلاة في الأخلاق والنفوس	٤٩
التشريعات الحكيمة لتفخيم شأن الصلاة ، وخلق الجو المناسب له	٤٩
الأذان نداء الصلاة ، ودعوة للإسلام	٥٠
التطهر وما يورثه من إهتمام	٥١
المساجد ، فضلها ومركزها في حياة المسلمين	٥٢
الآداب المشروعة لتقوية الجو الإيماني الروحاني . .	٥٠
الجماعة ، أهميتها وفضلها	٥
بعض حكم الجماعة ومصالحها ، وبعض آدابها	٦
الجمعة ، مكانتها وخصائصها	
الجمعة ميزان الأسبوع	
صلاة العيدين ، وامتيازهما الإسلامي	

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع

الموضوع	رقم الصفحة

الصيام ١٧٧

الموضوع	رقم الصفحة

المـوضـوع | رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة